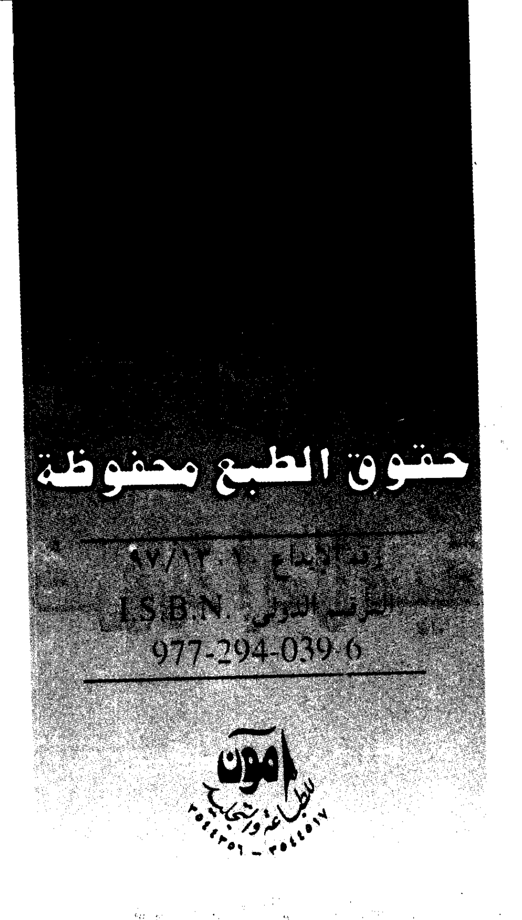
مواجهة الغزو الفكرى
ضرورة إسلامية

بقلم

الدكتور أحمد عبدالرحيم السايح

الأستاذ بجامعة الأزهر وقطر وأم القرى

مركز الكتاب للنشر



رقم الإيداع ٩٧/١٢٠١٠
الترقيم الدولي I.S.B.N.
977-294-039-6



مصر الجديدة: ٢١ شارع الخليفة المأمون - القاهرة
ت: ٢٩٠٨٢٠٣ - ٢٩٠٦٢٥٠ - فاكس: ٢٩٠٦٢٥٠

مدينة نصر: ٧١ شارع ابن النفيس - المنطقة السادسة - ت: ٢٧٢٣٣٩٨

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾.

سورة البقرة. الآية رقم: ١٢٠.

وقال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾.

سورة التوبة. الآيتان: ٣٢، ٣٣.

وقال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ* هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾.

سورة الصف. الآيتان: ٨، ٩.



المقدمة

الحمد لله رب العالمين. الذى أكمل الدين، وأتم النعمة، ورضى الإسلام للمسلمين دينا.

والصلاة والسلام على محمد رسول الله. المبعوث رحمة وهداية للناس أجمعين.

أما بعد فإن التيارات الفكرية، والحركات المعاصرة. تشكل فى مجموعها تياراً جارفاً، يزحف على المجتمعات الإنسانية فى خبث، ودهاء، ومكر، وخداع، ليصرف المجتمعات عن حركة الحياة، ويشغلها بما هو بعيد عنها.

ولقد عانت المجتمعات الإسلامية، من التيارات الفكرية الزاحفة، وشغل الناس بها. مما صرف الناس عن المواكبة العلمية، والفهم الصحيح لمبادىء الإسلام. وأصبح الناس يتغنون بالماضى وهم نائمون فى رقدة بالموت أشبه.

ولا يخفى على كثير من الناس: أن التيارات الفكرية تعمل بكل ما تملك من إمكانات، على غزو مجتمعات الأمة الإسلامية، غزواً فكرياً، يفتت الأمة ويضعف من انطلاقها، ويقيد حركتها، ويبعدها عن الواقع.

ولقد تعرضت المجتمعات الإسلامية لهجمة شرسة، يقودها أعداء الإسلام من خلال تيارات التبشير، والاستشراق، والصهيونية، والماسونية، والقومية.

وتحاول هذه الهجمة أن تنال من الأمة الإسلامية، فى مجتمعاتها المختلفة. لتنزع منها شخصيتها التى كانت لها، وقت أن كانت الأمة قوة يتهيب العدو بأسها، ويخشى سلطانها.

والحركات الهدامة، والتيارات المختلفة، والضغوط القاتلة. تحاول جهدها أن تعيق العمل الإسلامى. كى لا ينطلق بالمسلمين، إلى كل ما من شأنه أن يأخذ بالأمة إلى التنمية، والإنتاج، والتقدم. وقد لا يكون المرء مجانباً للصواب. إذا تأكد لديه: أن ما تعانيه الأمة الإسلامية، من هزائم فكرية، واقتصادية،

وسياسية، هو نتيجة حتمية لتغلغل التيارات والحركات الهدامة التى تنخر فى العظام، وتستهدف الجذور، وتركز على تشويه الأصول.

إن الأمة الإسلامية أصبحت هدفاً ثميناً من أهداف تصدير الأفكار، وتمكين مراكز التبشير. لتبقى المجتمعات الإسلامية مسخاً، شائهاً، تائهاً.

ومن المعروف لدى الباحثين: أن سوق الأفكار أخطر أسواق المنتجات وأكثرها تقبلاً للتزييف والفساد. ومن ثم حصلت أسواقنا بما هو أشد فتكاً من السموم، أفكار ترتدى أثواباً، أو تحمل شعارات، أو ترفع مشاعل. ليس الثوب فيها، أو الشعار، أو المشعل. إلا قناعاً يستر الزيف والخطر.

إن الأمة الإسلامية، تتعرض لتكالب مسعور، عمل على تمزيق المجتمعات الإسلامية، ولم تعد المجتمعات تحس بشخصيتها الإسلامية.

ومن حق الأمة أن تتنبه للأخطار المحدقة بها والتى باتت تنهش فى كل شىء، وفى أى اتجاه.

ومواجهة الغزو الفكرى، ضرورة إسلامية، لا بد منها. ومن حق الأمة، أن تتبصر المواقع، وتتعرف على الخطوات المطلوبة. لتتمكن من المواجهة..

ولهذا جاء هذا الكتاب مساهمة تنبيه، فى طريق يحتاج إلى جهود مخلصة وواعية، تلتقى فيها الأفكار، والعقول، والإمكانات.. لتساعد على إنقاذ المجتمعات الإسلامية من الضياع، والذوبان، والانسلاخ.

ولا يظن أحد أن سكوتنا عن موقع من مواقعنا، يتعرض لسعار وبائى، ينجينا من تكالب أولئك.

إن الأمر جد خطير. فهل نتدارك قبل فوات الأوان؟

الدكتور

أحمد عبدالرحيم السايح

أستاذ العقيدة بجامعة أم القرى

(مكة المكرمة)

الفصل
١
الأول

الغـــزو الفكرى



مصطلح الغزو الفكرى

بداية نقف عند مصطلح «الغزو الفكرى» الذى يتردد فى هذا العصر كثيراً على ألسنة الباحثين، والكاتبين، والمتحدثين، وإن وقفة استقرائية، تكشف فى وضوح: أن هذا المصطلح، لم يسمع به قبل القرن الرابع عشر الهجرى «القرن العشرين الميلادى».

ولكن ليس معنى عدم وجود المصطلح، أو عدم استخدام المصطلح، قبل القرن الرابع عشر الهجرى، أن معنى الغزو الفكرى، ومفهومه، وموضوعه، لم يكن موجوداً، لأن المستقرىء لأحوال الأمم والشعوب، يجد أن مفهوم الغزو الفكرى، كان موجوداً فى القديم، وفى الحديث.

وكلمة: «الغزو» فى اللغة العربية تعطى معنى: القصد، والطلب، والسير إلى قتال الأعداء، فى ديارهم، وانتهابهم، وقهرهم، والتغلب عليهم.

ومصطلح الغزو الفكرى، قصد به: «إغارة الأعداء على أمة من الأمم، بأسلحة معينة، وأساليب مختلفة، لتدمير قواها الداخلية، وعزائمها ومقوماتها. وانتهاب كل ما تملك»[1].

والفرق بين «الغزو الفكرى»، و«الغزو العسكرى»: أن الغزو العسكرى يأتى للقهر وتحقيق أهداف استعمارية، دون رغبة الشعوب المستعمرة، أما الغزو الفكرى فهو لتصفية العقول، والأفهام لتكون تابعة للغازى[2].

وقد يكون الغزو الفكرى أشد وأقسى، لأن الأمة المهزومة فكرياً، تسير إلى غازيها، عن طواعية، وإلى جزارها عن رضا، واقتناع، وحب، لا تحاول التمرد أو الخلاص.

---

(١) انظر: الدكتور توفيق يوسف الواعى، الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية، ص ٦٨٠، ط دار الوفاء، المنصورة، ١٤٠٨هـ، القاهرة.

(٢) المصدر السابق، ص ٦٨٠، بتصرف.

وبهذا يظهر ما بين المصطلح واللغة من صلة، حيث أن كلمة الغزو استعملت فى معناها، وهى الإغارة على أمة من الأمم للاعتداء عليها، وانتهابها، ولكن عن طريق الفكر وتدمير القوى المفكرة فيها، وهذا ما لفتت إليه كلمة: الفكر، التى تطابق معناها فى العربية، معناها فى المصطلح[1]..

ويمكن أن يقال أيضاً: إن المصطلح استعار كلمة «الغزو» للفكر، لما بينها وبين الغزو فى الحرب من علاقة، فى نهب الشعوب، وتدميرها، والسيطرة عليها.
ويمكن أن يقال أيضاً: إن مصطلح «الغزو» مجاز على التشبيه بالحرب الفعلية، فى التدمير، والتخريب، والانتهاب، والسيطرة على الشعوب.. ولهذا شاع استعمال هذا المصطلح، وأضرابه من المصطلحات، التى تدل على هذا المعنى، وتسير فى فلكه[2]..

ومما يسترعى الانتباه، أن بعض العلماء والباحثين: ينكرون ويستنكرون وجود «الغزو الفكرى». معتبرين الحديث عنه مجرد «وهم» من الأوهام.

وهؤلاء العلماء إنما ينطلقون من تصورهم لعالم اليوم، باعتباره رغم الحدود الدولية السياسية، والحواجز الجغرافية، وبسبب من التقدم الهائل فى ثمرات «ثورة الاتصال» ينطلقون من تصورهم لعالم اليوم باعتباره «وطناً واحداً» لحضارة واحدة، يسمونها: «حضارة العصر» أو «الحضارة العالمية» أو «الحضارة الإنسانية» ويتصورون الأمم، والشعوب، والقوميات، مجرد درجات ومستويات فى البناء الواحد، لهذه الحضارة الواحدة.

ومن ثم فليس فى هذا التصور حدود ـ لها حرمة الحدود ـ تميز «أوطاناً» متعددة، لحضارات متميزة.. ولهذا فإن عبور الفكر ـ كل الفكر ـ للحدود ليس فيه عندهم شبهة «غزو» ولا أثر «عدوان»[3].

وهذا التصور يُرَوَّجُ له بشتى الأساليب، فثمة دعوة إلى «فكر عالمى» وهناك دعوة إلى أن الحضارة الحديثة «حضارة عالمية» وهناك دعوة إلى «ثقافة عالمية».

---

(١) انظر: المصدر السابق، ص ٦٨١ مع تصرف وإضافة.

(٢) انظر: المصدر السابق، ص ٦٨١ مع تصرف يسير.

(٣) الدكتور محمد عمارة، الغزو الفكرى وهم أم حقيقة ص ٦، ط. الأمانة العامة للجنة العليا للدعوة الإسلامية بالأزهر الشريف، ١٩٨٨.

فحركة «البهائية» التى نشأت سنة ١٢٦٠هـ - ١٨٤٤م تحت رعاية الاستعمار الروسى، واليهودية العالمية، والاستعمار الإنجليزى، تزعم أنها جاءت بدين عالمى جمع: البوذية، والبرهمية، والزرادشتية، والمانوية، والمزدكية، والفرق الباطنية، واليهودية، والنصرانية، والدهرية. وهذه الدعوة تجد رواجاً[١].

وهناك علماء ومفكرون، ينكرن أن يكون عالم اليوم، وطناً حضارياً واحداً. لحضارة عالمية واحدة.. وهؤلاء العلماء يَدْعُون إلى ضرورة احترام «الحدود الحضارية».. لأن العالم فى تصورهم: هو أقرب ما يكون إلى «منتدى عالمى لحضارات متميزة» تشترك أممها فى عضوية هذا المنتدى، ومن ثم فإن بينها ما هو «مشترك حضارى عام».. وأيضاً، فإن هذه الأمم تتمايز حضارياً.. الأمر الذى ينفى الوحدة الحضارية، ويستدعى الحفاظ على «الهويات» الحضارية المتميزة.. لا لمجرد، الحفاظ عليها ـ رغم أهميته ـ إنما لأسباب وطنية، وقومية، وعقيدية، تلعب دورها فى إنهاض أمم كثيرة، من كبوتها وتراجعها، لما لهذه الخصوصيات، من قدرات على شحن شعوب هذه الأمم، بالكبرياء المشروع، والطاقات المحركة، فى معركة الإبداع.. ولما للتعددية من دور فى إثراء مصادر العطاء العالمى[٢].

وهؤلاء العلماء الذين ينكرون أن عالم اليوم وطناً حضارياً واحداً، لحضارة عالمية واحدة، يذهبون إلى أن التعددية الحضارية، تكشف وتعرى، روح الهيمنة، والعدوان، والاستعلاء، التى تخفيها الحضارة المتغلبة، على عالمنا المعاصر. وهى الحضارة الغربية، تحت ستار: «وحدانيتها.. وعالميتها.. وإنسانيتها».

كما أن هذه التعددية تقوم بدور فعال، فى إذكاء روح المقاومة، عند الأمم المستضعفة حضارياً، ضد السمات والقسمات التى مثلت وتمثل «مأزق الحضارة الغربية» الذى يمسك اليوم بخناق إنسانها، وذلك حتى لا تعم مأساته كل بنى الإنسان؟[٣].

---

(١) انظر: الندوة العالمية للشباب الإسلامى، والموسوعة الميسرة فى الأديان والمذاهب المعاصرة ص ٦٤، ط الرياض، ١٤٠٩هـ.

(٢) انظر: الدكتور محمد عمارة، الغزو الفكرى وهم أم حقيقة، ص ٧ بتصرف.

(٣) المصدر السابق، ص٧.

هؤلاء العلماء يعترفون بوجود: «الغزو الفكرى»، وينبهون على مخاطره التى تعددت، وتكاد تحيط بالمجتمعات الإسلامية . .

وهؤلاء العلماء: يرفضون دعوى «الوطن الحضارى الواحد لعالمنا المعاصر» ودعوى «الحضارة العالمية الواحدة» لهذا الوطن الواحد، ويقدمون بديلاً لها: دعوى أن عالمنا هو أقرب ما يكون إلى «منتدى عالمى لحضارات متميزة» وأن الأمم المستضعفة حضارياً، لا بد لها من النضال الحضارى، ضد نزعة التفرد، والهيمنة، التى تمارسها الحضارة الغربية المتغلبة ـ بالاستعمار القديم والجديد ـ على غيرها من الحضارات. . فالتعددية لا الواحدية، هى الحقيقة الممثلة للواقع الحضارى، فى الواقع الذى نعيش عليه. ومن ثم فإن هناك حالات لتعدى «الحدود الحضارية». تمثل «غزواً فكرياً» لا شك فيه[1].

وهذا التصور يؤيده واقع حياة الشعوب، فالذين يعايشون حياة الشعوب، والأمم ذات الحضارات الغنية، والتاريخ القديم، والتراث العريق، . . أو يغوصون فى تراث هذه الأمم وفلسفتها، ومذاهبها، وتقاليدها، وأعرافها. . يدركون أن عالمنا به ـ حقاً ـ أمم متعددة، تتميز كل منها بشخصيتها القومية والحضارية المتميزة.

وإننا إذا نظرنا فى مذاهب هذه الأمم وأعرافها، وفى معايير الحلال والحرام، والمشروع والممنوع لدى أبنائها، وفى موازين الأذواق والحاسة الجمالية، وفى تصوراتها الفلسفية لهذا الكون، وما وراء المادة والطبيعة. . إذا نحن نظرنا إلى مذاهب هذه الأمم، فى هذه القضايا الأمهات، أدركنا السمات التى تمايز بينها ـ جنباً إلى جنب ـ مع سمات تشترك فيها، فتجمع بينها[2].

ولا يخفى أن الباحث الذى يسبر أغوار المواريث الفكرية لهذه الأمم، ويتتبع خيوط هذا التمايز الحضارى، إلى حيث تضرب بجذورها فى أعمق أعماق التاريخ. . حيث كان البابليون، والآشوريون، والفينيقيون، والمصريون، وغيرهم ممن أسهموا فى الفكر الإنسانى، كان لهم تمايز حضارى[3].

---

(١) انظر: الدكتور محمد عمارة، الغزو الفكرى وهم أم حقيقة، ص ٨.

(٢) المصدر السابق، ص ٨، ٩.

(٣) راجع: الدكتور أحمد السايح، أضواء على الحضارة الإسلامية، ص ٧٨، ط. دار اللواء بالرياض، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

ولعل نظرة فاحصة إلى مثل: الصين.. الهند.. واليابان، ستفضى بالباحث إلى الاجتماع على حقيقة تميز الشخصيات القومية، والمواريث الحضارية، وطرائق العيش، والفلسفة، والحياة، وفى النظرة للكون وتصوره، لدى شعوب وأمم هذه الحضارات..

وكذلك الحال إذا نحن تأملنا الحضارة الغربية، منذ اليونان، وحتى نهضتها الحديثة.. والحضارة الإسلامية منذ تبلورها كثمرة لاندماج هذه المواريث القديمة للشعوب التى دخلت الإسلام - بعد الإحياء لهذه المواريث - كثمرة لاندماج هذه المواريث فى الفكر الإسلامى، الذى استصفاها وطورها وفقاً لمعاييره[1]. حيث لم يكن المسلمون مجرد نقلة، ولكن إضافاتهم للأصول التى نقلوا عنها، تشهد بأنهم زادوا، وابتكروا، لأنهم كانوا ينظرون بعين إلى الثقافة اليونانية، وبالعين الأخرى إلى التعاليم الإسلامية[2].

على أن الذى ينبغى أن نقف عنده: «أن التصور الذى يرى العالم وطناً واحداً لا غزو لفكر فيه، تصور يقوم على انتصار الحضارة الغربية المتغلبة، التى تعمل على مسخ الحضارات العريقة».

إذن: لا بد من التصور، الذى يقوم على أن الفكر إذا نظرنا إليه، على المستوى العالمى الإنسانى، وجدنا فى هذا الفكر: «ما هو مشترك إنسانى عام» لا يختص بحضارة بذاتها، وفى هذا الفكر أيضاً ما يتميز بالخصوصية والاختصاص.

والتميز فى الفكر، بين ما هو مشترك إنسانى، وبين ما هو خصوصية حضارية، إنما تحكمه وتحدده معايير موضوعية.

فكل العلوم التى موضوعها الطبيعة وظواهرها، والمادة وخصائصها، هى من قبيل الفكر، الذى هو مشترك إنسانى عام، وذلك لأن مناهجها تتميز بالحياد العلمى، ولأن التجربة الملموسة بالحواس المادية، هى السبيل لاكتشاف حقائق

---

(١) انظر: الدكتور محمد عمارة، الغزو الفكرى وهم أم حقيقة، ص ٩ بتصرف.

(٢) انظر: الدكتور توفيق الطويل، الحضارة الإسلامية والحضارة الأوروبية، ص ١٥١، ط. مكتبة التراث الإسلامى مصر ١٩٩٠م.

هذه العلوم، تلك الحقائق التى هى بنت الدليل، والتى لا تختلف باختلاف مذاهب، وعقائد، وأجناس، وفلسفات المكتشفين. ومن ثم فهى لا تتغاير بتغاير القوميات، والحضارات، بل هى واحدة على المستوى الإنسانى، كما أن موضوعاتها ـ المادة وظواهرها ـ واحدة هى الأخرى، لا تختلف ولا تتغاير باختلاف وتغاير الحضارات. فعلوم مثل الرياضيات بفروعها، ومثل الكيمياء، والطبيعة، والطب، والجيولوجيا، لم ولن تختلف مناهجها وحقائقها، وقوانينها باختلاف الحضارات.. قد تتمايز وظائف استخدام قوانينها ونظرياتها ومكتشفاتها. لكن حقائق علومها، أى «فكرها العلمى» سيظل واحداً، مهما اختلفت المذاهب، والعقائد، والحضارات[1].

والعقل البشرى استطاع بما اكتسب من خبرة، ودربة، ومرانة، أن يصنف هذه العلوم، وأن يحكم ما بينها من وشائج، وأن يستفيد بما بينها من صلات، وروابط.

والنتائج العلمية متصل بعضها ببعض. ويعتمد بعضها على بعض. ولهذا كانت الحضارات الإنسانية، ليست ملكاً لأمة بعينها. ولا هى وقف على جماعة من الناس، لأنها صرح هائل قد أسهمت فيه كل أمة بنصيب[2].

ويلحق بهذه المنظومة من حقائق العلوم الطبيعية الخاصة بدراسة المادة وظواهرها وأسرارها، على نحو ما، وإلى حد كبير العديد من ثمرات التجارب الإنسانية فى الوسائل، والنظم، والمؤسسات، والخبرات التى ترشد أداء الإنسان، وهو يسعى إلى تحقيق المقاصد والغايات.

فعلى الرغم من تمايز المقاصد والغايات والمثل، فإن تجارب الإنسانية فى الوسائل، والنظم، والمؤسسات، قد تكون صالحة فى أحيان كثيرة للاقتباس، وللتمثل، والاستلهام.

هذا عن العلوم الطبيعية، والتجارب المادية، التى تمثل حقائقها وخبراتها فكراً عالمياً، هو من صميم «المشترك الإنسانى».

---

(١) انظر: الدكتور محمد عمارة، الغزو الفكرى وهم أم حقيقة، ص ١٦.

(٢) انظر: الدكتور أحمد عبدالرحيم السايح، أضواء على الحضارة الإسلامية ص ٩٢.

فكما تميزت علوم «المادة» الثابتة بالعالمية، فغدت حقائقها، وقوانينها «مشتركاً إنسانياً عاماً» تميزت كذلك وتتميز علوم العقائد، والمذاهب، والفلسفات، بالخصوصية الحضارية، التى تجعلها وثيقة الصلة بطبائع الأمم، ومعتقدات الشعوب، وطرائقها فى الحياة[1].

(١) انظر: الدكتور محمد عمارة، الغزو الفكرى وهم أم حقيقة، ص ١٧، ١٨ بتصرف.

الغـزو الفكـرى

لقد وضح لنا: أن هناك «غزو فكرى» مقصود، يعمل لإذابة الشعوب، وانسلاخها عن عقائدها، ،ومذاهبها، وحضارتها، لتصبح مسخاً شائهاً تابعاً لغيره، يؤمر فيطيع. . ولقد عمل هذا الغزو على تضليل المجتمعات الإنسانية، وخداعها، والتمويه عليها، وقلب الحقائق، وتشويه الحقيقة، عن طريق تصنيع الكلمة، وزخرفة القول والدخول إلى المخاطب، من نقطة الضعف، والاستغفال لإغرائه، والإيقاع به، والإيحاء إليه بسلامة الفكرة، وصحة المفهوم المزيف الذى تحمله كلمات الغزو.

ولكم تهاوت أمم وشعوب وأجيال، وتساقطت فى هاوية الضلال والانحراف، والفساد الخلقى، والعقدى، والاجتماعى، بسبب تصورات «الغزو» المزخرفة الخداعة، التى يرقص السذج، والجهال على نغم إيقاعها، ويفتنون بسماعها وأناقة ظاهرها.

ولكم عانى الإنسان والشعوب من أولئك الذين يصنعون «الغزو الفكرى»، ويصدرونه فى موجات، تقتحم الديار والبيوت، لقد قيدت الإنسانية إلى هاوية الضلال، والانحراف، ولقد كان «للغزو الفكرى» فى كل جيل، وفى كل عصر دوره التخريبى، فى حياة الناس، إلا أن البشرية لم تشهد فى مرحلة من مراحل حياتها وضعاً كان فيه «للغزو الفكرى» خبراء، ومتفلسفون، وأجهزة، ومؤسسات، كعصرنا الحاضر هذا، الذى اتخذ فيه «الغزو الفكرى» صبغة الفلسفة، والنظرية، والمبدأ، الذى يعتنقه الأتباع، ويدافعون عنه، وينقادون له. .

وقضية الغزو الفكرى، أصبحت اليوم، من أشد القضايا خطراً، وتبدو ظواهر هذا الغزو المدمر، فى قلوب وعقول كثير من المثقفين، فى هذا العصر واضحة بينة، والسلاح الذى يستعمله «الغزو الفكرى» مدمر قتّال، يؤثر فى الأمم

والمجتمعات، أكثر مما يؤثر المدفع والصاروخ والطائرة، وقد ينزل إلى الميدان، ويعظم خطره، حين تخفق وسائل الحديد والنار، فى تحقيق الهدف، والوصول إلى الغاية، والخطر الذى يخلفه هذا الغزو أكثر بكثير من قتل الأفراد، بل من قتل جيل بأسره، إذ يتعدى ذلك إلى قتل أجيال متعاقبة، والسلاح الذى يستعمله هذا الغزو هو سلاح الحيلة والشبهات وتحريف الكلم، والخديعة، فى العرض[1].

ومما لا ينكر: أنه لم يواجه دين من الأديان، ولا عقيدة من العقائد، مثل ما واجه الإسلام من تحديات، فقد واجه الإسلام منذ فجر تاريخه، تحديات عنيدة من مخالفيه، فقد واجه المشركين فى مكة، واليهود فى المدينة، ثم لما فتحت الأمصار، وانتشر الإسلام فيها واجهت الثقافة الإسلامية أفكاراً شعوبية إلحادية، وفلسفات وثنية، كالفلسفات الفارسية، واليونانية والهندية، وغيرها. ولكن الإسلام ثبت أمام هذه التحديات، وانتصر عليها. فقد كان المجتمع الإسلامى آنذاك يعى الإسلام وعياً كاملاً، ويدرك أخطار الأفكار والاتجاهات التى كان يطرحها الفلاسفة والزنادقة، وما تحمله من شبهات، وهى فى جملتها تعمل على نقل الفكر، من مجال أصالة الفطرة، ومنطق العقل الصحيح، وطريق التوحيد، وطابع الإيمان، إلى مجال الإباحية. غير أن المجتمع تصدى لهم، وأخذ يكشف زيفهم، ويبين ما انطوت عليه قلوبهم من كيد، ولم تستطع أن تنال من الإسلام عبر العصور.

على أن أخطر هذه التحديات هى تلك التى تواجهها المجتمعات الإسلامية اليوم، وهى تحديات تتمثل بالمواجهة السافرة حيناً، والمستترة أحياناً، هذا التحدى الذى يتمثل حالياً بالغزو الفكرى الغربى[2].

---

(١) راجع: إبراهيم النعمة، المسلمون أمام تحديات الغزو الفكرى، ص ٧ ط. شركة معمل ومطبعة الزهراء الحديثة المحدودة، العراق ١٩٨٦م.

(٢) عز الدين الخطيب التميمى وآخرين، نظرات فى الثقافة الإسلامية، ص ٣١ دار الفرقان، عمان، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، الأردن.

أسباب الغزو الفكرى

أولا: العداء الصليبى للإسلام والمسلمين:

والباحثون يدركون أن أوروبا اكتشفت الفكر الإسلامى، فى مرحلتين من مراحل تاريخها: فكانت مرحلة القرون الوسطى، قبل وبعد «توماس إلاكوينى»[1] تريد اكتشاف هذا الفكر، وترجمته.. من أجل إثراء ثقافتها. بالطريقة التى أتاحت لها فعلاً تلك الخطوات، التى هدتها إلى حركة النهضة، منذ أواخر القرن الخامس عشر الميلادى، وفى المرحلة العصرية والاستعمارية، فإنها تكتشف الفكر الإسلامى مرة أخرى، لا من أجل تعديل ثقافى، بل من أجل تعديل سياسى، لوضع خططها السياسية، مطابقة لما تقتضيه الأوضاع فى البلاد الإسلامية من ناحية أخرى، ولتسيير هذه الأوضاع طبق ما تقتضيه السياسات فى البلاد الإسلامية[2].

ويذكر المؤرخون أن الجيوش الأوروبية الصليبية لما هاجمت بلاد الإسلام كانت مدفوعة إلى ذلك بدافعين:

الدافع الأول: دافع الدين، والعصبية العمياء، التى أثارها رجال الكنيسة، فى شعوب أوروبا، مفترين على المسلمين أبشع الافتراءات، محرضين النصارى أشد تحريض على تخليص مهد المسيح من أيدى الكفار ـ أى المسلمين ـ فكانت جمهرة المقاتلين، من جيوش الصليبيين من هؤلاء الذين أخرجتهم العصبية الدينية، من ديارهم عن حسن نية، وقوة عقيدة، إلى حيث يلاقون الموت، والقتل، والتشريد، حملة بعد حملة وجيشا بعد جيش.

والدافع الثانى: دافع سياسى استعمارى، فلقد سمع ملوك أوروبا بما تتمتع

(١) توماس الإكوينى ولد سنة ١٢٢٦م وتوفى سنة ١٢٧٤م ويعتبر من أعظم الفلاسفة واللاهوتيين فى العصر المدرسى المسيحى، وفى ١٣٢٣م منحته الكنيسة الكاثوليكية لقب القديس.

(٢) مالك بن نبى، إنتاج المستشرقين وأثره فى الفكر الإسلامى، ص ٨، ط دار بيروت ١٩٦٩م.

به بلاد المسلمين من حضارة، وثروات، فجاءوا يقودون جيوشهم باسم المسيح، وما فى نفوسهم إلا الرغبة فى الاستعمار والفتح، وشاء الله أن ترتد الحملات الصليبية كلها مدحورة مهزومة[1].

ويكاد يكون معروفاً، أن أوروبا شنت ثمان حملات صليبية على الشرق الإسلامى، وقد بدأت الحروب الصليبية منذ منتصف القرن الحادى عشر، واستمرت حتى نهاية القرن الثالث عشر، أى ما يقرب من مائتين وخمسة وعشرين عاماً فى ثمانى حملات من الحملات المدججة بالعدد والمعدات، ويصف كاهن مدينة (لوبوى ريموند واجيل) سلوك الصليبيين حينما دخلوا على القدس، فيقول: «حدث ما هو عجيب بين العرب عندما استولى قومنا على أسوار القدس وبروجها، فقطعت رؤوس بعضهم، فكان أقل ما أصابهم، وبقرت بطون بعضهم، فكانوا يضطرون إلى القذف بأنفسهم من أعلى الأسوار، وحرق بعضهم فى النار، فكان ذلك بعد عذاب طويل، وكان لا يرى فى القدس وميادينها سوى أكداس من رؤوس العرب وأيديهم وأرجلهم، فلا يمر المرء إلا على جثث قتلاهم، ولكن كل هذا لم يكن سوى بعض ما نالوه»[2].

وروى الكاهن نفسه خبر ذبح عشرة آلاف مسلم فى مسجد عمر - رضى الله عنه - ويقول فى هذا: «لقد أفرط قومنا فى سفك الدماء فى هيكل سليمان، فكانت جثث القتلى تعوم فى الساحة هنا وهناك، وكانت الأيدى والأذرع المبتورة تسبح، كأنها تريد أن تتصل بجثث غريبة عنها. فإذا ما اتصل ذراع بجسم لم يعرف أصلها. وكان الجنود الذين أحدثوا تلك الملحمة، لا يطيقون رائحة البخار المنبعثة من ذ لك إلا بمشقة[3].

ويذكر التاريخ أن الحملة الصليبية عند دخولها بيت المقدس فى ١٥ مايو عام ١٠٩٩م، قد ذبحت أكثر من سبعين ألف مسلم، حتى سبحت الخيل إلى صدورها فى الدماء، وفى انطاكية، قتلوا أكثر من مائة ألف مسلم.

---

(١) انظر الدكتور مصطفى السباعى، السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى، ص ١٨٧-١٨٨، ط بيروت.

(٢) انظر: غوستاف لوبون حضارة العرب، ص ٢، ٤ ترجمة عادل زعيتر.

(٣) لوثورب ستودارد، حاضر العالم الإسلامى، جـ١، ص ٦٠.

فالأمر خطير أنه حقد الشر على الحق، والرذيلة على الفضيلة، وعداوة الشرك للتوحيد، وخصومة الضلال للهدى[1].

وقد صمدت الأمة الإسلامية فى وجه هذه الحروب الوحشية التى سلبت ونهبت، وقتلت وفتكت.

وبعد مضى أكثر من قرنين من حروب دامية، اشتد وطيسها، بين كتائب الإيمان، وبين جحافل الشر، ارتدت الحروب الصليبية، وقد باءت هذه الحملات بالإخفاق والهزيمة، فالقديس «لويس التاسع» قائد الحملة الصليبية الثامنة، وملك فرنسا، وقع أسيراً فى مدينة «المنصورة» فى مصر. ثم خلص من الأسر بفدية، ولما عاد إلى فرنسا، أيقن أن قوة الحديد والنار لا تجدى نفعاً مع المسلمين الذين يملكون عقيدة راسخة، تدفعهم إلى الجهاد، وتحضهم على التضحية بالنفس، وبكل غال.

إذن: لا بد من تغيير المنهج والسبيل، فكانت توصياته: أن يهتم أتباعه بتغيير فكر المسلمين، والتشكيك فى عقيدتهم وشريعتهم، وذلك بعد دراستهم للإسلام لهذا الغرض، وهكذا تحولت المعركة من ميدان الحديد والنار إلى ميدان الفكر[2]، لأن القضاء على الإسلام أو تحويل المسلمين عن دينهم، لا يمكن أن يأتى عن طريق القوة المادية، والغزو المسلح.

ولقد بدأت حركة «الغزو الفكرى» من منطلق ضرب المسلمين عن طريق الكلمة، بعد هزيمة الحروب الصليبية ـ كما وجههم «لويس التاسع» ـ والعمل على ترجمة القرآن، والسنة، وعلوم المسلمين، للبحث عن الثغرات التى يدخلون منها إلى إثارة الشبهات، وقد أعلنوا صراحة أن الإسلام هو عدوهم الأول، وأن أكبر غاية لهم هى ضرب وهدم قواعده»[3]، لقد فشلت الحروب الصليبية فى الوجهة الحربية.. لكن بقى الغزو الفكرى ينفث سمومه، ويثير الشكوك، وبقيت النزعة الصليبية تتوارى خلف ستار من الديبلوماسية، والرياء السياسى، تحرك ما تريد تحريكه، وتقف خلف الغزو الفكرى، بكل ما لها من قوة، وعلم..

---

(١) راجع نادية شريف العمرى أضواء على الثقافة الإسلامية، ص ١٦٤.
(٢) إبراهيم النعمة: الإسلام أمام تحديات الغزو الفكرى، ص ١٢.
(٣) أنور الجندى: المد الإسلامى فى القرن الخامس عشر الهجرى، ص ١٢٦.

ولا شك أن العداء الصليبي للإسلام هو الدافع الأساسي والأصيل «للغزو الفكرى» الذى تسلط على مجتمعات الأمة الإسلامية، ونجد أن هذا العداء أخذ «شكل السعار الوبائى» لدى الأمم الغربية «الصليبية» فأخذوا مستميتين يوزعون السموم، ذات اليمين، وذات الشمال، ويفترون الأكاذيب، ويطمسون الحقائق، ويدبرون المكائد، ويتصيدون السقطات، ثم يدخلون فى روع أنفسهم، وبنى جلدتهم أنهم أرقى عنصراً وأفضل عقلاً، وأفلح ديناً، وأنهم أوصياء على البشرية، وسادة الإنسانية، وهداتها، ومرشدوها»[١].

وقال «وليم غيفورد بلغراف» الإنجليزى المسمى بالحرباء: الكلمة المشهورة التى يلخص فيها عداء الغربيين للإسلام: «متى توارى القرآن، ومدينة مكة، عن بلاد العرب، يمكننا أن نرى العربى، يندرج فى سبيل الحضارة، التى لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه»[٢].

وجلادستون رئيس وزراء بريطانيا يقول: «ما دام القرآن موجوداً فلن تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق، ولا أن تكون هى نفسها فى أمان»[٣].

ويرى غاردنر: «أن القوة التى تكمن فى الإسلام هى التى تخيف أوروبا»[٤].

ويوضح هذا العداء، ويذكر بعض أسبابه المستشرق «بيكر»، فيقول: «إن هناك عداء من النصرانية للإسلام، بسبب أن الإسلام عندما انتشر فى العصور الوسطى، أقام سداً منيعاً فى وجه الاستعمار، وانتشار النصرانية، ثم امتد إلى البلاد التى كانت خاضعة لصولجانها»[٥].

ويقول فى هذا المعنى «لورانس براون»: «إن الخطر الحقيقى كامن فى نظام الإسلام، وفى قدرته على التوسع والإخضاع، وفى حيويته، إنه الجدار الوحيد فى وجه الاستعمار الغربى»[٦] ثم بين «لورانس براون» «أن خطر المسلمين هو الخطر

---

(١) الدكتور توفيق يوسف الواعى: الحضارة الإسلامية، ص ٧٠٤.

(٢) المصدر السابق.

(٣) نادية شريف العمرى: أضواء على الثقافة الإسلامية، ص ١٦٧.

(٤) عبدالرحمن الميدانى: أجنحة المكر الثلاثة، ص ١٣.

(٥) المصدر السابق.

(٦) المصدر السابق وانظر عمر فروخ: التبشير والاستعمار، ص ١٨٤.

العالمى الوحيد فى هذا العصر، الذى يجب أن تجتمع له القوى، ويجيش له الجيوش، وتلتفت إليه الأنظار»، فيقول حاكياً آراء المبشرين: «إن القضية الإسلامية تختلف عن القضية اليهودية، إن المسلمين يختلفون عن اليهود فى دينهم، إنه دين دعوة، إن الإسلام ينتشر بين النصارى أنفسهم، وبين غير النصارى، ثم إن المسلمين كان لهم كفاح طويل فى أوروبا ـ كما يراه المبشرون ـ وهو أن المسلمين لم يكونوا يوماً ما أقلية موطوءة بالأقدام». . ثم يقول: «إننا من أجل ذلك نرى المبشرين، ينصرون اليهود على المسلمين فى فلسطين، لقد كنا نخوف من قبل بالخطر اليهودى والخطر الأصفر «باليابان وتزعمها على الصين» وبالخطر البلشفى، إلا أن هذا التخويف كله لم يتفق (لم نجده ولم يتحقق) كما تخيلناه، إننا وجدنا اليهود أصدقاء لنا، وعلى هذا يكون كل مضطهد لهم[1] عدونا الألد، ثم رأينا البلاشفة حلفاء لنا، أما الشعوب الصفر، فإن هناك دولاً ديمقراطية كبيرة، تتكفل بمقاومتها، ولكن الخطر الحقيقى كامن فى نظام الإسلام»[2].

ولقد اشترك الاستعمار الغربى، والجهد التبشيرى، والحقد الصليبى، فى حرب المسلمين، وتشتيت تراثهم، ونهب ديارهم، بحيث أصبح يخيم عليهم كسحابة سوداء، من البغضاء والكراهية، يتمثل هذا فيما حدث فى عام ١٩١٨م عندما دخل اللورد اللنبى القدس، وأعلن: «الآن انتهت الحروب الصليبية» كان هذا القائد يعبر عن الروح الأوروبية، الروح الصليبية، التى ظلت متوهجة فى أعماقهم طول تلك الحقب، وبنفس الحقد الذى صدر عن الجنرال الإنجليزى اللنبى، كان مسلك الجنرال الفرنسى «غورو» قائد الجيش الفرنسى فى دمشق حين ذهب إلى قبر صلاح الدين، بعد أن جاء راكباً سيارة مكشوفة، وترجل إلى القبر، وقال قولته المشهورة: «نحن هنا يا صلاح الدين»، وفى اليوم التالى عمل الشيء نفسه فى حمص، حيث ذهب إلى قبر «خالد بن الوليد» ـ رضى الله عنه ـ وقال: «نحن هنا يا خالد»[3].

(١) الواقع أن اليهود لم يضطهدهم المسلمون، ولكنهم هم الذين اضطهدوا المسلمين وتآمروا عليهم.
(٢) انظر الدكتور توفيق الواعى: الحضارة الإسلامية، ص ٧٠٦.
(٣) انظر الدكتور توفيق الواعى: الحضارة الإسلامية، ص ٧٠٧.

هذا الحقد والضغن، والمقت، كان سبباً قوياً، فى الإغارة على المسلمين، بشتى الأساليب، والطرق، والأشكال، والألوان، وما زالت تلك الموجة، تعلو، وتشتد، وتمتد، ثقافياً وفكرياً، لتخريب قواعد الإسلام، والأخلاق الإسلامية، وإشاعة الأفكار والتيارات الهدامة[1]، وشغل الأمة الإسلامية، بكل ما هو هامشى فى حياتها، حتى لا تدرك اليقظة الواعية، ولا تنتبه إلى ما يحاك حولها.

لقد وجد الغربيون أن خير طريق لغزو العالم الإسلامى وإخضاعه هو سلوك الغزو الفكرى، فوضعوا الخطط، وحاكوا المؤامرات للغارة على الأفكار، والمفاهيم الإسلامية، وعلى كل ما له صلة بالإسلام، حضارة وثقافة، وصارت قاعدتهم التى ارتكزوا عليها:

«إذا أرهبك عدوك فأفسد فكره ينتحر به، ومن ثم تستعبده».

وانطلقت الصيحة إلى ضرورة نقل المعركة من ساحة الحرب إلى ميدان الفكر والمعرفة[2]. فأغاروا على حضارة الإسلام وثقافته سعياً وراء هدم عقائده وأفكاره، ونشر الأفكار الغربية بديلاً عنها.

ولا شك أن الغزو الفكرى أعمق أثراً، وأشد فتكاً فى حياة الأمة من الغزو المسلح، لأنه يتسلل إلى عقولها وقلوب أبنائها، ذلك أن الأمم تقاس بمقوماتها العقيدية، والفكرية، وقيمها الخلقية.

فالغزو الفكرى الأخلاقى أخطر من الغزو المادى المسلح، لأنه يمضى بين الناس، فى صمت ونعومة وخفاء فى الأهداف، مما يجعل الناس تدريجياً يتقبلون كل جديد، ولو خالف قيمهم وعقائدهم وأفكارهم ينظرون ولا يشعرون..

وإذا كان العداء الصليبى للإسلام والمسلمين سبباً رئيساً دفع بالغرب إلى «الغزو الفكرى» للمجتمعات الإسلامية فإن هناك أسباباً أخرى ـ غير العداء الصليبى ـ ساعدت على انتشار «الغزو الفكرى» وعملت على هزيمة المسلمين أمام هذا الغزو. ونجد ذلك واضحاً فى السبب الثانى..

---

(١) المصدر السابق، ص ٧٠٧ وانظر أنور الجندى: المد الإسلامى فى القرن الخامس عشر الهجرى، ص ٢٨٦.
(٢) انظر عز الدين الخطيب التميمى وآخرين: نظرات فى الثقافة الإسلامية، ص ٣٣.

ثانيا : الاستعمار الغربى للمجتمعات الإسلامية :

لقد تعرض المجتمع الإسلامى فى آسيا، وإفريقيا، للطابع الأيديولوجى للمجتمع الأوروبى، سواء الحديث منه فى القرن التاسع عشر، أو المعاصر فى القرن العشرين، ولم تكن للمجتمع الإسلامى مناعة كافية فى رفض هذا الطابع وتحديه، وعدم تقبله.

فتعرض للغزو الأوروبى، من أجل الصناعة الغربية، منذ أثمر عهد النهضة الأوروبية ثمرته فى التحرر والخلاص، من سلطة الكنيسة، وفى استرداد الإنسان الأوروبى حرية الحركة فى التجارة، وفى شؤون المال على العموم، وحرية التفكير والتوجيه السياسى(١).

وكان الوضع فى البداية قبل الاستعمار تربصاً من جانب المجتمع الأوروبى بالمجتمعات الإسلامية، وانقضاضاً عليها من جانب، بينما كان استسلاماً من أى مجتمع إسلامى، تعرض للتربص والانقضاض، وقبولاً للوصاية الأجنبية والاستغلال الأوروبى من جانب آخر(٢).

ومما مسجل فى صفحات التاريخ: أن المجتمع الإسلامى وقع فريسة للاستعمار، فقد احتلت بريطانيا: الهند فى سنة ١٨٥٩م ومناطق الخليج الإسلامى، وجنوب شبه الجزيرة العربية فى سنة ١٨٤٩م، ومصر فى سنة ١٨٨٢م، والسودان فى سنة ١٨٩٨م.

واحتلت فرنسا: الجزائر فى سنة ١٨٣٠م، وتونس فى سنة ١٨٨١م، والمغرب سنة ١٩١٢م.

واحتلت إيطاليا: طرابلس الغرب فى سنة ١٩١١م.

واحتلت هولاندا: جزر الأرخبيل الأندونيسية تباعاً منذ عام ١٩٠٣م.

وروسيا احتلت القرم قبل القرن التاسع عشر فى سنة ١٨٧٣م وسيطرت بإشرافها على المجتمعات الإسلامية فى وسط آسيا، وهى: أذربيجان،

---

(١) انظر الدكتور محمد البهى: الفكر الإسلامى والمجتمع الإسلامى، ص ٥١، ٥٢.
(٢) المصدر السابق، ص ٥١.

وكازاخستان، وأوزبكستان، ونوركيستان، وكزيخستان. . سيطرة تامة فى القرن التاسع عشر، ولم يسلم من الاحتلال الأوروبى سوى: اليمن، والحجاز، وإيران، ووسط تركيا[1].

ولا يخفى أن وقوع المجتمعات الإسلامية تحت سيطرة الاستعمار زاد من اتساع السوق الاستهلاكية لمنتجات الغرب الصناعية، وهذا أدى إلى تفوق الصناعات الغربية. وكلما قوى المجتمع الأوروبى وتفوق صناعياً، كلما زادت رقعة استعماره فى قارة إفريقيا وقارة آسيا. .

وكلما زادت قبضة أوروبا على ما تم استعماره، وكلما اتسع نفوذها السياسى والاستغلالى، كلما زاد ضعف المجتمع الإسلامى، الذى وقع تحت سلطة الاستعمار، وزادت تبعيته وتقبله لما يأتى من الغرب.

ويوم أن تحرك المجتمع الأوروبى لاستعمار المجتمعات الإسلامية، كان فى قمة مجده، بما أنجزه من الفصل بين الكنيسة والدولة واستقلاله بالسلطة الزمنية، وبالحرية الفردية، فى التفكير، والتوجيه، وبالحرية السياسية، كما كان فى أشد الأوضاع حرصاً على اتجاه (العلمانية) كمثال للإنسانية.

اصطحب الاستعمار معه هذا الاتجاه، بما يستتبعه فى الحكم، والتوجيه، والتشريع، والاقتصاد، فى المجتمع الإسلامى الذى يتمكن منه.

وباستصحاب الاستعمار اتجاه العلمانية، ومحاولة تطبيق هذا الاتجاه فى المجتمع الإسلامى، وهو مجتمع يغاير فى خصائصه، وتاريخه، وواقعه المجتمع الأوروبى، اضطر هذا الاستعمار إلى أن يسلك طريقاً يمكنه من هذا التطبيق، وهو عزل المجتمع الإسلامى كلية عن ماضيه، وعن تراثه العقلى، والروحى، والتوجهى، والسلوكى. .

فإذا ما تم عزله، أصبحت قيادته ميسرة، وطيعة للمستعمر، وبالأخص للأجيال التى تنشأ فى ظل هذه العزلة[2].

---

(١) راجع هامش ص ٥٢ من المصدر السابق.

(١) راجع المصدر السابق.

ثالثا: تقدم الغرب العلمى:

لقد كان الغرب يملك تقدماً علمياً فائقاً وتقدماً مادياً هائلاً وعبقرية تنظيمية مبدعة، وروحاً من الجلد والصبر على العمل والإنتاج وروحاً عملية فى مواجهة المشكلات من ناحية الدراسة أو من ناحية التنفيذ[1].

ولا شك أن التقدم العلمى المذهل للغرب، كان قوياً دفاقاً، وله من القوة والانتشار والاستيلاء، ما بهر العقول، وفتن الألباب، ولا غرو فقد بز بذلك كل تقدم علمى عرفه العالم، وسمعت عنه البشرية فى التاريخ المترامى الأطراف، واستطاع أن يخرج من الأسرار، ويكشف من الاختراعات، ما جعل أبصار الناس وعقولهم تتعلق به[2]، وخاصة أن هذا العلم أصبح فى خدمة الإنسان، فى كثير من مناحيه، فاتجهت الأنظار، والقلوب إلى الغرب، تتطلع إلى ما فيه من اكتشافات تأتى بجديد.

لقد واجه العالم الإسلامى مشكلة تقدم الغرب العلمى، وجهاً لوجه، وهذا التحدى السافر على طريق واحد. وهو صاحب الحضارة العريقة، والرسالة الدينية الخاتمة، وصاحب الشهادة على البشرية، بعد ما انسحبت كل الديانات والمذاهب القديمة، متوارية من نوره الوهاج، وحجته المشرقة، وصاحب الرقعة الواسعة، والثقافة المنتشرة، والقوى الكبرى التى كان يحسب لها ألف حساب. فكان تحدى الحضارة المادية للعالم الإسلامى، أعظم من تحديها لأى أمة، ولأى حضارة، ولأى ثقافة، وقد صاحب تلك الحضارة مذاهب فكرية، وفلسفات مادية، ونظم سياسية، واقتصادية، وعمرانية، واجتماعية، وخلقية، وكان لا بد أن ينظر الناس ـ وخاصة الشعوب المتخلفة ـ إلى هذه المذاهب، والفلسفات، والنظم نظرة تقدير واحترام ، لأنها نتاج تلك الشعوب المتقدمة، وحصاد تلك الأمم المتطورة التى فتتت الذرّة، وصنعت الطائرة والصاروخ، وأدارت الأقمار[3]، وغزت الفضاء، لتراقب سلوكيات الإنسانية كلها ـ وخاصة تحركات

(١) انظر: محمد قطب واقعنا المعاصر ص ٣٤٣.
(٢) الدكتور توفيق يوسف الواعى، الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية، ص ٦٨٥.
(٣) الدكتور توفيق الواعى، الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية، ص ٦٨٦.

المجتمعات الإسلامية ـ ولتكتشف من الفضاء الواسع، ما يزيدها من العلم تمكيناً وأصبحت المجتمعات الإسلامية تمجد الحضارة الأوروبية، والتقدم العلمى والصناعى، واستطاع الغرب أن ينقل الإنتاج المادى إلى المجتمعات الإسلامية، فى إفريقيا، وفى آسيا، لاستخدام هذا الإنتاج فى تيسير الحياة، والتغلب على الصعوبات والمشاق التى تصحب عادة الحياة الإنسانية المتخلفة، أو البدائية، وذلك ليكون شواهد مادية، ترى وتختبر فى التطبيق وفى واقع الحياة[1].

رابعا: الضعف الفكرى، والتفكك الاجتماعى:

لقد أصيب المجتمع الإسلامى بالضعف الفكرى، والتفكك الاجتماعى، وذاق من جراء تلك الإصابة مرارة التأخر، والضعف الفكرى، ما أصيبت به أمة من الأمم، أو مجتمع من المجتمعات، إلا كانت الحالة انحطاطاً فى التفكير، واهتماماً بالخرافات والأساطير.

والتفكك الاجتماعى نتيجة حتمية للضعف الفكرى، لأن الضعف الفكرى لا يكشف للإنسان مخاطر الإنزلاق فى الهاوية، ولهذا نجد أن المجتمعات الإسلامية، ابتليت بالطوائف المتعددة والمتناحرة، والمذهبية التعصبية، وتعدد السلطنات والدويلات، التى قامت على أساس شعوبى أو مذهبى، فى هذا المجتمع أو ذاك.

وهذا كله جر المجتمع الإسلامى إلى فوضى قاتلة، وتناحر حقيقى، ونهب وقتل، دون رادع أو وازع.. ومجتمعاً كهذا لا بد وأن يتعرض لسيطرة المتربصين به. لقد كانت السلطة السياسية فى المجتمعات الإسلامية تعيش فى وضع مقلوب «وفى ذلك الوضع لا بد أن تكتمل الصورة المقيتة لأى امبراطورية على وشك السقوط، بغض النظر عن اللافتة التى ترفعها، سواء كانت امبراطورية فارسية، أو بيزنطية، أو رومانية، أو عباسية. لا بد أن تتفشى الرشوة، وتكثر مصادرة الأموال، وتتفاقم الاضطرابات الداخلية، مع الإنحلال الخلقى، والانشغال بالتوافه عن الخطر الذى يدق الأبواب»[2].

(١) الدكتور محمد البهى، الفكر الإسلامى والمجتمع المعاصر، ص ٥٤.

(٢) انظر الشيخ محمد الغزالى، تراثنا الفكرى فى ميزان الشرع والعقل، ص ١١٠، ط، دار الشروق، بيروت.

وأساس انهيار الأمم، يبدأ من الداخل، وقد يأتى تدخل خارجى ليعجل بالسقوط. ولكن يظل الانهيار الداخلى هو بداية النهاية وعاملها الأكبر، ويأتى الانهيار الداخلى حين تتكون طبقة مترفة تتحكم فى الثروة، وفى الجماهير، فتنشر الظلم، والإنحلال، وتحيل حياة الأكثرية إلى جحيم تهون فيه الحياة»[١].

لا شك أن الأمة الإسلامية عاشت فترات من حياتها، كانت سببا فى تأخرها وغفلتها، وطمع الطامعين فى مجتمعاتها.

وأى أمة تضعف فى أفكارها، ولا تعرف إلا القشور من أمرها، وتعيش فى تناحر وتمزق، لا بد وأن تسقط، وينال منها من كان يهابها.

خامسا: تخلف الشعوب الإسلامية عن ركب الحضارة:

إن المجتمعات الإسلامية، حين أصابها الضعف الفكرى، والتفكك الاجتماعى، انشغلت بالتافه من الأمور، فقادتها التفاهة إلى التخلف عن ركب العلم، والتقدم، والحضارة.. ومعنى هذا، أن المجتمعات الإسلامية، انصرفت عن تعاليم الإسلام التى تدعو إلى العلم، والمعرفة، واستعمال العقل والفكر فى كل ما من شأنه أن يأخذ بالناس إلى الطريق السليم، «وواكب هذا الانصراف انحطاط فى القيم، ودعوات إلى الركون إلى المتع، والعبث بالأموال، إلى حد السفه والجنون، والترف والفجور، حتى كان قواد هذا الركب فى كل ناد، وكل صحيفة، مع جهل ضارب، ونفاق ناشب أظفاره، وفساد فى كل مجتمع وناد، وتصارع على كل تافه وخسيس من المادة، وخراب للذمم، وبيع للشرف، وكره للقيم، وضياع للحق، وهضم للحقوق، وذبح للفضيلة»[٢].

وكان وضع البلاد الإسلامية، كما صوره شاعر تركيا الإسلامى الكبير محمد عاكف: «يسألنى الناس أنك كنت فى الشرق مدة طويلة. فما الذى شهدت يا ترى، وما عسى أن يكون جوابى؟ إننى أقول لهم: إننى رأيت الشرق من أقصاه، فما رأيت إلا قرى مقفرة، وشعوباً لا راعى لها، وجسوراً متهدمة، وأنهاراً

(١) راجع المصدر السابق، ص ١١٣.

(٢) راجع الدكتور توفيق يوسف الواعى، الحضارة الإسلامى مقارنة بالحضارة الغربية، ص ٦٩٦.

معطلة، وشوارع موحشة، رأيت وجوهاً هزيلة متجعدة، وظهوراً منحنية، ورؤوساً فارغة، وقلوباً جامدة، وعقولاً منحرفة.

رأيت الظلم، والعبودية، والبؤس، والشقاء، والرياء، والفواحش المنكرة المكروهة، والأمراض الفاشية الكثيرة، والغابات المحرقة، والمواقد المنطفئة الباردة، والحقول السبخة القاحلة، والصور المقززة، والأيادى المعطلة، والأرجل المشلولة..

رأيت أئمة لا تابع لهم، ورأيت أخاً يعادى أخاه، ورأيت نهاراً لا غاية له، ولا هدف، ورأيت ليالى حالكة طويلة، لا يعقبها صباح مسفر، ونهار مشرق»[1].

هذا التخلف أضعف الثقة بالنفس، وأوقف عجلة التقدم والانطلاق فى الشعوب الإسلامية، وجعلها تعتمد فى كل شىء على غيرها، إن التخلف العقلى لا يكمن فى عدم الذهاب إلى الجامعات، واكتساب المعارف فقط، بقدر ما يكمن فى التبلد، والخمول، والنوم، والرضاء بالدون، وموت الهمة[2]..

ومن المؤكد أن الأمة التى تفضل أو ترضى بالتواكل، والاستجداء، والكسل، والتبعية، أمة لا تستحق الحياة الكريمة، والحياة الحرة الكريمة لا تتأتى لأمة دون ثمن، والثمن هو التضحية، ولا يتأتى لأمة أن تشق طريقها فى الحياة، وأن تستعيد وجودها وكرامتها، وتعيد صنع حياتها، دون أن تحاول جاهدة أن تبنى نفسها بناءاً يتفق مع الاعتداد بالذات.

وقد يكون من المسلمات البدهية: أن فقر الأمة فى جوهره وجذوره ليس فقراً فى السلاح والمعدات، أو فقراً فى المال والإمكانات، وإنما يكمن فى فقر النفوس وعجزها، وضعف الإرادة واضطرابها[3]..

فالتخلف عن ركب التقدم والحضارة، يعود بالمجتمعات الإسلامية إلى الانحطاط، ويقودها طواعية إلى الهلاك، كما تقاد الشاة إلى حتفها بظلفها، ولذا كان هذا التخلف عاملاً من عوامل الغزو الفكرى، الذى اجتاح البلاد والعباد.

---

(١) راجع المصدر السابق، ص ٦٩٦ وانظر أبو الحسن الندوى، الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية ص ٣٥.

(٢) انظر: الدكتور توفيق الواعى، الحضارة الإسلامية، مقارنة بالحضارة بالغربية، ص ٦٩٨.

(٣) انظر: الدكتور أحمد عبدالرحيم السايح، معارك حاسمة فى حياة المسلمين، ص ١٥٤، ١٥٥ ط. دار اللواء بالسعودية ١٤٠٩هـ.

سادسا: الفراغ العقدى:

من المؤكد لدى الباحثين، أن العقيدة هى الأمر الذى تثق به النفس، ويطمئن إليه القلب، ويكون يقيناً عند صاحبه، ولا يمازجه شك فيه، ولا يخالطه ريب. ويذكر العقاد: أننا نعنى بالعقيدة الدينية طريقة حياة، لا طريقة فكر، ولا طريقة دراسة، إنما نعنى بها حاجة النفس، كما يحس بها من أحاط بتلك الدراسات، ومن فرغ من العلم والمراجعة، ليترقب مكان العقيدة من قرارة ضميره، إنما نعنى بها ما يملأ النفس، لا ما يملأ الرؤوس أو الصفحات[١].

إن العقيدة التى يصح أن توصف بالعقيدة الدينية، هى التى لا يستغنى عنها من وجدها، ولا يطيق الفراغ منها من فقدها، ولا يرفضها من اعتصم منها، بمعتصم، واستقر فيها على قرار[٢].

ومن يتأمل العقيدة الإسلامية، ويتدبر ما جاءت به من مفاهيم تناولت معضلات الحياة، إن من يتأمل ذلك يحس بالاطمئنان، ويتخلص من الحيرة التى تواجه كثيراً من المفكرين[٣].

والحقيقة التى أثبتتها مئات السنين الحافلة بالأحداث، والخطوب، والمحن، حقيقة أن العقيدة الإسلامية هى العقيدة الشاملة، والعقيدة المثلى للإنسان، والمجتمع، وهى رعاية للروح والجسد، وعمل للدنيا والآخرة، وجهاد فى السلم والحرب، وتنظيم للعلاقات والصلات الاجتماعية بين الأفراد والجماعات والأمم.

فالعقيدة ضرورة لا غنى عنها للفرد والجماعة.. ضرورة للفرد ليطمئن ويسعد، وتطهر نفسه.. وضرورة للمجتمع ليستقر ويتماسك، ويترفع وينهض.

فالفرد بغير عقيدة كالريشة فى مهب الريح، تحوله يميناً وشمالاً، فلا يسكن له حال، ولا يستقر له قرار، وليس له جذور تثبته[٤].

---

(١) عباس محمود العقاد، العقائد والمذاهب، مجلد رقم ١١، ص ٤٠٢، ط. دار الكتاب اللبنانى، بيروت.
(٢) المصدر السابق ص ٤٣١.
(٣) انظر: الدكتور أحمد السايح، عباس محمود العقاد فيلسوفاً، رسالة «ماجستير» ص ١٦٦.
(٤) انظر: محمد أمين حسن، خصائص الدعوة الإسلامية، ص ٢٥٧ ط. مكتبة المنار، الأردن.ـ وانظر كذلك الدكتور أحمد السايح، العقيدة والإنسان، مجلة الخفجى، السنة العشرون، العدد الأول، ص ٤، ٥، أبريل ١٩٩٠م السعودية.ـ وانظر كذلك أبو الحسن الندوى، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص ٢١٨، ط. دار الكتاب العربى ١٤٠١هـ.

والعقائد فى الأمم تقف سدوداً بينها وبين الأفكار الوافدة، أو المذاهب المقتحمة، وتعطى أعماقاً للصروح والمجتمعات والأفراد، كما تمنح استقراراً وثباتاً للإنسان فى الحياة، أما إذا تركت الأمم عقائدها، وتخلفت عن غذائها الروحى، وعن عمقها الإيمانى[1]، فإنها تصبح فريسة لمن هب ودب . .

والباحث فى أحوال الشعوب الإسلامية : يجد أنها لم تحسن التخطيط، ولم تستفد من الدروس، فانطلقت فى سبيل الشهوات والملذات، والطوائف، والاختلاف، وتركت تعاليم الإسلام التى تدعو إلى الفكر، والعلم والحضارة . . فكان ما كان . .

لقد اتضح لنا أن «الغزو الفكرى» الذى تعرضت له شعوب الأمة الإسلامية ولا تزال تتعرض، قام على أسباب وبواعث، دفعت بالغزو الفكرى إلى تكالب مسعور، وكان فى الإمكان أن ترد الهجمة الشرسة، ولكن كانت هناك عوامل تنتشر فى المجتمعات الإسلامية، ساعدت على توغل الغزو الفكرى، وانتشاره بين الناس.

وقد سبق أن ذكرت أن من عوامل وأسباب «الغزو الفكرى» :

* العداء الصليبى للإسلام والمسلمين.
* الاستعمار الغربى الذى أصاب بعض المجتمعات الإسلامية.
* تقدم الغرب العلمى.
* الضعف الفكرى والتفكك الاجتماعى الذى أصاب المسلمين.
* الفراغ العقدى الذى دلت عليه سلوكيات المسلمين.

وقد تكون هناك أسباب أخرى : داخلية أو خارجية، عملت على تمزيق الأمة الإسلامية، وقتل روح الأصالة فيها والتجديد، والقدرة على مواجهة التحدى.

ولا يخفى أن التعرف على الأسباب، قد يدفع العلماء، وقادة الفكر إلى تشخيص الداء، وبذل الدواء، وإذا عرف التحدى أمكنت المواجهة، وإذا كانت معرفة أسباب الغزو الفكرى، تقف بالمسلمين على محطات الانطلاق، فإن معرفة مظاهر الغزو الفكرى، تساعد على التبصر بالمواقع والمواقف.

(١) الدكتور توفيق يوسف الواعى، الحضارة الإسلامية، مقارنة بالحضارة الغربية، ص ٧٠١، ٧٠٢.

مظاهر الغزو الفكرى

مظاهر الغزو الفكرى كثيرة ومتعددة، وتكاد تشمل جميع جوانب الحياة، وهذه المظاهر لم تكن إلا بناءاً على دراسات دقيقة لأحوال المجتمعات الإسلامية . .

لقد خطط أعداء الأمة الإسلامية، وتدارسوا الأمر فيما بينهم، ووضعوا مخططات تنفذ بكل دقة، وتوالت مظاهر الغزو الفكرى تنتشر بين المسلمين، يساعد على ذلك أمران :

الأمر الأول: موالاة بعض حكام المسلمين للغرب .

الأمر الثانى: الدعاية للنظم الغربية والتغرير بها .

ولولا هذه المساعدة، لكان من الصعب على مظاهر الغزو الفكرى أن يستشرى خطرها، وقد نجح الغزو الفكرى فى إعداد بعض «كوادر» تتولى القيادة، وإدارة أمور المجتمعات. وكانت الدعاية للنظم الغربية، والتغرير بها، تدفع الناس إلى قبول ما يأتى من الغرب ـ أياً كان ـ .

ومظاهر الغزو الفكرى يلمسها المراقب والباحث فى كثير من القضايا مثل :

١ - حملات التشويه .

٢ - إحياء النزعات الجاهلية .

٣ - إبعاد العلماء عن مراكز التوجيه والسلطة .

٤ - التعليم والثقافة .

٥ - الخدمات الاجتماعية .

أولا : حملات التشويه :

إذا ما بحثنا فى حملات التشويه ـ والتى كانت مظهراً من مظاهر الغزو

الفكرى ـ وجدنا أن هذه الحملات، مست كل ما يتصل بالإسلام من عقائد، ونظم، وتراث، وتاريخ، وفكر، وحياة.

١ - فهناك محاولة تشويه عقائد المسلمين، بغير سند ولا دليل. يقول رينان الفرنسى، وهو يصور عقيدة التوحيد فى الإسلام: «بأنها عقيدة تؤدى إلى حيرة المسلم. كما تحط به كإنسان إلى أسفل الدرك»[١].

ودائرة المعارف الإسلامية فى طبعتها الجديدة، التى لم تترجم إلى اللغة العربية، تزعم فيما تعرضه تحت مادة: «ابن تيمية»، أن ابن تيمية كان مسرفاً فى القول بالتجسيد، ومن ثم كان يفسر كل الآيات والأحاديث التى تشير إلى درجة أن ابن بطوطة يروى عنه، أنه قال من منبر جامع دمشق: «إن الله ينزل إلى سماء الدنيا كنزولى هذا، ثم نزل درجة من درج المنبر»[٢].

٢ - وهناك محاولة: تشويه القرآن الكريم، وهى محاولة قديمة وحديثة، وهذه المحاولة كغيرها بعيدة عن العلم والمنطق. يقول المستشرق جب: «إن محمداً قد تأثر بالبيئة التى عاش فيها، وشق طريقه بين الأفكار والعقائد الشائعة فى بيئته، فالقرآن من صنع محمد ﷺ ومن ملاءمات هذه البيئة التى عاش فيها[٣].

٣ - وهناك محاولة: تشويه السنة النبوية، وهى محاولات ضارية، عميقة الجذور فى تاريخ الحرب ضد الإسلام، وهى محاولات تستهدف فيما تستهدفه محاولات تشويه القرآن الكريم، من عزل المسلمين عن دينهم، بتشويه مصدريه الأساسيين: القرآن والسنة.. وهى حرب دخلت على المسلمين حديثاً عن طريق الغزو الفكرى، وقد جنّد أعداء الإسلام لتشويه السنة، ما جندوا من أقلام، وكتب، ومجلات، وبحوث، ومجمل محاولات الأعداء:

* الإدعاء بأن هناك بعض الأحاديث لا يمكن أن تكون قد صدرت عن النبى ﷺ.

(١) انظر: الدكتور توفيق يوسف الواعى، الحضارة الإسلامية، مقارنة بالحضارة الغربية، ص ٧٠٨.

(٢) انظر: عبدالعزيز على المحويتى، مجلة المنهل ع ٤٨٥، ص ١٠٨، ١٠٩، جمادى الآخرة ١٤١١هـ جدة، السعودية.

(٣) انظر: الدكتور على عبدالحليم محمود، الغزو الفكرى والتيارات المعادية للإسلام، ص ٢٩، جامعة الإمام ١٤٠١هـ.

* والإدعاء بأن الفرق الإسلامية عندما اختلفت فى الآراء، أخذ كل منها يضع لنفسه الأحاديث التى يؤيد بها رأيه.

* الإدعاء بأن الأحاديث النبوية ليست إلا سجلاً للجدل الدينى فى القرون الأولى[1].

٤ - وهناك محاولة تشويه شخصية الرسول محمد ﷺ، وهى محاولات قديمة وحديثة ومستمرة، تهاجم رسول الله ﷺ، وتحاول أن تنال من شخصه.

٥ - وهناك محاولات تشويه التاريخ الإسلامى. وهذه المحاولة من أخبث المحاولات وأكثرها دهاءاً ومكراً، فقد صوّر هؤلاء الحاقدون على الإسلام والمسلمين، أن الفتوحات الإسلامية فتوحات غزو واستعمار، وأن الخلافة الإسلامية خلافة تآمر، وسفك للدماء، وغير ذلك كثير مما لا يقره عقل ولا دين.

٦ - محاولة تشويه التراث الإسلامى، ولا يخفى أن تشويه تراث الأمة، هو تشويه للأصالة التى تنطلق منها. وتراث المسلمين تعرض لانتهاك هؤلاء الحاقدين على كل ما هو إسلامى، فأصابه ما أصاب غيره من الافتراء والافتئات.

٧ - هناك محاولة تشويه مجال الغيب فى الإسلام، وهذه المحاولة أريد منها زعزعة الإيمان بالغيب عند المسلمين، ولذا جاءت المحاولة تشكك فى كل ما لا تدركه الحواس، وتفسر الجزاء عند المصدقين به.. بأنه جزاء روحى، والجنة والنار بأنهما شعور نفسى.

٨ - وهناك محاولة تشويه نظام الحياة الإسلامية، وذلك بالادعاء بأنه لا يوجد نظام للحياة معروف فى الإسلام.

والتهم التى وجهت إلى نظام الحياة الإسلامية كثيرة ولكن أبرزها وأخطرها:

(أولاً): اتهامهم للقوانين والنظم الإسلامية بالرجعية وعدم القدرة على مواكبة ركب التحضر والتقدم[2].

(ثانيا): اتهامهم النظم الإسلامية بالمحلية والقصور والإقليمية.

---

(١) المصدر السابق، ص ٣٩، ٤٠.

(٢) المصدر السابق، ص ٧٨.

(ثالثا): اتهامهم لها بأنها عند التطبيق والتنفيذ، تعتمد على وحشية أو همجية أو قسوة، وبخاصة فيما يتصل بالرجم والقطع والجلد.

(رابعاً): اتهامهم للقوانين والنظم الإسلامية، بأنها لم تحظ بإجماع المسلمين عليها، فى عصر من العصور.

(خامساً): اتهامهم لها بأنها تتجاهل الأقليات غير الإسلامية، فى ظل الدولة الإسلامية.

وهذه التهم قد أطلقها أعداء الإسلام من غير المسلمين، وشاركهم فى إطلاقها بعض المسلمين المخدوعين بالفكر الغربى.

٩ – وهناك محاولات تشويهية أخرى، تتصل بجوانب من الإسلام وتعاليمه.

ثانيا: من مظاهر الغزو الفكرى:

إحياء النزعات الجاهلية التى لا تتفق مع تعاليم الإسلام، كالدعوة إلى القومية، والدعوة إلى الفرعونية، والآشورية، والفينيقية، وما جرى مجرى هذا، مما يتنافى مع الإسلام.

ثالثا: الدعوة إلى التحلل والإباحية:

وهذه دعوة خبيثة لأنها تطعن الأمة فى أخلاقها وقيمها، وقد شاعت فى المجتمعات الإسلامية أمور تعافها الفطر السليمة. ولكنه الانحراف الذى لا يعترف بالقيم الفاضلة.

رابعا: إبعاد العلماء عن مراكز التوجيه والسلطة:

ولا يخفى أن إبعاد العلماء عن المراكز التوجيهية أمر له خطورته. وفى بعض المجتمعات تقلص دور العلماء، وأصبح قاصراً على خطبة الجمعة، وبعض الأحاديث التى تخضع للعيون الساهرة والمراقبة الدقيقة، وأصبح بعض العلماء يجرون وراء المناصب جرياً، تذل له الجباه، ويطلبون المناصب بما لهم من مآثر فى الأتباع، وأياد فى التصفيق والتأييد.

خامسا : التعليم والثقافة :

ولا يخفى أن الغزو الفكرى، ينتشر من خلال مدارس التعليم ومعاهده وجامعاته أفضل من أى مظهر آخر.

وقد دخل الغزو الفكرى إلى العالم الإسلامى، من باب يخيل إلى السطحيين من الناس أنه الباب الطبيعى. إذ حمل اسم العلم والمعرفة والتمدن. يقول القس زويمر : «المدارس أحسن ما يعول عليه المبشرون فى التحكم بالمسلمين»[1].

ومن المعروف أن المسلمين أقبلوا على هذه المدارس بكثرة كاثرة، يلتهمون كل ما احتوته من عقيدة وفكر، ولا يميزون صحيحها من فاسدها، ونفعها من ضرها[2].

وبما أن الثقافة ليست علوماً ومعارف وأدباً وفنوناً فحسب، بل مناهج فكر وخلق، تصطبغ حياة الأمة بصبغتها فى شتى ضروب نشاطها، فإن «الغزو الفكرى» استطاع من خلال الثقافة، أن يلقى بمزيج من الأخلاط الغربية الملتمسة من الفكر الغريب المنحرف، والتوجيه الفاسد، القائم على التخطيط الشرير[3].
ولذا قام الغزو الفكرى بالدعوة إلى الأغراض الآتية :

١ - الدعوة إلى إضعاف العلاقة بين المسلمين بقطع الروابط الثقافية وإحياء الثقافات الجاهلية.

٢ - الدعوة إلى العامية، وإلى تطوير اللغة.

٣ - إيجاد الشعور بالتبعية الثقافية، والشعور بمركب النقص.

٤ - دفع الجامعات إلى الاعتماد على كتب المستشرقين العلمية.

٥ - توهين جهود المخلصين الثقافية والإبداعية.

٦ - تمجيد القيم الغربية، وتسفيه القيم الإسلامية، والدعوة إلى نبذها.

٧ - لفت المجتمعات إلى القشور، وإلهائها عما يفيد وينفع.

---

(١) محب الدين الخطيب، الغارة على العالم الإسلامى، ص ٤٨، ط ١٣٨٤هـ.
(٢) إبراهيم النعمة، المسلمون أمام تحديات الغزو الفكرى، ص ١٣.
(٣) انظر : عمر عودة الخطيب، لمحات فى الثقافة الإسلامية، ص ١٦٧، ١٦٨.

٨ - إحياء المذاهب الفلسفية والجدلية، والبعد عن الأساليب العلمية.

٩ - إنشاء الموسوعات التاريخية الإسلامية، وبذر الشكوك ولى الحقائق فيها.

١٠ - الحرص على تكوين جيل مثقف، يحمل راية الاستشراق والدعوة إليه[١].

١١ - الدعوة إلى تدريس العلوم الطبية وغيرها بلغات غير اللغة العربية، ليظل المسلم عنده إحساس بعجز اللغة العربية لغة القرآن.

سادسا: الخدمات الاجتماعية:

والخدمات الاجتماعية مظهر من مظاهر «الغزو الفكرى» إذ أن الخدمات الاجتماعية طريق يساعد على إمرار ما يراد إمراره، من خلال الخدمات الاجتماعية، ولذلك أصبحت الملاجىء، والمستشفيات، والمستوصفات، والجمعيات الخيرية، ووكالات الإغاثة، ودور الأيتام، والمسنين، وغيرها.... مراكز غزو!!

ومما يلاحظ أن «الغزو الفكرى» لم يقتصر على المظاهر التى ذكرنا بعضاً منها، وإنما كانت هناك خطوات أخرى، محسوبة ومتعددة، على الجهات والطرق كافة، ومن هذه المخططات:

١ - الإرساليات التبشيرية التى قل أن يخلو مجتمع إسلامى منها.

٢ - الإعداد الصهيونى والتنسيق بينه وبين الفكر الغربى.

٣ - التصنيف والتأليف فى المباحث الإسلامية، واستغلال قصور المسلمين فيها.

٤ - إلقاء المحاضرات فى الجامعات أو الجمعيات الإسلامية.

٥ - إنشاء دوائر المعارف الإسلامية والمعاجم المختلفة.. وغيرها...

٦ - استغلال البعثات العلمية والثقافية.

٧ - الامتيازات الأجنبية والحصانات الدبلوماسية واستغلالها.

٨ - استغلال الأقليات والطوائف وإثارة النعرات.

---

(١) انظر: الدكتور توفيق يوسف الواعى، الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية، ص ٧٢٢.

٩ - التعاون بين التبشير والسياسة.

١٠ - استغلال الحركات الوطنية، والتطلعات السياسية.

١١ - استغلال فقر الشعوب، وحاجتها، وعريها، وربط الإحسان بالتبشير.

١٢ - استغلال العواطف والجوع الجنسى، واستخدامه فى خدمة الأهداف.

١٣ - الرحلات، وجمعيات الصداقة، والدعوة إلى العالمية، والمجتمعات الكشفية.

١٤ - المساعدات الاقتصادية، وربطها بتسهيلات، وتنازلات معينة.

١٥ - الدعوة إلى الحوار الحر، مع نبذ العقائد والأفكار، والتجرد للوصول إلى الحقيقة[١] فى زعم هؤلاء.

---

(١) المصدر السابق، ص ٧٢٣.

تيارات الغـزو الفكـرى

ومما لا يخفى على باحث أو دارس، أن الغزو الفكرى لكى يحقق أهدافه من إبعاد الأمة الإسلامية عن أصالتها، وآدابها، اتخذ له منافذ متعددة، وتيارات مختلفة، قد تبدو متباينة، ولكنها تلتقى جميعها فى محاربة الإسلام والمسلمين، ومن هذه التيارات والحركات:

(الاستشراق)، (التبشير)، (الصهيونية)، (الماسونية)، (أندية الروتارى)، (العلمانية)، (القوميات)، (التغريب)، (الوجودية)[1]، (الفوضوية)، (القاديانية)، (البابية والبهائية). . وغير ذلك.

إن هذه التيارات والحركات، صنعها «الغزو الفكرى»، ليمر من خلالها إلى الشعوب الإسلامية. وقد استطاعت هذه التيارات أن تثبت أقدامها، وتوطد علائقها، وتقيم معاهدها، ومدارسها.

وهناك مجتمعات إسلامية ـ جميع أبنائها مسلمين ـ بدت فيها ظاهرة لا يتنبه لها إلا بعض الباحثين وما أخطر هذه الظاهرة. ظاهرة انتشار صورة الصليب فى أشكال، قد لا تلفت النظر لأول وهلة.

كأن تكون داخل مربع يضىء ليلاً، أعلى قمة محل تجارى. .

وقد تكون الشارات والشعارات النصرانية داخل إطار دائرى، تتزين به حجر الاستقبال. .

قلت لصديقى الذى تتزين حجرة جلوسه بثلاث من هذه الدوائر: ما هذا؟ قال: لا أدرى ـ والله ـ إنها أدوات زينة.

وقد تكون داخل إطار كتابى «شعاراً» لإحدى الشركات الكبرى.

---

(١) انظر: وراجع كتابنا، التيارات الفكرية والحركات المعاصرة، ط. دار الطباعة المحمدية بالقاهرة ١٤١٢هـ.

وفى بعض المجتمعات الإسلامية، لا يستطيع أحد أن يشير إلى أى ظاهرة من ظواهر الغزو الفكرى فى المجتمع بأى إشارة كانت.

وهكذا تعيش بعض المجتمعات الإسلامية فى ظواهر الغزو الفكرى، ولا أحد يرى، ولا أحد يتكلم، ولا أحد يسمع.

لقد نجحت الحملات التى قامت بها مؤسسات الغزو الفكرى الغربى فى تحقيق أغراضها نجاحاً بعيداً، حين ضمت إليها فئات مثقفة من المسلمين، وجعلتها فى صفها تحارب الإسلام وثقافته. وأكثر من هذا، إن هؤلاء المثقفين صاروا يستنكرون الثقافة الإسلامية، إذا تناقضت مع الثقافة الغربية. وصاروا يستمرئون الثقافة الغربية ويتعشقونها. ويتجهون فى الحياة طبق مفاهيمها[1].

لقد أقبل الكثير من المسلمين على ثقافة الغرب يدرسونها ويطبقونها ويتسابقون فى الأخذ بها. واستجاب المسلمون إلى الدعوات العنصرية حتى صارت على لسان الكثيرين. وحتى صارت الإقليمية الضيقة هى المرتكز لأى عمل، فى أى اتجاه، سياسياً كان أم اقتصادياً أم فكرياً. إن هناك حرباً تشن على العقائد الموروثة، وعلى المسلمات التى تتصل بالوحى والبعث. وهناك فلسفات مطروحة، ترمى إلى إلغاء القيم الثوابت، وإقامة التطور المطلق، وتجاوز الروح، وإقامة المادة وحدها، وإلغاء الضوابط الأخلاقية والمسؤولية الفردية والدعوة إلى رفع الوصاية عن الشباب.. بل هناك دعوة صريحة أعلنت خطتها بإخراج العرب والمسلمين من إطارات الدين، ودعوتهم إلى علمنة الذات العربية. هناك دعوات إلى إعادة طرح الأساطير، والإباحيات فى أفق الفكر الإسلامى عن طريق القصة، والمسرح، والصحافة. وهناك دعوات تزين الباطل وتزخرفه، ودعوات تحول الشر إلى صور برّاقة زاهية[2]..

(١) انظر: عز الدين الخطيب التميمى وآخرين، نظرات فى الثقافة الإسلامية، ص ٤٦.

(٢) أنور الجندى، شبهات التغريب فى غزو الفكر الإسلامى، ص ٤٧، ٤٨، ط. المكتب الإسلامى، بيروت ١٤٠٣هـ.

الاستشـــراق

أصبح موضوع الاستشراق والمستشرقين من المواضيع التى تشد انتباه علماء الإسلام، لما رأوا أن دراسات المستشرقين للإسلام، لا تخلو عن نوع من التدسيس والتحريف، بحسب ما يقومون به، من تحقيق علمى، أو اكتشاف تاريخى، ذلك أن العمل الاستشراقى، لم يقم على النوايا المخلصة الطيبة، ولكن أصبح مزيجاً من الحق والباطل(١)، ومن هنا صار حقاً على الباحث والدارس، أن يعنى بتحديد مفهوم الاستشراق(٢)، والوقوف على معالمه البارزة، وآفاقه، ومظاهره، وأهدافه، ليتبين الطريق، ويتبصر الأمة، ويتعرف على المعالم، والحقائق، فيكون على بينة من أمر يمسه فى حياته، ويهمه أن يكون على وعى له ومنه.

والواضح أن كلمة «الاستشراق» مشتقة من مادة «شرق»، يقال شَرقت الشمس شرقاً وشروقاً: إذا طلعت(٣). ومما يسترعى الانتباه، أن كلمة الاستشراق، والتى نبحث عن مفهومها اللغوى، لم ترد فى المعاجم العربية المختلفة(٤)، وليس معنى عدم ورودها فى المعاجم اللغوية، منع الباحث من الوصول إلى المعنى الحقيقى استناداً إلى قواعد الصرف وعلم الاشتقاق، حيث يبدو أن معنى استشرق: أدخل نفسه فى أهل الشرق وصار منهم(٥).

وبعض المصادر اللغوية الحديثة تقول: استشرق: طلب علوم الشرق، ولغاتهم «مولد عصرية» يقال لمن يعنى بذلك من علماء الفرنجة(٦).

---

(١) انظر سعيد الأعظمى: الإسلام والمستشرقون لماذا؟ ص ٧ من كتاب الإسلام والمستشرقون، ط. عالم المعرفة ص ٥ ، ١٤٠٥هـ.

(٢) انظر الدكتور أحمد سمايلوفتش: فلسفة الاستشراق ص ٢١.

(٣) مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط ج١ ص ٤٨، ط. القاهرة، ١٩٦٠م.

(٤) ابن منظور، لسان العرب ج١ ص ١٧٣، الفيروز آبادى: القاموس المحيط ج٣ ص ٢٤٨ الأزهرى، تهذيب اللغة ج٨ ص ٣٢٦، الجوهرى، الصحاح ج٢ ص ١٥٠٠، والشرنوبى، أقرب الموارد ج١ ص ٥٨٦ وغير ذلك.

(٥) الدكتور أحمد سمايلوفتش: فلسفة الاستشراق ص ٢٢.

(٦) الشيخ أحمد رضا، معجم متن اللغة ج٣ ص ٣١١ ط. بيروت دار مكتبة الحياة ١٩٥٨.

«والمستشرق هو عالم متمكن من المعارف الخاصة بالشرق وآدابه»[١].

أم لدى علماء الغرب فيتساءل «أربرى» نفسه: ما هو الاستشراق؟ وما كنه المستشرق؟ ومن الجلى أن الكاتب حين يعرض لمثل هذا الموضوع الواسع الذى لا يزال مجهولاً بين الجماهير، يحسن أن يحاول الوصول إلى اتفاق بينه وبين قارئيه، حتى يتعرفوا موقفهم صحيحاً، ومما يزيد من ضرورة هذا التفاهم، أن الاستشراق، ومثله فى ذلك كثير من فروع العلم الأخرى، قد تخطى حدوده إلى ميادين تنتمى فى حقيقتها إلى علوم أخرى مستقلة عنه، وإن كانت مجانسة له، حيث أن المستشرق يشارك فى عمله عالم الآثار، والحفريات، والمؤرخ، وعالم الصرف، والاشتقاق، وعالم الأصوات، والفيلسوف وعالم اللاهوت، والموسيقى، والفنان[٢].

أما قاموس اكسفورد الجديد فيحدد المستشرق بأنه: «من تبحر فى لغات الشرق وآدابه[٣]، ويقول بارت: «الاستشراق علم يختص بفقه اللغة خاصة»[٤] ويعرف جويدى علم الاستشراق فيقول: «الوسيلة لدرس كيفية النفوذ المتبادل بين الشرق والغرب إنما هو علم الشرق ومن الممكن أن نقول إنه بناء على الارتباط المتبين بين التمدن الغربى، والتمدن الشرقى، ليس علم الشرق إلا باباً من أبواب تاريخ الروح الإنسانى، وليس صاحب علم الشرق الجديد، بهذا اللقب الذى يقتصر على معرفة بعض اللغات المجهولة، أو يستطيع أن يصف عادات بعض الشعوب، بل إنما هو من جمع بين الانقطاع إلى درس بعض أنحاء الشرق، وبين الوقوف على القوى الروحية الأدبية الكبيرة التى أثرت على تكوين الثقافة الإنسانية.

هو من تعاطى درس الحضارات القديمة، ومن أمكنه أن يقدر شأن العوامل المختلفة فى تكوين التمدن فى القرون الأوسطى، مثلاً أو فى النهضة الحديثة،

---

(١) انظر الدكتور أحمد سمايلوفتش، فلسفة الاستشراق ص ٢٢.
(٢) انظر: الدكتور أحمد سمايلوفتش، فلسفة الاستشراق ص ٢٢.
(٣) أربرى: المستشرقون البريطانيون، ص ٧، ٨، ترجمة محمد الدسوقى النويهى، ص. وليان، لندن.
(٤) الدكتور أحمد سيمايلوفتش، فلسفة الاستشراق، ص ٢٣.

وعلم الشرق هذا علم من علوم الروح، يتعمق فى درس أحوال الشعوب الشرقية، ولغاتها، وتاريخها وحضارتها، ثم يستفيد من البحوث الجغرافية، والطبيعية[1].

ويذكر الدكتور أحمد سمايلوفتش بعد أن عرض آراء علماء الغرب: أن الباحث يستطيع أن ينتهى إلى نتائج، ذات دلالات بالغة ليفيد منها إلى تقرير الحقائق التالية:

(أولاً): أن دارس موضوع الاستشراق يجب عليه قبل كل شيء، أن يحدد مفهومه، ويحاول إيصال معناه محدداً إلى قارئيه.

(ثانياً): أن الاستشراق علم ذو حدود واسعة، وأحياناً غير واضحة، إذ يختلط ميدانه بميادين العلوم الأخرى، لأن المستشرق قد يشارك فى أبحاثه علماء الآثار، والأصوات والاشتقاق، والحفريات، واللاهوت وما شاكل ذلك.

(ثالثا): أن المفهوم العلمى لكلمتى الاستشراق والمستشرق، قد مر بأدوار مختلفة منذ عام ١٦٨٣م عندما كان يعنى: أحد أعضاء الكنيسة الشرقية إلى عصرنا هذا، حيث أصبح يعنى التبحر فى إحدى لغات الشرق وآدابها، فكان هذا التبحر شرط أساسى فى عالم الاستشراق.

(رابعاً): أن كلمة الاستشراق ذات دلالتين: أولهما: أنه علم يختص بفقه اللغة ومتعلقاتها على وجه الخصوص، وثانيهما: أنه علم الشرق أو علم العالم الشرقى، على وجه العموم، فعلى هذا الأساس يشمل كل ما يتعلق بمعارف الشرق، من لغة وآداب، وتاريخ وآثار، وفن وفلسفة، وأديان وغيرها من علوم وفنون.

(خامساً): أن الاستشراق علمياً يرجع إلى العصر الوسيط، بل إلى العصور القديمة.

(سادساً): أن الاستشراق، كفكرة علمية، قد نال حظاً عظيماً فى أثناء القرن الثامن عشر، حيث كان الشرق يأخذ مكانه فى أبحاثه ومؤلفاته إلى جانب الغرب

---

(١) جويدى: علم الشرق وتاريخ العمران، ص ١١-١٤.

فى أفق شمولى، مما يدل على أن دراسة العرب، وما يتعلق بهم، كان ولا يزال أمراً بالغ الأهمية، لعلم الاستشراق ودراساته.

(سابعاً): أن الاستشراق يطلق على الجمع، والانقطاع إلى دراسة الأنحاء المختارة من الشرق، والوقوف على قواه الروحية، وآدابه العظيمة التى أسهمت إسهاماً فعالاً فى تكوين ثقافة العالم بأسره[1].

والدكتور محمود حمدى زقزوق يرى: أن كلمة مستشرق بالمعنى العام تطلق على كل غربى، يشتغل بدراسة الشرق كله، أقصاه، ووسطه، وأدناه، فى لغاته، وآدابه وحضارته، وأديانه. والذى يعنينا هنا هو المعنى الخاص لمفهوم الاستشراق، الذى يعنى بالدراسات الغربية المتعلقة بالشرق الإسلامى فى لغاته وآدابه، وتاريخه وعقائده، وتشريعاته، وحضارته بوجه عام، وهذا المعنى الذى ينصرف إليه فى عالمنا العربى الإسلامى عندما يطلق لفظ استشراق أو مستشرق[2].

وهناك آراء أخرى غير آراء هؤلاء العلماء الأجلاء لكننا اكتفينا بما ذكرناه من آراء، لما فيها من السعة والشمول، ولعلنا بعد هذا نخلص إلى النتائج التالية:

أولا: أن الاستشراق علم يحاول أصحابه دراسة كل ما يتعلق به من لغات وآداب ومعتقدات وعلوم وفنون وما شاكلها.

ثانياً: أن المعنى الأصلى لكلمة استشرق «صار شرقياً» وأن صيغة المستشرق علمياً تطلق على ذلك الذى يشتغل بالعقليات الشرقية عامة والسامية خاصة.

ثالثاً: أن المستشرق عالم غربى يهتم بالدراسات الشرقية على الاطلاق ويجب أن يكون عالماً متخصصاً غربياً أصلاً أو انتماء.

رابعاً: أن المعنى الذى ينصرف إليه عندما يطلق لفظ مستشرق هو الذى يعنى بالدراسات الغربية المتعلقة بالشرق الإسلامى.

وبناء على ما ذكره العلماء المتخصصون والدارسون للاستشراق يمكن القول: أن الاستشراق أصبح اسماً واسعاً، يشمل طوائف متعددة تعمل فى ميادين

---

(١) الدكتور أحمد سمايلوفتش، فلسفة الاستشراق، ص ٢٦.

(٢) الدكتور محمد حمدى زقزوق، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى، ص ١٨.

الدراسات الشرقية المختلفة[1]، ويكاد الاستشراق علماً قائماً بنفسه له أصوله وفرعه وله مقدماته.

ونتائجه يكاد يكون رجاله على رغم شتاتهم شعباً خاصاً وله أفقه الخاص به، وحياته المقصورة عليه[2].

لكن يمكن القول: أن الاستشراق فى دراسته للإسلام ليس علماً بأى مقياس علمى وإنما هو عبارة عن «أيديولوجية» خاصة يراد من خلالها ترويج تصورات قائمة معينة عن الإسلام، بصرف النظر عما إذا كانت هذه التصورات قائمة على حقائق أو مرتكزة على أوهام وافتراءات[3].

والاستشراق مهنة وحرفة كالطب والهندسة والمحاماه وهو أقرب الشبه إلى مهنة التبشير[4].

وإذا أجرى الباحث موازنة بين آراء علماء الغرب وعلماء العربية فى الاستشراق فإنه سوف يصل إلى التقديرات التالية:

أولاً: يرى العلماء أن الاستشراق قد أصبح علماً مستقلاً له ذاتيته وكأنه يقوم بدراسة كل ما يتعلق بالشرق وحضارته.

ثانياً: قرر العلماء أن المستشرق لا بد له من معرفة كاملة بإحدى اللغات الشرقية وآدابها[5].

ويبدو للباحث بعد الدراسة والاستقصاء أن للاستشراق أسباب كثيرة ودوافع متعددة نفسية وتاريخية واقتصادية وأيديولوجية ودينية وأخيراً علمية، بجانب هذا هناك أسباب ثانوية شخصية مزاجية عند بعض الذين تهيأ لهم الفراغ والمال، واتخذوا الاستشراق وسيلة لإشباع رغباتهم الخاصة فى السفر والترحال أو فى الاطلاع على ثقافات العالم القديم[6].

(١) إبراهيم عبدالمجيد اللبان، المستشرق والإسلام، ٥٤ ط الأزهر، ١٩٧٠م.
(٢) محمد الحومانى: المستشرقون، مجلة الرسالة ٢٦ يوليو ١٩٣٧، القاهرة.
(٣) الدكتور محمود حمدى زقزوق، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى، ص ١٢، كتاب الأمة.
(٤) حسين الهروى، نحن والمستشرقون، مجلة المعرفة ص ٤٠، يوليو ١٩٣٣م.
(٥) الدكتور أحمد سمايلوفتش، فلسفة الاستشراق ٣٢٢ بتصرف.
(٦) المصدر السابق نفسه ص ٣٢.

وليس من الضرورى بحث تلك الدوافع والتعرف على كل هذه الأسباب لأن السبب الرئيسى المباشر الذى دعا الأوروبيين إلى الاستشراق هو سبب دينى فى الدرجة الأولى فقد تركت الحروب الصليبية فى نفوس الأوروبيين ما تركت من آثار مرة عميقة، وجاءت حركة الإصلاح الدينى المسيحى فشعر المسيحيون: بروتستانت وكاثوليك بحاجات ضاغطة لإعادة النظر فى شروح كتبهم الدينية، ولمحاولة تفهمها على أساس التطورات الجديدة التى تمخضت عنها حركة الإصلاح، ومن هنا اتجهوا إلى الدراسات العبرانية، وهذه أدت إلى الدراسات العربية والإسلامية لأن الأخيرة كانت ضرورة لفهم الأولى وخاصة ما كان منها متعلقاً بالجانب اللغوى، وبمرور الزمن اتسع نطاق الدراسات الشرقية حتى شملت أديان ولغات وثقافات غير الإسلام وغير العربية(١).

ومن جهة أخرى رغب المسيحيون فى التبشير بدينهم بين المسلمين، فأقبلوا على الاستشراق ليتسنى لهم تجهيز الدعاة وإرسالهم للعالم الإسلامى والتقت مصلحة المبشرين مع أهداف الاستعمار، فمكن لهم، واعتمد عليهم فى بسط نفوذه فى الشرق وأقنع المبشرين زعماء الاستعمار بأن المسيحية ستكون قاعدة الاستعمار الغربى فى الشرق، وبذلك سهل الاستعمار للمبشرين مهمتهم، وبسط عليهم حمايته، وزودهم بالمال والسلطان وهذا هو السبب فى أن الاستشراق قام أمره على أكتاف المبشرين والرهبان ثم اتصل بالاستعمار(٢).

ولا يعرف بالضبط من هو أول غربى عنى بالدراسات الشرقية، ولا فى أى وقت كان ذلك، ولكن المؤكد أن بعض الرهبان الغربيين قصدوا الأندلس فى إبان عظمتها ومجدها وتثقفوا فى مدارسها، وترجموا القرآن والكتب العربية إلى لغاتهم، وتتلمذوا على علماء المسلمين فى مختلف العلوم وبخاصة فى الفلسفة والطب والرياضيات، ومن أوائل هؤلاء الرهبان الراهب الفرنسى «جريريت» الذى انتخب بابا لكنيسة روما عام ٩٩٩م، بعد تعلمه فى معاهد الأندلس، وعودته إلى بلاده، وبطرس المحترم ١٠٩٢-١١٥٦م وجيراردى كريمون ١١١٤-١١٨٧م وبعد

---

(١) الدكتور محمد البهى، المبشرون والمستشرقون ص ٣٧٤ من حولية كلية الدعوة، العدد الثانى، ١٤٠٦هـ، مصر.
(٢) المصدر السابق ص ٣٧٥.

أن عاد هؤلاء الرهبان إلى بلادهم نشروا ثقافة العرب ومؤلفات أشهر علمائهم، ثم أسست المعاهد للدراسات العربية أمثال مدرسة «بادوى» العربية وأخذت الأديرة والمدارس الغربية، تدرس مؤلفات العرب المترجمة إلى اللاتينية وهى لغة العلم فى جميع أوروبا يومئذ واستمرت الجامعات الغربية تعتمد على كتب العرب، وتعتبرها المراجع الأصلية للدراسة قرابة ستة قرون[١].

وليس هناك شك فى أن الانتشار السريع فى المشرق والمغرب قد لفت بقوة أنظار رجالات اللاهوت النصرانى إلى هذا الدين ومن هنا بدأ اهتمامهم بالإسلام ودراسته[٢].

ويبدو من الصعب تحديد تاريخ معين لبداية الاستشراق، وإن كان بعض الباحثين يشير إلى أن الغرب النصرانى يؤرخ لبدء وجود الاستشراق الرسمى بصدور قرار مجمع «فيينا» الكنسى فى عام ١٣١٢م بإنشاء عدد من كراسى اللغة العربية فى عدد من الجامعات الأوروبية[٣] ولكن الإشارة هنا إلى الاستشراق الكنسى، تدل أنه كان هناك استشراق غير رسمى قبل التاريخ فضلاً عن أن هناك باحثين أوروبيين[٤].

ويذكر الباحثون: أنه ليس هناك اتفاق على فترة زمنية معينة لبداية الاستشراق فبعض الباحثين يذهب إلى القول بأن البدايات الأولى للاستشراق ترجع إلى مطلع القرن الحادى عشر الميلادى، بينما يرى «رودى رات» أن بدايات الدراسات الإسلامية والعربية فى أوروبا تعود إلى القرن الثانى عشر الذى تمت فيه لأول مرة ترجمة معانى القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية كما ظهر أيضاً فى القرن نفسه أول قاموس لاتينى عربى[٥].

وأول استعمال لكلمة «مستشرق» ظهر فى سنة ١٦٣٠م حيث أطلق على أحد أعضاء الكنيسة الشرقية أو اليونانية، وفى سنة ١٦٩١م وجدنا «أنتونى وود»

---

(١) انظر الدكتور مصطفى السباعى: الاستشراق والمستشرقون ص ١٣، ١٤، ط المكتب الإسلامى، بيروت ١٦٠٥.

(٢) الدكتور محمود حمدى زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى، ص ١٩.

(٣) المصدر السابق، ص ١٨، ١٩.

(٤) المصدر السابق، ص ١٩.

(٥) المصدر السابق، ص ٢٠.

يصف «صموئيل كلارك» بأنه «استشراقى نابه» يعنى بذلك أنه عرف بعض اللغات الشرقية. و«بيرون» حينما يتحدث عن المستر «ثورنتون» يذكر معارفه الكثيرة الدالة على استشراق عميق(١).

ويذكر «رودنسون» أن كلمة مستشرق ظهرت فى اللغة الإنجليزية حوالى عام ١٧٧٩م كما دخلت كلمة «الاستشراق» على معجم الأكاديمية الفرنسية فى عام ١٨٣٨م(٢).

وتجسدت فكرة نظام خاص مكرس لدراسة الشرق ولم يكن المتخصصون بعد من العدد بحيث يمكنهم تشكيل جمعيات أو مجلات متخصصة فى بلد واحد.

كان أفق هؤلاء المستشرقين يشمل عديداً من المجالات بطريقة غير متوازية فى عمقها، ومن هنا بدأ تصنيفهم كمستشرقين، وشهدت فكرة الاستشراق تعمقاً كبيراً إلا أنها تعرضت كذلك لأضرار وكان الشرق يأخذ مكانه فى مؤلفات القرن الثامن عشر إلى جانب الغرب فى أفق شمولى(٣).

ولكن المهم ليس هو متى ظهر مفهوم مستشرق أو استشراق وإنما المهم هو متى بدأت الدراسات العربية والإسلامية فى أوروبا ومتى بدأ الاشتغال بالإسلام والحضارة الإسلامية سواء بالقبول أو بالرفض، وهذا أمر موغل فى القدم، أما المصطلح ذاته فلا يعنى شيئاً أكثر من واقع، وإطلاق وصف على الدراسات التى كانت قائمة بالفعل قبل ذلك بقرون عديدة بصرف النظر عن عملية هذه الدراسات أو موضوعيتها(٤).

وعلى أية حال ـ كما يقول الدكتور زقزوق (٥) ـ فإن الدافع لهذه البدايات المبكرة للاستشراق كان يتمثل فى ذلك الصراع الذى دار بين العالمين الإسلامى

---

(١) الدكتور أحمد سمايلوفتش: فلسفة الاستشراق ص ٢٢.

(٢) انظر مكسيم رودنسون: تراث الإسلام، تصنيف شاخت وبوزورث ج١، ص ٧٨، ترجمة الدكتور محمد زهير السمهورى، سلسلة عالم المعرفة، بالكويت ١٩٧٨م.

(٣) الدكتور أحمد سمايلوفتش: فلسفة الاستشراق، ص ٢٥.

(٤) الدكتور محمود حمدى زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى، ص ٢١.

(٥) مواليد محافظة الدقهلية عام ١٩٣٣م، أتم دراسته فى جامعة الأزهر وحصل على درجة الدكتوراه فى الفلسفة من جامعة ميونيخ بألمانيا الغربية ١٩٦٨م، وقد أصدر عدة كتب ودراسات فى الفلسفة.

والمسيحى فى الأندلس وصقلية، كما دفعت الحروب الصليبية بصفة إلى اشتغال الأوروبيين بتعاليم الإسلام وعاداته[1].

ولهذا يمكن القول بأن تاريخ الاستشراق فى مراحله الأولى هو تاريخ الصراع بين العالم النصرانى الغربى والقرون الوسطى والشرق الإسلامى على الصعيدين الدينى والأيديولوجى، فقد كان الإسلام كما يقول: «يمثل مشكلة بعيدة المدى بالنسبة للعالم النصرانى فى أوروبا على المستويات كافة»[2] باعتباره مشكلة عملية استدعى الأمر اجراءات معينة كالصليبية والدعوة إلى النصرانية والتبادل التجارى. . وباعتباره مشكلة لاهوتية تطلب بإلحاح العديد من الأسئلة فى هذا الصدد وذلك يقتضى معرفة الحقائق التى لم يكن من السهل معرفتها[3].

ويذكر الباحثون أنه من القرن الخامس الميلادى حتى أواخر القرن الرابع عشر الميلادى كانت أوروبا تعيش فترة يسمونها «العصور الوسطى» ويعدونها عصوراً مظلمة حيث كانت شعوب الفرنجة تعيش حياة همجية يائسة فى ظلال كنيسة متسلطة مستبدة، ولكن كان أبرز حدث فى تاريخ هذه الفترة هو تلك النافذة التى فتحت فى جنوب أوروبا الغربى تطل منه على الحضارة الإسلامية، وذلك بوصول طلائع المسلمين إلى الأندلس وإقامتهم صرح الحضارة الإسلامية فيها والتى امتدت إلى أواخر القرن الرابع عشر الميلادى فى حوالى سبعة قرون[4].

كانت فيها الأندلس مركزاً حضارياً فى هذا الجزء من أوروبا يشع عليها آثاره فى زحف هادىء فى معظم الأحيان ثم فى صورة هجمات قوية كادت تخترق فرنسا إلى قلب أوروبا فى أحيان أخرى[5].

وكانت هناك نافذة أخرى فتحت أمام أوروبا على الشرق، وهى الحملات الصليبية على بلاد الإسلام، فقد جلب الصليبيون معهم إلى أوروبا كثيراً من عادات المسلمين وأزيائهم وأنماط حياتهم ووسائلهم فى الحروب والبناء.

(١) انظر د. زقزوق: الإسلام والاستشراق، ص ٧٣، ضمن كتاب الإسلام والمستشرقون، جدة ١٤٠٥هـ.

(٢) الدكتور زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى، ص ٢١.

(٣) المصدر السابق.

(٤) العقاد: أثر العرب فى الحضارة الأوروبية، ص ١١٥-١١٩، دار المعارف.

(٥) عبدالعزيز القارى: المستشرقون فى الميزان، ص ٢٧٢، ط المدينة المنورة.

ولا شك أن عالم الكنيسة النصرانية أيقن أن زحف المسلمين هذا لم يكن زحفاً عسكرياً فحسب، بل كان حضارة تمتد وتبسط نفوذها وتنشر معالمها فى كل بقعة تصل إليها فتغير من حياة الشعوب وأفكارهم وعقائدهم وأسلوب حياتهم.

وحاولت الكنيسة «روما» إيقاف هذا المد ففتحت محاكم التفتيش تنكل وتحرق وتقتل كل من رفع راية العصيان فى وجهها أو حاول التخلص من سيطرتها. ورغم كل هذا فإن الكنيسة عجزت عن إيقاف التيار فاضطرت إلى أن تدافع عن نفسها بطريقة أخرى فبدأت فى الاهتمام بدراسة اللغات الشرقية، وفى مقدمتها اللغة العربية[١].

فكانت طلائع المستشرقين من القسس والرهبان فانكبوا على دراسة اللغة العربية، وكان رجال الكنيسة يشكلون وحدهم الطبقة المتعلمة فى أوروبا ويهيمنون على الجامعات ومراكز العلم فيها.

وأنشىء أول مركز لدراسة اللغة العربية فى الفاتيكان لتخريج أهل جدل يقارعون فقهاء المسلمين ويجادلون البروتستانت.

ورحل أول فريق من الرهبان إلى المغرب للغاية نفسها، ورحل آخرون إلى المشرق، وأمر الفاتيكان بإدخال اللغة العربية، واللغات الشرقية الأخرى فى مدارس الأديرة والكاتدرائيات. وعمل على إنشاء كراس لهذه اللغات فى الجامعات فى أسبانيا وفرنسا وإيطاليا، وأصبحت جامعة باريس تشكل أهم مركز للدراسات العربية والشرقية، واستعين بعدد من علماء اللاهوت وبعدد من المستشرقين ممن أجادوا تلك اللغات للقيام بتدريسها فى تلك المدارس ولتولى تلك الكراسى فى الجامعات[٢].

ثم توسعت الدراسات الشرقية والعربية أكثر عندما أمر بابا الفاتيكان الخامس فى أوائل القرن الرابع عشر بإنشاء كراسى للغات العربية والعبرية والكلدانية فى عدد من الجامعات الرئيسية فى أوروبا، وهى: جامعة باريس واكسفورد وبولونيا وجامعة الفاتيكان نفسه، مع تنصيب أستاذين لكل من هذه اللغات فى كل كرسى، وتكليفهم بترجمة نصوص عربية وعبرية وكلدانية للرد على منتقدى الدين المسيحى[٣].

(١) المصدر السابق، ص ٢٧٤، ٢٧٥.
(٢) انظر المصدر السابق ص ٢٧٥، ٢٧٦.
(٣) نجيب العقيقى: المستشرقون، ج١، ص ١٣٤، ط. دار المعارف.

الأمر المهم بالنسبة لتطور الاستشراق كان الاقتناع بضرورة تعلم لغات المسلمين إذا أريد لمحاولات تنصير المسلمين أن تؤتى ثمارها بنجاح، ومن بين من تبنى هذا الرأى الذى فرض نفسه بالتدرج «روجر بيون» و«رانموندلل»، وقد صادق مجمع فيينا الكنسى عام ١٣١٢م على أفكار «بيكون ولل» بشأن تعلم اللغات الإسلامية واللغة العربية على وجه الخصوص، وقد تم تنفيذ ذلك فى جامعة باريس واكسفورد وسلمنكا[١].

وقد ساعد على تقدم الدراسات الاستشراقية فى نهاية العصر الوسيط تلك الصلات السياسية والدبلوماسية مع الدولة العثمانية التى اتسعت رقعتها حينذاك وقد كان للروابط الاقتصادية لكل من أسبانيا وإيطاليا مع كل من تركيا وسوريا ومصر، أثر كبير فى دفع حركة الدراسات الاستشراقية[٢]، وفى القرن السادس عشر وما بعده أدت النزعة الإنسانية فى عصر النهضة الأوروبية إلى دراسات أكثر موضوعية من ذى قبل، ومن ناحية أخرى ساندت البابوية الرومانية دراسة لغات الشرق من أجل مصلحة التبشير[٣]، ولذا يرى كثير من الباحثين: أن الاستشراق لون من ألوان التبشير «الغزو الفكرى» ويعود إلى أسباب دينية، فبعد عهد الإصلاح الدينى شعر الأوروبيون من البروتستانت والكاثوليك بحاجة إلى إعادة النظر فى شروح كتبهم فاتجهوا إلى الدراسات العربية والإسلامية، وأخذوا يستفيدون مما وصل إلى أيديهم من المؤلفات الإسلامية الكثيرة، ثم تطور الاستشراق فأصبح يهتم بالعلوم الاقتصادية والسياسية إلى جانب غرضه الأول وهو التمهيد للمبشرين وخدمة أهدافهم[٤].

وقد كثر المستشرقون فى أول الأمر بين اليهود لعدد من الأسباب حين كان الشرط الأساسى للاستشراق معرفة اللغة العربية، وبما أن اليهود يتكلمون لغة أعرابية «ولا نقل سامية» فإن تعلم العربية كان سهلاً عليهم، ثم أن اليهود فى الأصل شرقيون فساعدهم ذلك على فهم النصوص العربية وعلى إدراك المشاكل

(١) الدكتور محمود حمدى زقزوق، الإسلام والاستشراق، ص ٧٥، ط المعرفة، جدة.
(٢) المرجع السابق ص ٧٥.
(٣) المصدر السابق ص ٧٥.
(٤) الشيخ أحمد بشير: الغزو الفكرى والتيارات المعادية للإسلام، ص ٤٦٩، ٤٧٠.

الشرقية أكثر مما كان ذلك مساعداً لغير اليهود، وكذلك كان اليهود الذين يسكنون فى الغرب يعرفون الحاجات السياسية والعلمية التى كانت الدول والجمعيات المعنية بهذا الاتجاه ترمى إليها أكثر من غيرهم لجمعهم فى الأصل بين الذهن الشرقى والمسكن الغريب[1].

والظاهر أن اليهود أقبلوا على الاستشراق لأسباب دينية، وهى محاولة إضعاف الإسلام والتشكيك فى قيمه بإثبات فضل اليهودية على الإسلام[2]، وقد استطاع اليهود أن يكيفوا أنفسهم ليصبحوا عنصراً أساسياً فى إطار الحركة الاستشراقية الأوروبية النصرانية[3].

ولم يرد اليهود أن يعملوا داخل الحركة الاستشراقية بوصفهم مستشرقين يهوداً حتى لا يعزلوا أنفسهم وبالتالى يقل تأثيرهم ولهذا عملوا بوصفهم مستشرقين أوروبيين، وبذلك.. كسبوا مرتين:

- كسبوا أولاً: فرض أنفسهم على الحركة الاستشراقية كلها.

- وكسبوا ثانياً: تحقيق أهدافهم فى النيل من الإسلام، وهى أهدف تلتقى مع أهداف غالبية المستشرقين النصارى[4].

وقد ظل اليهود طوال تاريخهم يتحينون كل فرصة متاحة ليكيدوا للإسلام والمسلمين، وقد وجدوا فى مجال الاستشراق باباً ينفثون منه سمومهم ضد الإسلام والمسلمين فدخلوا فى هذا المجال مستخفين تحت رداء العلم كما وجدوا فى الصهيونية باباً آخر يفرضون منه سيطرتهم على العرب والمسلمين[5].

وتتمثل اتجاهات الاستشراق اليهودى فى عدة شبهات:

أولاً: القول بأن المسلم معناه فى الأصل الخائن.

ثانياً: الإدعاء بأن النبى ﷺ كانت تنتابه النوب العصبية، ودليل ذلك ما كان

(١) الدكتور عمر فروخ: الاستشراق فى نطاق العلم وفى نطاق السياسة، ص ١٣٣، ١٣٤.

(٢) الدكتور محمد البهى: الفكر الإسلامى الحديث، ص ٥٤٣، ملاحق ط. دار الفكر، بيروت.

(٣) الدكتور محمود حمدى زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية، ص ٤٩.

(٤) المصدر السابق ص ٥٠ بتصرف.

(٥) المصدر السابق ص ٥٠ بتصرف.

يصيبه من الجهد خلال نزول الوحى، مع أنه ﷺ لم يعرف فى تاريخه كله أنه كان يصاب بمثل هذه النوبات العصبية قبل زمن البعثة ومقدماتها.

ثالثاً: الزعم بأن الرسول ﷺ عاشر بعض النصارى واليهود فاستفاد منهم كثيراً من القصص واقتبس بعض أساليب التعبير التى لم تكن معروفة للعرب، مثل: ذاق الموت، ونفخ فى الصور، وفى أذانهم وقر. وهو إدعاء مسبوق ردده مشركوا مكة الذين قالوا: «إنما يعلمه بشر»، وقد بكتهم القرآن فقال: ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾[1].

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾[2].

رابعاً: الإدعاء بأن محمداً ﷺ ما كان رسولاً ولا نبياً فزعم للعرب فى تجسس الأخبار والإسراع بنقلها بطرق لم يوفق أحد من المتحضرين حتى اليوم إلى كشف سرها.

خامساً: أن محمداً ﷺ صادق الفراسة، نفاذاً للرجال إذا لقى أحدهم انكشف له سره وافتضحت أمامه خفايا صدره وعرف كيف يستهله ويجذبه إليه.

سادساً: ما كان من بلاغ النبى ﷺ، ورسالته لم تكن وحياً يوحى وإنما هى أنباء وروايات يجند لها جواسيسه ورجاله أو حقائق يبلغها بحذقه وفراسته.

سابعاً: تزوج الرسول ﷺ بالسيدة خديجة رضى الله عنها طمعاً فى ثروتها وهى أكذوبة لا تتفق مع ما عرف عن رسول الله ﷺ من زهد فى الدنيا، ، وأنه لم يورث أعقابه الزهيد مما خلفاه بل جعله لعامة المسلمين بقوله: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركنا صدقة».

ثامناً: الزعم أنه أنشأ جمعية سرية واختار أبو بكر الصديق رضى الله عنه رئيساً لها، فجعل يروج لها ويتفانى فى نشرها فكانوا يجتمعون فى بيت الأرقم وأنهم كانوا يجتمعون سراً للصلاة، وقد حاول المستشرق «مرجليوث» تشبيههم بالماسون وأن هذا الجمع قد اتخذ له رموزاً منها: السلام عليك.

(١) سورة النمل: الآية رقم ١٠٣.

(٢) سورة العنكبوت: الآية رقم ٤٨.

تاسعاً: الزعم بأن النبى ﷺ نظر فى تعاليم النصارى واليهود فأخرج منها ما لا يقبله، وأنه وحّد بين إله اليهود والنصارى وجعلهما واحداً.

ولا ريب أن هذا القول باطل من أساسه، والحقيقة أن التوحيد هو دين جميع رسل الله وأنبيائه، وأن النصرانية واليهودية حرفتا هذه العقيدة[١].

على هذا النحو حاول الاستشراق اليهودى تصوير الإسلام ورسالته ونبيه ﷺ، وهو ما أورده «مرجليوث» فى كتابه: محمد وظهور الإسلام[٢].

وقد تابع «مرجليوث» على نفس الطريق فى الاستشراق اليهودى «جولد سيهر» ويعد جولد سيهر من أكبر الناقمين على الإسلام ويعد كتابه «العقيدة والشريعة فى الإسلام» مثلاً لهذا التشويه الذى حاول به تمزيق الحقائق الإسلامية، والذى يمثل تزويراً فادحاً وتحريفاً خطيراً لسمعة الإسلام[٣].

ويضيف «جولد سيهر» إلى مفهوم الاستشراق اليهودى **عدة شبهات:**

أولاً: القول ببشرية القرآن أى أنه ليس وحياً وأن القرآن لم يأخذ خطاً واحداً فى التعبير عن مدلول القضايا التى ساقها وأن أسلوبه متباين بين البيئتين المكية والمدنية.

ثانياً: أن الإسلام كان مزيجاً منتخباً من الفكر اليهودى والمسيحى.

ثالثاً: استقبال الرسول لبيت المقدس والصلاة كان استرضاءاً لليهود.

رابعا: أن قصة إبراهيم فى القرآن مفتعلة، وأنها نزلت فى المدينة إرضاء لليهود والواقع أن القرآن تحدث عن إبراهيم عليه السلام فى أكثر من موضع فى القرآن المكى وأهمها سورة إبراهيم.

خامساً: الفقه الإسلامى مأخوذ من الفقه الرومانى.

سادساً: أن الإسلام قام على السيف.

سابعاً: الحديث النبوى من صناعة الصحابة والتابعين.

ثامناً: الجيوش العربية أخرجها القحط والجوع.

تاسعاً: إنكار عالمية الرسالة[٤].

---

(١) الأستاذ أنور الجندى: الإسلام فى وجه التغريب، ص ٣١١، ٣١٢، ص. دار الاعتصام.
(٢) المصدر السابق ص ٣١٢.
(٣) المصدر السابق ص ٣١٤.
(٤) انظر المصدر السابق ص ٣١٤.

ولا ريب أن هذه الشبهات ليست جديدة، وقد كشف كتاب المسلمين فسادها وزيفها.

وإذا كان الأمر - كما عرفنا - من بداية الحركة الاستشراقية. فإننا نرى أن الحركة الاستشراقية انتقلت إلى مرحلة أخرى، توجهت فيها إلى دراسة الإسلام، وما يتصل به، وكان الهدف من ذلك هو التمهيد للاستعمار الزاحف فى ذلك الوقت[1].

ولما أدرك الغرب أن التغلب على المسلمين والتحكم فيهم عسكرياً حدث قصير العمر انصرفت هِمم المستشرقين وعلماء الغرب إلى الغزو الفكرى[2] والتبشيرى أو تحويل المسلمين عن الإسلام.

وهذه المرحلة من أخطر المراحل، بل هى الحرب الحقيقية، والغزوة الشرسة التى لا تهدف إلا إلى هدم المنشآت وتمزيق الجيوش، وتحطيم العزائم، وطمس المعالم، وتعمية الطريق، وبذلك يضمنون الخضوع من غير أن يحتاجوا إلى أن يرفعوا سلاحاً[3].

ولذلك عمل المستشرقون على تقويض العقيدة الإسلامية، وإحلال مفاهيم الصداقة بين الدول الغالبة والمغلوبة محلها تحت اسم الحضارة أو العالمية أو وحدة الثقافة والفكر البشرى[4] والإخاء الإنسانى، وما إلى ذلك من مسميات، ويرى كثيرون أن الاستشراق ولد من أبوين غير شرعيين هما: الاستعمار والتبشير، وأنه مازال يعمل من أجل هذا الغرض الذى ولد من أجله وإن غيّر أساليبه وجلده مرات ليتلاءم مع الظروف المختلفة[5].

أما الاستعمار فهو يرى أن المفهوم الإسلامى السليم من شأنه أن يعطى المجتمع المسلم قوة تحول دون سيطرته واستمراره.

---

(١) د. عبدالعظيم الديب: المستشرقون والتاريخ، مجلة البعث الإسلامى، عدد ٣٢٢، ص ٢٤٣، رمضان وشوال ١٤٠٢هـ، الهند.

(٢) د. حسن ضياء الدين: الاستشراق، مجلة كلية الشريعة، ص ٢٦، العدد الخامس، مكة المكرمة ١٤٠١هـ.

(٣) الدكتور عبدالعظيم الديب: المستشرقون والتاريخ، مجلة البعث الإسلامى، ص ١٤٣، عدد ٢، ٣، رمضان وشوال ١٤٠٢هـ.

(٤) د. على جريشة ومحمد شريف: أساليب الغزو، ص ٢٠، ط. دار الاعتصام.

(٥) الأستاذ أنور الجندى: الإسلام فى وجه التغريب، ص ٢٦٥، ٢٦٦.

وأما التبشير فإنه يستهدف الحيلولة دون توسع الإسلام وانتشاره، وقد أضيف إلى هذين الأبوين أب ثالث هو الصهيونية التى تهدف من سيطرتها على الاستشراق، الحيلولة دون تجمع المسلمين والعرب فى وحدة تقاوم الصهيونية[١].

ولقد كان الارتباط الجذرى بين التبشير والاستشراق أخذا وعطاءاً قوياً، والفرق بينهما هو أن الاستشراق أخذ صورة البحث، وادعى لبحثه الطابع العلمى الأكاديمى بينما بقيت دعوة التبشير فى حدود مظاهر العقلية العامة، وهى العقلية الشعبية.

واستخدم الاستشراق: الكتاب، والمقال فى المجلات العلمية، وكرّس التدريس فى الجامعة، والمناقشة فى المؤتمرات العلمية العامة، أما التبشير فقد سلك طريق التعليم المدرسى فى دور الحضانة ورياض الأطفال والمراحل الابتدائية والثانوية للذكور والإناث على السواء، كما سلك سبيل العمل الخيرى الظاهرى فى المستشفيات ودور الضيافة والملاجىء للكبار، ودور اليتامى واللقطاء، واستخدم كذلك دور النشر للطباعة والصحافة[٢].

وإذا كان الأمر ـ كما ذكرنا ـ فإنه ولا شك فى أنه كان للاستشراق صلة بحركة الاستعمار الأوربى، وبحركة التبشير المسيحى فى العصر الحديث.

كانت الغاية الأولى من هذا الاستشراق معرفة اللغة العربية ذلك أن اللغة هى الوسيلة الأساسية للسيطرة على الشعوب المحكومة أو للوصول إلى تفهم شعب عقائد شعب آخر. فالاستشراق قد نشأ فى الدول الكبيرة القوية ذات المطامع فى التوسع وفى الأرض، وفى الدول التى أصبح لها فيما بعد مستعمرات مثل: انجلترا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا وأسبانيا، وبلجيكا، وهولندا، وروسيا[٣].

وحاول المستشرقون أن يحققوا أهدافهم بكل الوسائل: ألفوا الكتب، وألقوا المحاضرات والدروس، وبشروا بالمسيحية بين المسلمين، وجمعوا الأموال، وأنشأوا الجمعيات، وعقدوا المؤتمرات، وأصدروا الصحف، وسلكوا كل مسلك، وظنوه محققاً لأهدافهم.

(١) المصدر السابق، ص ٣٦٦.
(٢) الدكتور محمد البهى، المبشرون والمستشرقون، ص ٣٦١.
(٣) الدكتور عمر فروخ: الاستشراق فى نطاق العلم وفى نطاق السياسة، ص ١٢٠.

وفى عام ١٧٨٧م أنشأ الفرنسيون جمعية المستشرقين وألحقوها بأخرى عام ١٨٢٠م وأصدرت «المجلة الآسيوية».

وفى لندن تألفت جمعية لتشجيع الدراسات الشرقية فى عام ١٨٢٣م وقبل الملك أن يكون ولى أمرها، وأصدرت مجلة «الجمعية الآسيوية الملكية». وفى عام ١٨٤٢م أنشأ الأمريكيون جمعية ومجلة باسم: «الجمعية الشرقية الأمريكية». وفى العام نفسه أصدر المستشرقون الألمان مجلة خاصة بهم، وكذلك فعل المستشرقون فى كل من النمسا وإيطاليا وروسيا[١].

ويصدر الأمريكيون فى الوقت الحاضر مجلة «شئون الشرق الأوسط»، وقد حلت محل مجلة «جمعية الدراسات الشرقية» التى كانوا يصدرونها فى أوائل هذا القرن، وآخر المجلات التى يصدرها المستشرقون الأمريكيون هى مجلة «العالم الإسلامى» التى أنشأها صمويل زويمر ١٩١١م وتصدر من «هارتفورد» بأمريكا، وطابعها تبشيرى سافر[٢].

وللفرنسيين مجلة شبيهة بمجلة «العالم الإسلامى» فى روحها واتجاهها العدائى التبشيرى، وفى اسمها أيضاً[٣].

ولعل أخطر ما قام به المستشرقون حتى الآن هو إصدار «دائرة المعارف الإسلامية» بعدة لغات وكذلك إصدار موجز لها بنفس اللغات الحية التى صدرت بها الدائرة، ومصدر الخطورة فى هذا العمل هو أن المستشرقين عبأوا كل قواهم وأقلامهم لإصدار هذه الدائرة وهى مرجع لكثير من المسلمين فى دراستهم على ما فيها من خلط وتحريف وتعصب سافر ضد الإسلام والمسلمين[٤].

ويعتمد المستشرقون ـ فيم يعتمدون ـ على عقد المؤتمرات العامة من وقت لآخر لتنظيم نشاطهم، وأول مؤتمر عقدوه كان سنة ١٧٨٣م، ومازالت المؤتمرات تتكرر حتى اليوم.

---

(١) الدكتور محمد البهى: المبشرون والمستشرقون، ص ٣٧٧.
(٢) الشيخ أحمد بشير: الغزو الفكرى والتيارات المعادية للإسلام، ص ٤٧١، ط. الرياض، السعودية.
(٣) الدكتور محمد البهى: التبشير والاستشراق، ص ٣٧٨.
(٤) المصدر السابق، ص ٣٨٧.

وفى العصر الحديث تقوم المؤسسات الدينية والسياسية والاقتصادية فى الغرب بما كان يقوم به الملوك والأمراء فى الماضى من الاغداق على المستشرقين، وحبس الأوقاف والمنح على من يعملون فى حقل الاستشراق والتبشير[1].

واتجه المستشرقون بمعاونة الاستعمار إلى مجال التربية محاولين غرس مبادىء التربية الغربية فى نفوس المسلمين حتى يشبوا مستغربين فى حياتهم وتفكيرهم وحتى تخف فى نفوسهم موازين القيم الإسلامية[2].

ولا يعرف العقل ولا المنطق حداً لما يقوم به المستشرقون من تحريف التاريخ الإسلامى، وتشويه لمبادىء الإسلام وثقافته وإعطاء المعلومات الخاطئة عنه وعن أهله وكذلك يجاهدون بكل الوسائل لينتقصوا من الدور الذى لعبه الإسلام فى تاريخ الثقافة الإنسانية.

إن المستشرقين جميعاً فيهم قدر مشترك فى هذا الجانب، والتفاوت إن وجد بينهم إنما هو بدرجة فقط، فبعضهم أكثر تعصباً ضد الإسلام وعداوة له من البعض الآخر، ولكن يصدق عليهم جميعاً أنهم أعداؤه[3].

والمستشرقون يتدخلون بشخصياتهم وآرائهم وأهوائهم الخاصة فيفسرون الحوادث، ويناقشون النصوص التشريعية، ويحللون قضايا اللغة وشخصيات الحضارة الإسلامية، كل ذلك يدرسونه من وجهة نظرهم ويطلون عليه من نافذتهم الخاصة، فيلقون عليه ظلالاً معينة تغير معالم الصورة الأصلية وفى غالب الأحيان تعطينا دراساتهم صورة غريبة مشبوهة لحضارة شرقية، وتقدم لنا الإسلام نفسه من خلال نظرة علمانية أو نصرانية، هذا مع أنه توفرت للمستشرقين من الإمكانات والعوامل المساعدة ما لم يتوفر لأحد خاصة عندما بسطت أوروبا نفوذها وسيطرتها الاستعمارية على منطقة العالم الإسلامى، وفتحت الأجواء فسيحة للمستشرقين والمبشرين، يتجولون فى المنطقة بحرية تامة

---

(١) المصدر السابق، ص ٣٧٨.

(٢) انظر: مجلد العالم الإسلامى، ١٦ مارس ١٩٥٩م، ص ١١٤، باكستان.

(٣) الدكتور محمد البهى: المبشرون والمستشرقون، ص ٣٧٩.

ويعبثون بمصادر الثقافة فيها، ومعالم الحضارة[1] بل ويستولون على كثير من المخطوطات الثمينة التى تشكل بمجموعها صرح المكتبة الإسلامية الكبرى فينهبون المخطوطات وينقلونها إلى أوروبا، وقد اطلعت على بعض الدراسات التى ذكرت أنه بالإمكان أن نجزم أن حوالى تسعين فى المائة من المخطوطات الثمينة نهبت وانتقلت إلى مكتبات وجامعات أوروبا وأمريكا وذلك على أيدى المستشرقين الذين كانوا ينتقونها بخبرة ومعرفة دقيقتين[2].

وكان انتقال هذا التراث إلى أيدى دوائر الاستشراق واحداً من أخطر التحديات لأنه أصبح حجة لنا لا علينا وأصبح إحياؤه يجرى على النحو الذى يختاره الاستشراق لا وفق إرادتنا الخاصة[3].

ولذا أحيا المستشرقون أنواعاً معينة وأولوها اهتماماً كبيراً. منها دراسات الحلاج التى عنى بها المستشرق (ماسنيون) ودراسات عن السهروردى، وبشار، وأبو نواس، وألف ليلة وليلة، وكليلة ودمنة، وما يتصل بابن الراوندى، وإحياء الأغانى وكل هذه الدراسات فيها شبهة طرح مفاهيم من شأنها أن تحطم مفهوم الإسلام الأصيل أو تزيفه[4].

وإن أى محاولة لتصور فلسفة الاستشراق لا تعدو ما أورده الباحثون المنصفون من أنها محاولة الاستعمار الغربى لدراسة العقلية العربية الإسلامية، والنفسية العربية الإسلامية، بقصد الانتفاع بذلك فى التعامل معها، والسيطرة عليها، وتدمير مقوماتها التى أعطتها القدرة على التماسك والصمود[5].

ويخلط الاستشراق كثيراً بين الإسلام كدين وتعاليم ثابتة، والقرآن الكريم، والسنة الصحيحة، وبين الوضع المتردى للعالم الإسلامى فى عالم اليوم.

---

(١) الشيخ عبدالعزيز القارى: المستشرقون فى الميزان، ص ٢٧٧، من محاضرات الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ١٣٩٣هـ.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٧٧.

(٣) الأستاذ أنور الجندى: الإسلام فى وجه التغريب، ص ٣٣٩ بتصرف.

(٤) المصدر السابق، ص ٤٠٠.

(٥) المصدر السابق، ص ٤٠٢.

فإسلام الكتاب والسنة يعد فى نظر مستشرق معاصر، مثل «كيسلنج» إسلاماً ميتاً. أما الإسلام الحى الذى يجب الاهتمام به ودراسته فهو ذلك الإسلام المنتشر بين فرق الدراويش فى مختلف الأقطار الإسلامية، هو تلك الممارسات السائدة فى حياة المسلمين اليوم بصرف النظر عن اقترابها أو ابتعادها من الإسلام الأول[1].

ويؤكد الاستشراق بوضوح على أهمية الفرق المنشقة عن الإسلام كالبابية والبهائية والقاديانية، وغيرها من فرق قديمة وحديثة، ويعمل على تعميق الخلاف بين السُّنَّة والشيعة، والمستشرقون يعدون المنشقين عن الإسلام على الدوام أصحاب فكر ثورى تحررى عقلى ودائماً يهتمون بكل غريب وشاذ[2].

فالاستشراق فى شطريه عاملاً مع الكنيسة أو عاملاً مع الاستعمار لا يستطيع أن يخلص إلى الحق، وإنما هو يؤدى دوره فى إثارة الشبهات وتقدم الزاد الكافى لدراسات التبشير، ومعاهد الإرساليات لإيجاد تيار زائف مضلل[3].

وكان من بين الخطط التى دُبرت أن يعمل المبشرون بكل الوسائل للتشهير بالدين الإسلامى وإظهاره برغم وحدانيته فى صورة أدنى إلى الغريزة البشرية وأنه يصلح لإشباع النزاعات الدينية السطحية دون التعمق فى تهذيب الروح والخلق. وزعموا أنه دين يشجع الحياة الجنسية ويدعو إلى الخمول والكسل والاستسلام لأحكام وتصرفات القدر.

ولقد عاون المستشرقون فى تثبيت وتأكيد هذه الاتهامات وتوسعوا فيها.

وبعد هذا الذى ذكرناه نعود إلى وقفة إنصاف لا بد منها: حيث أنه من المقطوع به أن الاستشراق من خلال هدفه ومهمته، قدم للفكر الإسلامى العربى أشياء كثيرة نافعة لا يمكن إنكارها ولا تجاهلها، ولا نكون مجاملين لأحد عندما نقول إن دراسات المستشرقين أدت خدمات فى مجالين:

---

(١) الدكتور محمود حمدى زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية، ص ١١٦.

(٢) الدكتور محمود حمدى زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية، ص ١١٦.

(٣) الأستاذ أنور الجندى: الإسلام فى مواجهة التغريب، ص ٤٠٢.

المجال الأول :

استيعاب المصادر وجمع المعلومات بشكل واسع وربما ساعدهم على ذلك اهتمامهم بالاختصاص الدقيق بحيث يقضى أحدهم فترة طويلة من عمره فى بحث واحد يتفرغ له .

المجال الثانى :

الترتيب والتنسيق فى منهج البحث والتأليف والإحصاء والفهرسة، وعنايتهم بها عناية كبيرة، وكان ذلك شيئاً جديداً على الدارسين فى الفترة التى ظهرت فيها دراسات المستشرقين إلى عالم القرّاء .

وتنبهت الأوساط العلمية والدارسون فى العالم الإسلامى إلى هذا المنهج المنسق الذى ظهر فى دراسات المستشرقين فاستفادوا منه فى بحوثهم ودراساتهم، وأن الباحث ليعترف بهذه الخدمات التى أدتها دراسات المستشرقين[1] .

ولا يفوتنا أن نذكر : أن بعض المستشرقين سلكوا منهجاً خاصاً بهم فى كثير من الأحوال، فمن جهود المستشرقين نشر الأصول العربية نشراً محرراً مصححاً بالمقارنة بين المخطوطات الراهنة. إن تاريخ الطبرى وطبقات ابن سعد، وتفسير البيضاوى قد رأت النور أول ما رأت على يد مستشرقين قضوا فى تحريرها جانباً كبيراً من حياتهم، ثم أخرجوها لنا ولهم أيضاً فى حالة وافية صحيحة، وكتب المستشرقون لتلك الكتب مقدمات صحيحة فيها دراسة وتقويم لتلك الكتب .

وبدأ المستشرقون عمل الفهارس الهجائية للكتب التى حرروها ولم نعرف نحن ذلك قبلهم[2] .

وقد خدم المستشرقون كذلك تراثنا الإسلامى لما نقلوا جانباً كبيراً من كتبنا إلى لغاتهم[3] .

---

(١) الشيخ عبدالعزيز القارى: المستشرقون فى الميزان، ص ٢٧٨ .

(٢) الدكتور عمر فروج: الاستشراق فى نطاق العلم وفى نطاق السياسة، ص ١٣١ من كتاب المستشرقون والإسلام، طبع الهند .

(٣) المصدر السابق، ص ١٣٢ .

أما فيما يتعلق بفنية البحث عن أحاديث الرسول ﷺ فإن الاستشراق قدم إلى الدراسات العربية الإسلامية خدمة جليلة نقدرها حق قدرها لأن من شأنها أن تسهل البحث عن النصوص المنتشرة فى مجلدات لا حصر لها. وإذا كان «مفتاح عبدالباقى»، يعد من أعظم الأعمال الميسرة للبحث عن النصوص النبوية فى حوالى أربعة عشر كتاباً من كتب الحديث. فإن المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى يعد فى قمة الأعمال التى قام بها المستشرقون فخدموا كل باحث أو طالب للحديث فى كتب تسعة من أمهات كتب الحديث [1] وهذا يدل على أن هناك اتجاهاً طيباً عند البعض فى الظاهر.

---

(١) الدكتور أحمد سمايلوفتش: فلسفة الاستشراق، ص ٢٠٦ بتصرف.

التبشـــير

من معاول الهدم التى تعوّق العمل الإسلامى، وتعرقل المسيرة الإسلامية من الانتشار: «التبشير»، والتبشير: حركة دينية، سياسية، احتلالية، صليبية بدأت بالظهور إثر فشل الحروب الصليبية[1]، بغية نشر النصرانية بين الأمم المختلفة، فى دول العالم الثالث بعامة، وبين المسلمين بخاصة، بهدف إحكام السيطرة على هذه الشعوب[2].

وقد اهتمت الكنيسة: بتوجيه جهودها إلى التبشير بالمسيحية فى العالم الإسلامى بالذات فى القرون الأخيرة. لتقتلع الإسلام من نفوس الناس وتحل بالنصرانية محله، مما يطلق عليه عند بعضهم: حملات التنصير.

يوضح ذلك المبشر «رايد» فى قوله: «إنى أحاول أن أنقل المسلم من محمد إلى المسيح. ومع ذلك يظن المسلم أن لى فى ذلك غاية خاصة. أنا لا أحب المسلم لذاته، ولا لأنه أخ لى فى الإنسانية، ولولا أنى أريد ربحه إلى صفوف النصارى، لما كنت تعرضت له لأساعده»[3].

وأنت ترى من هذه المقولة التى قالها ذلك المنصر: أن التبشير حركة خطيرة، موجهة ضد الإسلام لاجتثاثه من الجذور، ولمنع انتشاره بين الناس، وإذا قرأت أقوال من يسمونهم مبشرين: تدرك أن حركة التنصير حركة معرقلة لانتشار الإسلام ومده فى المجتمعات الإنسانية، ويذكر صموئيل زويمر: «أنه لا ينبغى للمبشر المسيحى أن يفشل، أو أن ييأس ويقنط، عندما يرى أن مساعيه لم تثمر فى جلب كثير من المسلمين إلى المسيحية لكن يكفى جعل الإسلام يخسر مسلمين

(١) د. على محمد جريشة، ومحمد شريف الزيبق: «أساليب الغزو الفكرى للعالم الإسلامى» ص ٢٩.

(٢) الندوة العالمية للشباب الإسلامى، الموسوعة الميسرة فى الأديان والمذاهب المعاصرة، ص ١٥٩.

(٣) مصطفى الخالدى، وعمر فروخ: التبشير والاستعمار، ص ٩٢، ط: المكتبة العصرية، بيروت، سنة ١٣٩١هـ - ١٩٧٣م.

بذبذبة بعضهم، عندما تذبذب مسلماً، وتجعل الإسلام يخسره تعتبر (تعد) ناجحاً يا أيها المبشر المسيحى، يكفى أن تذبذبه، ولو لم يصبح هذا المسلم مسيحيا»[١].

لقد أفادت الدراسات: أنه لا سبيل إلى السيطرة على المسلمين عن طريق الحرب أو القوة، ذلك لأن فى دينهم عامل حاسم، هو عامل المواجهة والمقاومة والجهاد، وبذل النفس، والدم رخيصاً فى سبيل حماية العرض والأرض، وأنه مع وجود هذا المعنى عند المسلمين فمن المستحيل السيطرة عليهم، لأنهم قادرون دوماً ـ انطلاقاً من عقيدتهم ـ على المقاومة، ودحر الغزو الذى يقتحم بلادهم، وأنه لا بد من إيجاد سبيل آخر من شأنه أن يزيف هذا المفهوم عند المسلمين، حتى يصبح مفهوماً أدبياً أو وجدانياً، وإيجاد ما يبرره على نحو من الأنحاء، بحيث تسقط خطورته واندفاعاته، وأن ذلك لا يتم إلا بتركيز واسع على الفكر الإسلامى، وتحويله من منطلقاته وأهدافه الأصلية حتى يستسلم المسلمون أمام القوى الغربية، وتروض أنفسهم على تقبلها على نحو من أنحاء الاحتواء[٢].

فأنت ترى أنه نتيجة لفشل الحروب الصليبية الصاخبة فى تحقيق أهدافها، التى تتلخص فى السيطرة على العالم الإسلامى، واستنزاف ثرواته، فقد استدار الاحتلال الغربى، وذلك باستحداث وسائل أخرى، يأتى التبشير فى مقدمتها لكونه غزواً صامتاً، يستطيع التسلل فى الظلام خلف الأقنعة والشعارات الزائفة[٣].

ولما كانت خبرات الحياة ـ وبخاصة فى مجال الحرب ـ تبين أن بعض الوسائل اللازمة لتحقيق الهدف النهائى لصراع ما، قد تعد أهدافاً مبدئية يلزم تحقيقها فى المراحل الأولى من ذلك الصراع، فقد عمد الاحتلال الصليبى الوثنى إلى جعل هدفه المبدئى والعاجل، هو: هدم الإسلام فى قلوب المسلمين، وإضعاف تلك الصلة القوية المعروفة، التى تربط المسلم بدينه[٤].

---

(١) د. على عبدالحليم محمود: «الغزو الفكرى» ص: ١٣٨.

(٢) أنور الجندى: «الإسلام فى وجه التغريب» ص: ٥، ط. الأولى، دار الاعتصام، بالقاهرة.

(٣) أحمد عبدالوهاب: «حقيقة التبشير بين الماضى والحاضر»، ص:١٥٧، ط. الأولى، مكتبة وهبة، القاهرة، سنة: ١٤٠١هـ-١٩٨١م.

(٤) المصدر السابق.

يقول المبشر الفرنسى «لوشاتليه»: كنا منذ أمد بعيد نود أن نخوض فى ذكر تفاصيل أعمال هذه الإرساليات (البروتستانتية) التى اشتهرت بخطتها، ووفرة الوسائل التى أعدتها وتوسلت بها لمقاومة دين الإسلام، إن إرساليات التبشير الدينية التى لديها أموال جسيمة، وتدار أعمالها بتدبير وحكمة، تأتى بنفع كثير فى البلاد الإسلامية، إذ أنها تبث الأفكار الأوروبية، إلا أن لإرساليات التبشير مطامع أخرى.

ويذكر القس الخبيث صموئيل زويمر: «أنه لنتيجة التبشير فى البلاد الإسلامية مزيتين: مزية تشييد، ومزية هدم، أو بالأحرى: مزيتى تحليل، وتركيب، والأمر الذى لا مرية فيه، هو: أن حظ المنصرين من التغيير الذى أخذ يدل على عقائد الإسلام، ومبادئه الخلقية، هو أكثر بكثير من حظ الحضارة الغربية منه، ولا ينبغى لنا أن نعتمد على إحصائيات التعميد فى معرفة عدد الذين تنصروا رسمياً من المسلمين، لأننا هنا واقفون على مجرى الأمور، ومتحققون من وجود مئات من الناس انتزعوا الدين الإسلامى من قلوبهم، واعتنقوا النصرانية فى طرف خفى»[(1)].

ويقول القس الحاقد زويمر فى مؤتمر تبشيرى: أن التبشير قد وصل إلى أسمى غاية فى مهاجمة الإسلام، وأدى المهمة على أكملها، وانتهى إلى نتائج لم يكن أحد يحلم بها منذ الحروب الصليبية. ليس عمل التبشير إزاء الإسلام، هو: إخراج المسلمين من دينهم، ليكونوا مسيحيين، لقد برهن التاريخ من أبعد أزمنته على أن المسلم لا يمكن أن يكون مسيحياً مطلقاً، والتجارب دلتنا ودلت رجال السياسة المسيحيين على استحالة ذلك، ولكن الغاية التى نرمى إليها، هى: إخراج المسلم من الإسلام فقط، ليكون إما ملحداً، أو مضطرباً، أو متشككاً فى دينه، وعندما لا يكون مسلماً، أى: لا يكون له عقيدة يدين بها، ويسترشد ضميره بمهمتها، وعندما لا يكون للمسلم من الإسلام إلا الاسم، عندها لا يكون مسيحياً ولا يهودياً، وإنما يكون ملحداً لا يؤمن إلا بالمادة، أو مضطرباً يحتقر الإسلام والمسلمين، لقد قضينا على برامج التعليم فى الأقطار الإسلامية، فأخرجنا منها القرآن، وتاريخ الإسلام، ومن ثم أخرجنا الشباب المسلم من

(١) أنور الجندى: «الإسلام فى وجه التغريب» ص: ٧١.

الوسائط التى توجد فيها العقيدة والوطنية والإخلاص والرجولة، والدفاع عن الحق. الواقع أن القضاء على الإسلام فى مدارس المسلمين هو: أكبر واسطة للتنصير، وقد جنينا منه أعظم الثمرت[(١)].

إن ما جاء على ألسنة قساوسة التنصير فى مؤتمراتهم التنصيرية مما نقلت بعضاً منه، ليعد من أكبر المعوقات لانتشار الإسلام، ومن أعظم الأخطار المحدقة بالمسلمين والإسلام.

وقد كانت جمعيات التبشير ومؤتمرات المنصرين، تقوم فى المجتمعات المسلمة المختلفة، وكان القس زويمر ـ رئيس إرسالية التبشير العربية فى البحرين ـ أول من ابتكر فكرة عقد مؤتمر عام يجمع إرساليات التبشير البروتستانتية، للتفكير فى مسألة نشر الإنجيل بين المسلمين، وفى سنة: ١٣٢٤هـ-١٩٠٦م: أذاع اقتراحه، وأبان الكيفية التى يكون بها، فوضعت هذه الفكرة على بساط البحث فى «ميسور» من ولاية «أكرا» فى الهند، لأن هذه الولاية ذات أهمية كبرى من حيث المسائل الإسلامية، لوجود جامعة عليكرة هناك، ثم عرض الاقتراح على مؤتمر التنصير الذى ينعقد فى مدينة «مدراس» الهندية كل عشر سنوات، فأجاز عقده وأن اتخاذ الهند قاعدة لتأسيس النظامات الخاصة بتنصير المسلمين بالنصرانية أمر طبيعى وبدهى.

وإذا كان الأمر خطيراً ـ كما وضح لنا ـ فإن أكبر خطوة حقيقية فى سبيل اتساع نطاق التنصير بعد الحرب العالمية الأولى تفسر ذلك الدعم المادى الخطير الذى واجهته إرساليات التنصير المختلفة فى العالم الإسلامى، وارتفاع المد التنصيرى، وبلوغه الذروة إنما ترجع إلى معاهدة «لاتيران» التى عقدتها الحكومة الإيطالية مع الفاتيكان، والمعروف أن خطوات التنصير فى العالم الإسلامى قد تلاحقت منذ مطالع القرن الثامن التى يطلق عليها فترة إنضاج الثمار، التى سيكون لها الصدارة فى مجالات القيادات السياسية والثقافية فى العالم الإسلامى كله، ولذلك حرص الاحتلال أن يبقى فى هذه المرحلة حارساً لهذه المؤسسات،

---

(١) المصدر السابق، ص: ٧٢.

ومدعماً لها حتى تتم مهمتها، وتركز أقدامها بحيث يصبح من المستحيل بعد ذلك إجلاؤها عن قواعدها[1].

وقد عقد مؤتمر تنصيرى فى «أدرنبرج» سنة: ١٢٢٨هـ-١٩١٠م وأعمال هذا المؤتمر لم تكن حبراً على ورق، بدليل أن المؤتمر الاحتلالى الصليبى الألمانى الذى عقد عقب مؤتمر «أدنبرج» التنصيرى، اهتم بأمر إرساليات التنصير الجرمانية، حتى خيل إلى الناس أن هذا المؤتمر الاستعمارى السياسى تحول إلى مؤتمر تنصيرى دينى[2].

وقد استمدت إرساليات التنصير ولا تزال تنخر فى جسم العالم الإسلامى سنوات طويلة، إلى أن دعا زويمر إلى مؤتمر تنصيرى شهير عقد بالقدس، سنة: ١٣٤٦هـ - ١٩٢٨م. وفى هذا المؤتمر جمع زويمر خلاصة أعمال المنصرين فى العالم الإسلامى، فقال مخاطباً الحاضرين: «مهمة التبشير التى ندبتكم دول المسيحية للقيام بها فى البلاد المحمدية ليست إدخال المسلمين فى المسيحية، فإن هذا هداية لهم وتكريماً، وإنما مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام، ليصبح مخلوقاً لا صلة له بالله وبالتالى فلا صلة تربطه بالأخلاق التى تعتمد عليها الأمم فى حياتها. لقد سيطرنا منذ ثلث القرن التاسع عشر على جميع برامج التعليم فى الممالك الإسلامية، ونشرنا فيها مكامن التبشير والكنائس والجمعيات والمدارس المسيحية الكثيرة التى تهيمن عليها الدول الأوروبية والأمريكية[3].

وإن الواقف على قضايا التنصير يجد أن هؤلاء المنصرين يختلفون بين زمن وآخر، كذلك طرق التنصير اختلفت من جيل إلى جيل، ومن قطر إلى قطر، فبينما كان التنصير فى القرن التاسع عشر مخصوصاً بأشخاص اتخذوا التنصير عملاً لهم، ثم حاولوا نشر النصرانية ببلاد المسلمين، ومحاولة تبيان فضل النصرانية على الإسلام وبإصرار على الجانب الغيبى من حياة المسيح، وجدنا زعماء التنصير فى العالم البروتستانتى بخاصة يرون أن هذا المظهر الدينى الصارخ يعرقل أعمال المنصر[4].

---

(١) أنور الجندى: «الإسلام فى وجه التغريب»، ص: ٧٢.
(٢) محب الدين الخطيب، وساعد اليافى: «الغارة على العالم الإسلامى»، ص: ٤٠.
(٣) أحمد عبدالوهاب: «حقيقة التبشير» ص: ١٦٠-١٦١.
(٤) د. مصطفى الخالدى، د. عمر فروخ: «التبشير والاستعمار»، ص: ٥٠.

ومما يجدر بنا أن نعرفه: أنه من الواضح أن التبشير المسيحى فى العالم الإسلامى هو فى حقيقته حرب صليبية، وهو امتداد لتلك الحروب الصليبية الصاخبة التى بدأها الغرب المسيحى منذ تسعة قرون[1].

وإذا كان ليس من مهمتنا أن نؤرخ لمؤتمرات التبشير والإرساليات، وليس من شأننا أن نعرض لأسماء المشاركين فيها والقائمين عليها. فحسبنا أن ندرك خطورة هذه الأعمال التنصيرية فى عرقلة نشر المد الإسلامى وآثارها المحدقة على المجتمعات الإسلامية، وعلينا أن نتبين أهداف التنصير، لنكون على بينة من المعوقات التى تهدد المسلمين وتأخذ بهم إلى طريق بعيد عن الصواب.

والباحث فى أهداف التبشير وتحويل المسلمين عن الإسلام: يجد أن التبشير يسعى لتحقيق أهداف وأغراض تنطلق من عنصرين رئيسيين هما:

١ - هدم الإسلام فى قلوب المسلمين، وقطع صلتهم بالله، وجعلهم مسخاً لا تعرف عوامل الحياة القوية، التى لا تقوم إلا على العقيدة القويمة، والأخلاق الفاضلة.

٢ - إخضاع العالم الإسلامى لسيطرة الاحتلال الصليبى، والتحكم فى مقدراته وإمكاناته[2].

وهذان العنصران الرئيسيان يضمان تحتهما مجموعة من الأهداف والأغراض، نجدها فى النقاط الآتية:

- توهين قيم الفكر العربى الإسلامى، والغض من اللغة العربية الفصحى.
- إضعاف التمسك الداخلى.
- إيجاد تخاذل روحى ومعنوى، وإيجاد شعور بالنقص فى نفوس المسلمين والشرقيين بعامة، وحملهم من هذا الطريق على الرضا والخضوع للمدنية المادية.
- إضعاف العقيدة الصحيحة فى نفوس المؤمنين بها، على أساس أن الشعوب التى تنحل عقائدها القوية وتضعف، تغدو فريسة سهلة للغزو الفكرى.

---

(١) أحمد عبدالوهاب: «حقيقة التبشير بين الماضى والحاضر»، ص: ١٥٦.

(٢) المصدر السابق، ص: ١٦٢.

- تقطيع أواصر الوحدة والإخاء والترابط من الأمة الإسلامية.

- السخرية والتشكيك بمختلف الجوانب التى يعتز بها المسلمون من تاريخ وتراث وقرآن وبطولات وأمجاد، والاحتقار والازدراء بالعالم الإسلامى وأممه فى المجالات المختلفة، ووصفه بالضعف والتأخر وتسميته بالأمم المتخلفة.

- تأجيج الخلافات بين الطوائف، وإثارة الفتن والقلاقل، فى المجتمعات الإسلامية.

- إفساد الخصائص الذاتية فى الشعوب الإسلامية[(١)].

فأنت ترى أن هذه الأهداف والأغراض تشكل مواجهة خطيرة أمام انتشار الإسلام، وقد بات واضحاً أن الاحتلال الصليبى كان يتدخل بنفوذه وسلطانه لحماية المنصرين، وتبرير إفسادهم لعقائد الناس.

وتعليمات التبشير تسير وفق مخطط رهيب رسمه المبشرون الكبار فى خبث، ومكر، ودهاء، وقد جاء فى هذا المخطط:

١ - أن طريقة التبشير فى البلاد الإسلامية تتركز فى إنشاء معاهد تسبغ على نفسها صفات المعاهد العلمية، وتتستر وراء هذا الستار[(٢)].

٢ - إنشاء عقلية عامة تحتقر كل مقومات الفكر الإسلامى، وإبعاد العناصر التى تمثل الإسلام عن مراكز التوجيه، فإذا لم تنجح الدعوة إلى الخروج من الإسلام إلى دين آخر، جرى تشكيكهم فى الدين المطلق، لقد استهدف التنصير نقل المسلمين من الإسلام وخطا فى سبيل ذلك خطوات واسعة[(٣)].

٤ - على المبشرات أن يزرن منازل المسلمين، ويجتمعن بسيداتهن.

٥ - استعانة المبشرين فى سبيل إنقاذ دعايتهم بالمستشفيات والمدارس والملاجىء.

٦ - على طبيب الإرسالية ألا ينسى ولا للحظة واحدة أنه منصر قبل كل شىء، وطبيب بعد ذلك.

---

(١) أنور الجندى: «مقدمات العلوم والمناهج»، جـ:١، ص: ٢٠٩-٢١٠، ط: دار الأنصار، بالقاهرة، سنة: ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

(٢) أنور الجندى: «الإسلام فى مواجهة التغريب»، ص: ٨٢.

(٣) المصدر السابق: ص:٨٢.

٧ - استغلال فرصة المرض، وبخاصة فى البلدان المسلمة الفقيرة التى تنتشر فيها الأمراض، كمرض الجذام وغيره، والسيطرة على المريض، وانتهاز فرصة الضعف والحاجة، وعدم القدرة على التفهم، والاقتناع، والدس للعقل الباطن بالإيحاء(١).

٨ - على المنصرين أن يتلونوا لتحقيق هدفهم التنصيرى. يجب أن يظلوا برءاء كالحمام، ولكن هذا لا يمنعهم ـ أيضاً ـ أن يكونوا حكماء كالحيات(٢).

٩ - تجنيد جيوش كثيفة من المبشرين، يدفع بها إلى أوطان المسلمين(٣).

١٠ - العمل على تفريق المجتمعات المسلمة، وتقسيمها، وتمزيقها، كما هو الحال فى لبنان وجنوب السودان.

ومما يلحظه الباحث: أن المبشرين اتخذوا للتبشير بين المسلمين وسائل عديدة شملت كل نواحى التأثير فى الإنسان، مما يجعل التنصير أكبر معوق لانتشار الإسلام. ومن أهم هذه الأمور:

أولا: المدارس التبشيرية، والإرساليات التعليمية:

فقد دأب التبشير فى البلاد الإسلامية على إنشاء المدارس والمعاهد والجامعات، وجاء فى قرارات المؤتمرات التبشيرية فى مجال التعليم: أنه فى كل حقل من حقول العمل يجب أن يكون العمل موجهاً نحو النشء الصغير من المسلمين، وموزعاً فيما بينهم ليحيط بهم، وليكونوا منه على صلة مباشرة، ويجب أن يقدم هذا على سواه فى الأقطار المسلمة(٤).

ومخطط التبشير يرمى فى مجال التعليم والثقافة إلى إنشاء رياض الأطفال والمدارس العامة والفنية المتخصصة، وإنشاء الجامعات والكليات وإنشاء كوادر مؤهلة علمياً، لتتولى أخطر المناصب فى البلاد(٥).

---

(١) أنور الجندى: «مقدمات العلوم والمناهج» جـ١، ص: ٢١٠.

(٢) د. مصطفى الخالدى، د. عمر فروخ: «التبشير والاستعمار»، ص: ٥٢. وهذا الكلام للمنصر: «تشارلس واطسون».

(٣) عبدالكريم يونس الخطيب: «الغزو الفكرى والتيارات المعادية للإسلام»، ص: ٤٣٥.

(٤) أنور الجندى: «مقدمات العلوم والمناهج»، جـ١، ص: ٢١٤.

(٥) أنور الجندى: «تصحيح المفاهيم فى ضوء الكتاب والسنة»، ص: ٢٧.

والتعليم فى مدارس الإرساليات النصرانية واسطة إلى غاية، تتحقق بإبعاد المسلمين عن الإسلام. ولقد برهن التعليم التنصيرى على أنه من أعظم الوسائل التى استطاع المنصرون اللجوء إليها.

ومما يجدر ذكره: أن المبشرين يهتمون بالمدارس ذات القسم الداخلى، وبخاصة للبنات، كما يهتمون بإنشاء دور لإيواء الطالبات المغتربات، إذ يؤدى ذلك إلى انتزاعهن من بيئتهن المسلمة ووقوعهن تحت سيطرة التنصير مباشرة[١].

والباحث يرى أن تأثير التبشير فى مجال التعليم قائم على طريقين:

١ - التأثير فى برامج المدارس الحكومية، وتوجيهها عن طريق النفوذ الاستعمارى الصليبى، الذى غزا المجتمعات فكرياً وسياسياً.

٢ - برامج المدارس والمعاهد والجامعات التابعة للمبشرين أنفسهم، فعن طريق التعليم اتخذ التنصير وسيلة إلى تغيير المفاهيم الأساسية، والقيم[٢].

ولعلنا ندرك أن المدارس التبشيرية من أخطر الأساليب التنصيرية فتكاً بالمجتمع المسلم، وأكثر إبعاداً للإسلام من نفوس المتعلمين، لما لها من تأثير. وقد عانت بعض المجتمعات المسلمة من هذه المدارس، وممن تخرجوا فيها، ولا زالت تعانى من شدة التأثير.

ثانيا: التطبيب:

التطبيب موضوع إنسانى كان يمكن أن يكون بمنأى عن الأغراض. ولكن النصرانية تستغل مثل هذه الأمور، فتدخل على الناس من أبوابها.

من أجل ذلك عنى المنصرون أول ما عنوا بالتطبيب، على أنه واسطة إلى غاية. إن اليسوعيين مثلاً أسسوا أكثر أعمالهم التبشيرية فى سورية إلى جانب مراكز التطبيب، بل أن مراكز التنصير قد بدأت عندهم مراكزللتطبيب فى أول الأمر. وفى هذه المراكز وجهوا عنايتهم الأولى إلى كبار الموظفين، وإلى الأعيان، وكانوا يستغلونهم من هذا الطريق لمصالح تنصيرية بحتة. ومع الأيام أخذت عناية

(١) أحمد عبدالوهاب: «حقيقة التبشير بين الماضى والحاضر»، ص: ١٦٦.
(٢) أنور الجندى: «مقدمات العلوم والمناهج»، جـ١، ص: ٢٠٩.

اليسوعيين بالتطبيب تقل، وقيامهم بالتنصير يزيد، حتى حل التنصير المحض محل التطبيب الذى كان رياء للناس[1].

وكان المنصرون يعلنون ذلك ولا يكتمونه. فقال قال: «رشتر»: «فى هذه المناسبات من التطبيب فى مستوصف أو مستشفى يمكن للطبيب أن يخاطب المسلمين بكلام كثير لو سمعوا بعضه فى مكان غير المستشفى، ومن شخص غير الطبيب لامتلأوا غيظاً وغضباً»[2].

أما حين تمتزج الصفاقة بالتدجيل، ويمتزج الجهل بموت الضمير، فإنك ترى ذلك واضحاً فيما قالته المنصرة «ايراهاريس» تنصح الطبيب الذاهب بمهمة تنصيرية: «يجب أن تنتهز الفرص لتصل إلى آذان المسلمين وقلوبهم، فتكرز[3] لهم بالإنجيل. إياك أن تضيع التطبيب فى المستوصفات والمستشفيات، فإنه أثمن تلك الفرص على الإطلاق، ولعل الشيطان يريد أن يفتنك فيقول لك: أن واجبك التطبيب فقط، لا التبشير، فلا تسمع منه»[4].

فالعلاج الطبى يعد واحداً من أخطر وسائل التنصير، لذا تحرص مؤتمرات التنصير على أن تكون توصياتها وقراراتها مؤكدة لخطورة استخدام العلاج الطبى فى التنصير. ومن تلك التوصيات والقرارات: يجب الإكثار من الإرساليات الطبية، لأن رجالها يحتكون دائماً بالجمهور ويكون لهم تأثير على المسلمين[5].

ومما يلحظ أن المستوصفات الطبية، والمستشفيات من أكثر المنشآت اهتماماً من جانب المنصرين. والمنصرون لا يرحبون بإنشاء مستشفيات وطنية فى مناطق عملهم، لأن ذلك يقلل من احتكاكهم بالمسلمين، واحتكارهم لهذه المهمة. وللمنصرين أساليب مختلفة فى مستشفيات المدن وفى الأدغال، والفيافى، وفى البيوت والقرى.

---

(١) د. مصطفى الخالدى: «التبشير والاستعمار»، ص: ٦١.

(٢) المصدر السابق، ص: ٦٢ بتصرف.

(٣) فتكرز: مأخوذ من الكرازة، وهو: تعبير مسيحى، معناه: إلقاء النصائح على الآتين إلى الكنيسة. د. مصطفى الخالدى: «التبشير والاستعمار»، ص: ٦١، الهامش.

(٤) د. مصطفى الخالدى: «التبشير والاستعمار»، ص: ٦٢-٦٣.

(٥) أحمد عبدالوهاب: «حقيقة التبشير» ص: ١٨٠.

ومما تأكد لدى الدارسين: أن مستشفيات التنصير كانت تقام فيها الصلوات المسيحية فى كافة عنابر المرضى فى الصباح والمساء، وتلقى المحاضرات بالفانوس السحرى. ويقوم موظفون أخصائيون فى التنصير بزيارة كل مريض فى مكانه، وتتوالى الزيارات بعد الشفاء فى المنازل[1]، ولم ينس المنصرون مقام المرأة فى الأسرة، فوجهوا اهتمامهم إلى التأثير عليها، وصاروا ينصرون فى مستشفيات النساء، وفى المستوصفات وكذلك أرسلوا الطبيبات المنصرات إلى البيوت والقرى، للاتصال مباشرة بالنساء، واستخدام نفوذ المرأة فى الوصول إلى أهدافهم التى يزعمون أنها نبيلة، ولقد استغل المنصرون كل شىء فى سبيل التنصير، أو محاولة التنصير حتى الممرضات. ويرى المنصرون: أن الممرضة لاتعمل على تخفيف الألم عن المرضى فقط، بل تحمل إليهم ـ أيضاً ـ رسالة المسيح، ولذلك حرص المنصرون على إنشاء مدارس للتمريض فى إيران خاصة[2].

وهكذا كما ترى حوّل المنصرون الطب ـ وهو واحدة من أكرم المهن الإنسانية ـ إلى وسيلة للانقضاض على الإسلام والمسلمين، والحد من انتشار الإسلام.

ثالثا: الأعمال الاجتماعية:

ومن الأعمال التى يستغلها التبشير ويجعلها من أساليبه: «الأعمال الاجتماعية»، والأعمال الاجتماعية، هى: المناسبات التى تربط بعض البشر ببعضهم عرضا، أو تتيح لبعض الناس أن يعرفوا الآخرين، مثل: الحفلات الرياضية، والخطابية، والأندية الأدبية والسياسية، وأعمال البر والإحسان[3]، وما جرى مجرى ذلك.

وقد فطن المنصرون إلى أهمية هذه الأمور، فاستغلوها كأسلوب من أساليب التنصير. جاء فى كتاب اسمه (مؤتمر العاملين المسيحيين بين المسلمين): نحن نعنى بالعمل الاجتماعى المسيحى تطبيق مبادىء يسوع المسيح فى جميع الصلات الإنسانية. إن المسلمين يدعون أن فى الإسلام ما يلبى كل حاجة اجتماعية فى

(١) أنور الجندى: «مقدمات العلوم والمناهج»، جـ١، ص: ٢٠٩.
(٢) د. مصطفى الخالدى: «التبشير والاستعمار»، ص: ٦٤.
(٣) المصدر السابق، ص: ١٩١.

البشر، فعلينا أن نقاوم الإسلام دينياً بالأسلحة الروحية. فالنشاط الاجتماعى يجب أن يوافق التعليم المباشر للإنجيل ويساعده ويتمه، فلنبدأ بالصلات اليومية، تلك التى تتصل بالطفل والمرأة، ثم نتوسع فى تلك الصلات، حتى نبلغ إلى المبادىء الواسعة التى أقرتها عصبة الأمم المتحدة[١].

وكان المنصرون يوجهون نصائحهم للقائمين بالعمل التنصيرى بالسير فى الأعمال الاجتماعية على الأسس الآتية:

- إيجاد بيوت للرجال والنساء، وخصوصاً الطلبة منهم ومنهن.
- إيجاد أندية للاعتناء بالتعليم الرياضى، وأعمال الترفيه.
- حشد المتطوعين لأمثال هذه الأعمال.
- التعرف على أحوال المسلمين الاجتماعية والاقتصادية.
- إصلاح الأحداث.
- الحيلولة دون زواج المسلمين المبكر[٢].

وهكذا يحاول المنصرون بكل وسيلة انتهاز كل مناسبة اجتماعية، ليدخلوا منها، أو يظهروا فيها.

رابعا: الهيمنة والتأثير على البعثات:

من أخطر وسائل التنصير وأشدها ضراوة على الإسلام والمسلمين: الهيمنة والتأثير على البعثات المبتعثة من البلاد المسلمة إلى الدول النصرانية الغربية، والمراجعة الفاحصة للدراسات التى تتصل بالتنصير، تكشف لنا أن التنصير أو ما يسمونه بالتبشير نجح فى اصطفاء بعض من يتخرجون من معاهده وجامعاته، أو من بعثاته فى أوروبا وأمريكا... وقد أتيح لهؤلاء أن يتولوا بعد عودتهم مناصب رئيسية فى وزارات التربية والتعليم والمعارف، فاستطاعوا أن يساندوا التنصير، وأن يؤثروا فى المناهج والمؤلفات والصحف[٣].

(١) نقلاً من كتاب: «التبشير والاستعمار»، ص: ١٩١-١٩٢، وانظر كذلك: أحمد عبدالوهاب: «حقيقة التبشير»، ص: ١٨٢.

(٢) أحمد عبدالوهاب: «حقيقة التبشير»، ص: ١٨٣.

(٣) أنور الجندى: «مقدمات العلوم والمناهج»، جـ١، ص: ٢٠٤.

وقد نجحت هذه العناصر التى أعدها التنصير فى استغلال مناصبها فى الأجهزة المختلفة، لغرض دس مفاهيم غير إسلامية، وتبنى وجهات نظر معادية للإسلام، والابتعاد عن التشريع الإسلامى.

ولا يخفى أن هناك وسائل أخرى يستخدمها المنصرون فى أعمالهم التى يقومون بها. وإذا بحثت بعمق عن الحقول الفكرية والاجتماعية التى يركز عليها التنصير، وجدت أنها:

١ - المدارس والمعاهد والكليات على اختلاف مستوياتها واختصاصاتها.

٢ - الأندية وقاعات المحاضرات، وسائر مراكز التوجيه الثقافى الخاصة أو العامة.

٣ - الجمعيات العلمية والثقافية والأدبية والفنية والأنشطة الرياضية.

٤ - الكتب والمجلات والصحف والنشرات الدورية.

٥ - وسائل الإعلام المختلفة: السمعية والبصرية السمعية.

٦ - الأحزاب والهيئات السياسية والاجتماعية.

٧ - المراكز الصحية على اختلاف مستوياتها وأنواعها.

٨ - المعامل والمؤسسات التجارية والصناعية والإدارية وغيرها[1].

وبكل هذه الوسائل والأساليب، وفى كل المواقع حارب المنصرون انتشار الإسلام بالخطط الماكرة، وبالأعمال الدائبة، فكان التنصير سبباً خطيراً من الأسباب والمعوقات التى تحارب الإسلام، وتقدم المسلمين وذلك بما كان من:

- إثارة الشبهات حول القرآن الكريم، والسنةالنبوية المطهرة وأحكام الإسلام، وتشريعاته ومبادئه.

- دس الأفكار الفاسدة، وإغراء بعض ضعفاء النفوس أو ضعفاء العقول من المسلمين باعتناقها على أنها من تعاليم الإسلام ومفاهيمه.

- اختلاق الأكاذيب والافتراءات على الإسلام وتاريخ المسلمين وتشويه غاية الفتوحات الإسلامية.

---

(١) عبدالرحمن حسن حبنكة: «الغزو الفكرى والتيارات المعادية للإسلام»، ص:٥٠٢، ط: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، سنة: ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

- مقابلة بعض أحكام الإسلام وأركانه وتشريعاته بالاستهزاء والسخرية والازدراء، ووصف المتمسكين بها بالرجعية والتخلف والتآمر والتعصب والجمود، ونحو ذلك من العبارات التى تضعف حماس المسلمين المتمسكين بدينهم.

- احتقار العلماء، وتقديم الجهلة المنحرفين إلى مراكز الصدارة، ليعطوا صورة سيئة عن الإسلام والسلوك السليم(١).

فالتبشير من أخطر الحروب والمعوقات التى تواجه الأمة المسلمة وانتشار الإسلام، كانت بدايته مع نهاية الحروب الصليبية، وقد بقى للتنصير حتى اليوم «تكتيكه» أو وسائله، وبقيت له «أيديولوجيته» أو فكرته، ولئن جاء التنصير بديلاً عن الحروب الصليبية، فقد كان ذلك بصفة عامة، لكن الحروب الصليبية لم تنته تماما(٢).

---

(١) المصدر السابق، ص: ٥٠٧.

(٢) د. على جريشة: «الغزو الفكرى والتيارات المعادية للإسلام»، ص: ١٨٧.

الصهيـــونيـــة

إن المتتبع للحركات الفكرية والتيارات الهدامة فى المجتمع الإنسانى يجد أنه ما من حركة هدامة أو تيار إلحادى، إلا وراءه الصهيونية، ومن هنا كان علينا أن نعرض للصهيونية، وأن نتعرف عليها ونستبين أخطارها على الإنسانية والإسلام.

والصهيونية كحركة سياسية تهدف إلى جمع اليهود، ولم شملهم وتهجيرهم إلى فلسطين، لتأسيس دولة يهودية فيها، تدين بالدين اليهودى، وتتميز بالعنصر اليهودى، والثقافة اليهودية، وبإرادة بعث مملكة داود[١].

أما الصهيونية كحركة دينية فكرية، أو تمدنية شاملة، تهدف إلى تمكين العنصر اليهودى من أداء رسالته، وتفهم هذه الرسالة. كتملك لأرض الميعاد، وقهر لجيرانها الأعداء، وتركيز لسلطة العالم الروحية والحضارية والفكرية فى صهيون[٢].

والصهيونية اشتقت من اسم جبل صهيون فى القدس، إذ تطمع الصهيونية أن تشيد فيها هيكل سليمان، وتقيم مملكة لها تكون القدس عاصمتها[٣].

وإذا كانت الصهيونية تنسب إلى جبل صهيون، فهو أحد جبال أربعة أقيمت عليها مدينة القدس العاصمة الروحية لليهود. وقد أضفت التوراة هالة من القداسة على جبل صهيون بخاصة، ففيه يقيم «يهوة» إله اليهود - فيما يزعمون - وفى رحابه يظهر المسيح المخلص، الذى ينتظره اليهود، بشيراً بغفران الله - سبحانه وتعالى - وتوبته عليهم، وخلاصهم مما يقاسون من بأس وإعنات. بعد تطهرهم من أدران الموبقات والمعاصى التى ظلوا عاكفين عليها لآماد طوال، ومن

---

(١) د. اسماعيل راجى الفاروقى: «أصول الصهيونية فى الدين اليهودى»، ص: ٧، ط: مكتبة وهبة، بالقاهرة، سنة: ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

(٢) د. اسماعيل راجى الفاروقى: «أصول الصهيونية فى الدين اليهودى»، ص: ٧٠.

(٣) الندوة العالمية للشباب المسلم، الموسوعة الميسرة، ص: ٣٣١، فتحى الأبيارى، الصهيونية، ص: ٦، ط: دار المعارف، بمصر سنة: ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.

ثم فقد استطارت شهرة صهيون، وسمت مكانته لدى اليهود، حتى عدا رمزاً لمنطقة أورشليم المقدسة[1].

وقد ورد ذكر صهيون فى التوراة – العهد القديم – فى مواقع كثيرة، منها:

– «وذهب الملك ورجاله إلى أورشليم إلى اليبوسيين سكان الأرض وأخذ داود حصن صهيون»[2].

– «أما أنا فقد مسحت ملكى على صهيون جبل قدسى»[3].

– «غنوا للرب الساكن فى صهيون، لأنه مطالب بالدماء»[4].

– «إذا بنى الرب صهيون يرى بمجده، لكى يحدث فى صهيون اسم الرب وبتسبيحه فى أورشليم»[5].

ـ «لأن الرب قد اختار صهيون اشتهاها مكاناً له»[6].

– «لأنه من صهيون تخرج الشريعة، ومن أورشليم كلمة (الرب)»[7].

– طوبى لجميع منتظريه. لأن الشعب فى صهيون يسكن فى أورشليم[8].

وإذا كانت الصهيونية منسوبة إلى «صهيون» فى بيت المقدس فإننا حين نقول الصهيونية العالمية نعنى: شيئاً آخر أقدم من هذه النسبة، نعنى بذلك: الخلق الذميم الذى تأصل فى طائفة من العبريين منذ أقدم العصور[9].

والصهيونية العالمية حقيقة واقعة، هى قوة موجودة بأعمالها وآثارها، موجودة بدعاياتها وأخبارها، موجودة بمقاصدها وغاياتها[10].

---

(١) عبدالسميع الهروى: «الصهيونية بين الدين والسياسة»، ص:٢٥، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٣٩٧هـ – ١٩٧٧م.
(٢) صموئيل الثانى، اصحاح (٥).
(٣) مزامير، اصحاح (٢).
(٤) مزامير، اصحاح (٩)، فقرة (١١).
(٥) مزامير، اصحاح (١٠٢).
(٦) مزامير، اصحاح (١٣٢).
(٧) أشعيا، اصحاح (٢).
(٨) أشعيا، اصحاح (٣٠).
(٩) عباس محمود العقاد: المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد، المجلد: الرابع عشر، ص: ٩٨، ط: دار الكتاب اللبنانى، بيروت.
(١٠) المصدر السابق، ص ٤٩.

والصهيونيون موجودون فى أوطان متعددة، ولهم فى اصطلاح العصر الحديث طابور خامس فى كل دولة، ولهم وسائلهم التى لا تتورع عن شىء من ضروب الرشوة، وإرضاء الأهواء والشهوات، وهم متعصبون مخربون فى كل مكان، لا يجمعهم حب بعضهم لبعض، ولكن تجمعهم كراهية الآخرين، كما يجمعهم الحقد على العالم(١).

وقد اختلف المؤرخون فى نشأة الحركة الصهيونية اختلافاً واضحاً:

١ - فمن هؤلاء من يرى: أن الفكرة الصهيونية قديمة قدم الدين اليهودى(٢)، إذ «أن اليهودية دين عرف منذ نيف وثلاثين قرناً من الزمان أيام إبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى وداود، غير أن اليهودية ليست كسائر الأديان، فهى لا تعبر عن طائفة دينية فحسب، وإنما تعبر - أيضاً - عن حركة سياسية، امتدت أصولها منذ أن أزال الرومان مملكة «يهوذا» من خريطة الوجود. ومن ثم كان ارتباط اليهود بالصهيونية منذ ذلك التاريخ صنوين. بمعنى أن أحدهما لا يفترق عن الآخر، وأصبحتا تمثلان وجهين لعملة واحدة. وقد حرص اليهود منذ البداية ألا يكشفوا عن نواياهم الحقيقية، بل حاولوا ليخلقوا على إعلان الحركة الصهيونية وأهدافها ثوباً إنسانياً عاماً»(٣).

وزعماء الصهاينة يقولون: «مادامت التوراة أم الكتب موجودة، وما دام للتوراة شعب موجود، فلا ينبغى أن يكون للتوراة بلاد أيضاً»(٤).

وحاولت الصهيونية - بعملية تزوير - أن تثبت تاريخاً لميلادها، وأن تعده قديماً قدم العالم، ويقترح «نورمان بتفتشى» تاريخاً لولادة الصهيونية، فيجعله من تاريخ سبى اليهود وأسرهم فى القرن السادس قبل الميلاد. وعلى هذا الأساس فالصهيونية واليهودية شىء واحد، وليس من فوق بين دين وحركة(٥).

---

(١) المصدر السابق، ص: ٦٩.

(٢) محمد موسى محمد البر: «نشأة الصهيونية العالمية» مجلة (الجندى المسلم)، السنة العاشرة، العدد: ٢٧، ص:٢٦.

(٣) عمر رشدى: «الصهيونية وربيبتها إسرائيل»، ص: ١٩.

(٤) عبدالرزاق محمد أسود: «الموسوعة الفلسطينية»، ص: ١٠٩، ط: منظمة التحرير الفلسطينية، بيروت، سنة ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م.

(٥) المصدر السابق، ص: ١٠٩.

٢ - ومن الكتّاب من يرى: أن الفكرة الصهيونية بدأت أعمالها المنظمة فى العصر الحديث، عندما بدأت تضغط على الدول الغربية. وقد قامت بنشاط واسع بين الساسة فى بريطانيا وفرنسا[١].

ويشير الباحثون: إلى أن الصهيونية الحديثة تنسب إلى «تيودور هرتزل» الصحفى اليهودى النمساوى، وهدفها الأساسى الواضح: قيادة اليهود إلى حكم العالم. وقد أقام «هرتزل» أول مؤتمر صهيونى عالمى، سنة: ١٣١٥هـ-١٨٩٧م. ونجح فى تجميع يهود العالم حوله، كما نجح فى جمع دهاة اليهود الذين صدرت عنهم أخطر مقررات فى تاريخ العالم، وهى: «بروتوكولات حكماء صهيون»، المستمدة من تعاليم كتب اليهود المحرّفة التى يقدسونها. ومن ذلك الوقت أحكم اليهود تنظيماتهم، وأصبحوا يتحركون بدقة ودهاء وخفاء وخبث، لتحقيق أهدافهم التدميرية[٢].

وأن الباحث فى الصهيونية العالمية يجد لها جذوراً تاريخية، فكرية وسياسية كثيرة[٣]، ليس من شأنى تتبعها، أو العرض لها، فإن الذى يهمنى ما ذكرته.

أما عن المكان الذى نشأت فيه الحركة الصهيونية، فإنه مع انتهاء الحرب العالمية تصبح «بولونيا» واحداً من أهم المراكز الصهيونية العالمية[٤]، إذ نشأت الصهيونية ونمت بين يهود روسيا وبولونيا، وباقى دول أوروبا الشرقية خلال القرن التاسع عشر، حيث تعيش آنذاك أكثرية اليهود فى العالم، وتعود أسباب نشوئها إلى عوامل عديدة، سياسية، واقتصادية، واجتماعية، وثقافية، ودينية. منها ما يتعلق بأوضاع اليهود واليهودية فى خلال تلك الفترة التى كانت بحد ذاتها تتمة لما سبقها وما يتعلق بالأوضاع العامة بالبلدان التى كان اليهود يعيشون فيها،

---

(١) محمد مصباح حمدان: «الاستعمار والصهيونية»، ص: ١١٥، ط: الهيئة القومية، بمصر، سنة: ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.

(٢) الندوة العالمية، الموسوعة الميسرة، ص: ٣٣٢.

(٣) انظر ذلك فى: الموسوعة الميسرة فى الأديان والمذاهب المعاصرة، ص: ٣٣١-٣٣٢، فإن بها أكثر من أحد عشر جذراً تاريخياً وسياسياً.

(٤) محمد موسى البر «نشأة الصهيونية العالمية»، مجلة: (الجندى المسلم)، السنة العاشرة، العدد ٢٧، ص: ٢٨.

والتغييرات التى حدثت فى أوروبا وروسيا، وبخاصة فى خلال القرنين: الثامن عشر، والتاسع عشر الميلاديين[1].

وجملة ما يقال: أنه لم تكن الصهيونية من حيث الأسباب أو تاريخ الظهور، إلا إحدى مشتقات المسألة اليهودية: التى أوجدها حكام وشعوب قسم من الدول المذكورة، بينما ساهم القسم الآخر بمساعدة بعض الفئات اليهودية - أحياناً - فى بقائها حية أو دعمها[2].

والصهيونية العالمية السياسية كان لها جذور فى روسيا. وروسيا تقع الأجزاء الغربية منها بخاصة فى شرق أوروبا[3].

فالصهيونية الحديثة حركة أوروبية شرقية فى أصولها، لا لمجرد أن معظم زعمائها جاءوا من تلك المنطقة. حيث تتجمع الغالبية العظمى من يهود أوروبا، بل هناك سببان آخران:

الأول: هو حساسة يهود أوروبا الشرقية، خصوصاً تجاه اللاسامية التى قامت على أساس الإجحاف العام الذى عززته بشكل نشيط - أيضاً - أنظمة الحكم، للتخلص من النقمة عليها.

الثانى: هو حجم الصهيونية فى صفوف يهود أوروبا الشرقية بخاصة، وتنظيمها الداخلى[4].

والصهيونية هى الواجهة السياسية لليهودية العالمية، التى تسعى لعرقلة الإسلام وتقويضه، كما وصفها اليهود أنفسهم، مثل الإله الهندى «فشنو» الذى له مائة يد - كما يزعمون - فهى لها فى معظم الأجهزة الحكومية فى العالم يد مسيطرة موجهة تعمل لمصلحتها[5].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) صبرى جرجس: «تاريخ الصهيونية»، ص: ٣٢. ط: دار الفكر العربى، بيروت، سنة: ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م.

(٣) د. هـ. جانس: «الصهيونية وإسرائيل وآسيا»، ص: ٤٩، ترجمة: رشيد حمد، ط: الكويت، سنة: ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

(٤) المصدر السابق، ص ٤٩-٥٠، مجلة: (الجندى المسلم)، فى العدد السابع والعشرون، ص: ٢٨.

(٥) الندوة العالمية للشباب الإسلامى، الموسوعة الميسرة فى الأديان والمذاهب المعاصرة، ص: ٣٣٧.

وللصهيونية مئات الجمعيات فى أوروبا وأمريكا، وفى مختلف المجالات التى تبدو متناقضة فى الظاهر، ولكنها كلها تعمل فى الواقع لمصلحة اليهودية العالمية[١].

والصهيونية مذهب دينى احتلالى مستبد متطرف حاقد، يتمذهب به غلاة اليهودية. فحواها: السيطرة السياسية الجامحة، والغرور العنصرى الغشوم، والتعصب الدينى الجانح الممقوت. قد شط بها التعصب، حتى جاوزت كل خيال فى الجموح والغلو، فهى ترمى إلى تقويض النظم السياسية للمجتمع الدولى بأسره، وإخضاعه لنير اليهود، وحكم آل داود المباشر واصطناع شعوبه رقيقاً منكر الإنسانية، مغموط الحقوق، ثم بسط السلطان الروحى للدين اليهودى على شعوب الأرض طراً من دون سائر الأديان سماوية كانت أم وضعية، وسبيلها إلى أهدافها، البطش الدموى والإرهاب الفكرى والاجتماعى، وإهدار القيم الإنسانية جميعاً[٢].

ومبنى النظرية الصهيونية: الإيمان بما تردد التوراة المحرفة من أن الله قد استخلف اليهود فى الأرض، وأورثهم أقطارها وشعوبها حقاً مقدساً مقضياً، وأن الدول والحكومات القائمة كافة دعية مغتصبة، وأن على اليهود المجاهدة لاقتضاء حقهم الهضيم فى فلسطين - كما يتوهمون - أرض الميعاد تحت إمرة حاكم من نسل داود[٣].

وإذا تتبع الباحث تطور التاريخ وألقى الأضواء على مخططات الصهيونية منذ القدم حتى الآن، لوجد أن الصهيونية تحاول أن تقضى على الأديان الأخرى بكل الوسائل، وهناك عداوة قديمة متأصلة بين اليهود والنصارى تبنى على: اعتقاد بأن المسيح - عليه السلام - ولم يكن يهودياً منهم، بدأت حربهم ضده، وضد ديانته[٤]، وما عداوة الصهاينة للنصرانية إلا جزء من عداوتهم للأديان جميعاً بما

---

(١) المصدر السابق، ص: ٣٣٧.

(٢) عبدالسميع الهراوى: «الصهيونية بين الدين والسياسة»، ص: ٢٥.

(٣) المصدر السابق، ص: ٢٥-٢٦ بتصرف.

(٤) فتحى الإبيارى: «الصهيونية»، ص: ٤٨.

فيها الإسلام. والتلمود[١]، وبروتوكولات حكماء صهيون يزخران بآلاف الأمثلة، وكلها تحض اليهود على كراهية ومقت غير اليهود، وتغريهم بقتلهم وغشهم وخداعهم[٢].

وقد أكدت بروتوكولات حكماء صهيون نظرية التفوق العنصرى لليهود، وأن هذا العالم لم يخلق إلا لليهود، وأن ما سواهم مخلوقات نجسة، ليقيموا عليه وفيه مملكة يهودية تحكم العالم[٣].

ولا يفوت الباحث أن يذكر أن الصهيونية تعتمد - بجانب ما لليهود من كتب مقدسة «محرفة» - على بروتوكولات[٤] حكماء صهيون، وقد كانت هذه البروتوكولات مودعة فى مخابىء سرية، ولا يعرف محتوياتها إلا الخاصة من اليهود الذين يعملون على تنفيذ ما جاء فيها بهدوء، وحسب تخطيط منظم، ثم حدث اجتماع بين امرأة نصرانية فرنسية، وبين زعيم صهيونى كبير فى وكر الماسونية فى باريس، ورأت هذه المرأة بطريق الصدفة[٥] - هذه القرارات فعرفت محتوياتها، وأخذت بعضها وفرّت بها، وكان هذا فى سنة ١٣١٩هـ - ١٩٠١م[٦]، ثم ظهرت هذه الوثائق فى روسيا، إذ نشرها «سرجين نيلوس» باللغة الروسية، وبعد اكتشاف سرقة هذه الوثائق أعلن اليهودى الحاقد المتعصب

---

(١) كلمة «تلمود» معناها بالعبرية: «تعليم»، وهى: مجموعة الشرائع اليهودية التى نقلت شفوياً، مقرونة بتفاسير رجال الدين - كما يزعمون - وهو أحد كتب اليهود الدينية: وهو عبارة عن موسوعة تتضمن: الدين والشريعة والتاريخ والآداب والعلوم الطبيعية، وقد بدأ تدوين التلمود فى القرن الخامس الميلادى: ويوجد تلمودان هما: التلمود البابلى، والتلمود الأورشليمى، والتلمود هو: أول محاولة من جانب حاخامات اليهود لتفسير العهد القديم بما يتناسب مع وضع اليهود الجديد.

- عمر رشدى: «الصهيونية وربيبتها إسرائيل»، ص: ٢٤ (الهامش) وانظر كذلك: عبدالوهاب المسيرى: «موسوعة المفاهيم والاصطلاحات الصهيونية»: ص ١٤١-١٤٢.

- محمد شفيق غربال، الموسوعة العربية الميسرة جـ١، ص: ٥٤٣.

(٢) فتحى الأبيارى: «الصهيونية»، ص: ٥٠.

(٣) المصدر السابق، ص: ٥١.

(٤) معنى «بروتوكولات»: قرارات، أو محاضر جلسات، ويغلب على الظن أنها: القرارات السرية لمؤتمر اليهود فى بابل بسويسرا، سنة: ١٣١٥هـ - ١٨٩٧م.

- أحمد بشير: «الغزو الفكرى والتيارات المعادية للإسلام»، ص: ٤٨٨.

(٥) يشيع التعبير بالصدفة، والأولى أن يقال: بالقدر.

(٦) أحمد بشير: «الغزو الفكرى» ص: ٤٨٨-٤٨٩.

«تيودور هرتزل» أنه قد سرقت من قدس الأقداس بعض الوثائق السرية، التى قصد إخفائها على غير أصحابها.

وقد أعاد «نيلوس» نشر الكتاب مع مقدمة وتعقيب بقلمه سنة: ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م، ونفذت هذه الطبعة بسرعة غريبة، وبوسائل خفية، لأن اليهود جمعوا نسخها من الأسواق بكل الوسائل وأحرقوها، ثم طبعت سنة: ١٣٢٩هـ/ ١٩١١م، فنفذت على هذا النحو، ولما طبعت سنة: ١٣٣٥هـ - ١٩١٧م صادرها الشيوعيون، وكان معظمهم من اليهود الصرحاء، أو المستورين، أو من صنائعهم[(١)].

وتسابقت الأمم إلى ترجمة البروتوكولات، فترجمت إلى الفرنسية والبولونية والإيطالية والسويسرية، وغيرها من اللغات، كما ترجمت إلى الإنجليزية فى أمريكا.. أما اليابان والبلدان الأخرى فى آسيا فقد ترجمت إلى لغاتها.. أما بلدان العالم الإسلامى والعالم العربى وإفريقيا، فلم يطلع عليها من أبنائها إلا قليل فى الترجمات التى صدرت بلغاتها، وذلك لشيوع الأمية والجهل، وسطوة الاحتلال والوثنية[(٢)].

وأخيراً ترجمت البروتوكولات إلى اللغة العربية، وتوالت الطبعات ويقال: إن أول ترجمة عربية ظهرت سنة: ١٣٧٠هـ-١٩٥١م[(٣)].

والبروتوكولات، هى: الخطة التى وضعت للسيطرة على العالم أمر حقيقى ثابت، وأن زعماء الصهيونية يكونون مجلس «سانهدرين الأعلى» الذى يرمى إلى السيطرة على حكومات العالم كافة[(٤)].

ولا مانع من عرض بعض المقررات السرية لمؤتمر «بال» والتى سميت «ببروتوكولات حكماء صهيون»:

---

(١) خليفة التونسى: «الخطر اليهودى «بروتوكولات حكماء صهيون»، ص: ٤١-٤٨، ط: المكتب العربى، بيروت.

(٢) أحمد عبدالغفور عطار: «مؤامرة الصهيونية على العالم»، ص: ١٤٩- ١٥٠، ط: دار العلم للملايين، بيروت.

(٣) عبد الله التل: «خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية»، ص: ١٦٦، ط: المكتب الإسلامى، بيروت سنة ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

(٤) عبد الله التل: «خطر اليهودية العالمية»، ص: ١٦٥.

– إن جواز المرور لدينا، هو: القوة والكذب والإدعاء، إن حقنا فى قوتنا: لا عيب، ولا عار فى أن تكون جاسوساً أو جساساً أو مخرباً، بل هذه فضيلة.

– لقد عبثت أيدينا فى التشريعات، وفى سن القوانين وتنفيذها، وتدخلنا فى شئون الانتخابات، وفى الصحافة، وأداة النشر، وفى توجيهها والسيطرة عليها.

– يجب أن يكون واضحاً تماماً لنا – نحن اليهود – مدى ذلك الانحلال والتفكك الخطير الذى تنشره الشيوعية فى أذهان «الجوييم»[(١)]، أى: الشعوب الكافرة غير اليهودية.

– إن الحاجة اليومية إلى الخبز تضطر «الجوييم» إلى السكوت والرضوخ والرضا، وإلى أن يكونوا خدماً لنا، أذلاء خاضعين فى استسلام.

– إن خطباءنا سيباشرون مهمة تفسير المشكلات الكبرى وتأويلها حسب هوانا، تلك المشكلات التى قلبت الإنسانية رأساً على عقب، تأويلاً تخضع معه الإنسانية إلى حكمنا الصالح المتسامح.

– الصحافة كلها وجميع وسائل الإعلام واقعة تحت سيطرتنا، والأدب والصحافة قوتان فى طليعة القوى التوجيهية المهمة، وبذلك يجب أن تصبح حكومتنا مالكة للجزء الأعظم من الصحف.

– لقد حفرنا هوة سحيقة بين السلطات الحاكمة البصيرة، وبين قوى الشعب العمياء، ففقد الإثنان بذلك معنى وجودهما، وصار كالأعمى وعصاته، لا يساوى كل منهما شيئاً على انفراد.

– إن قوتنا إنما هى فى سوء التغذية المزمن لأجسام «الجوييم» وفى ضعفهم البدنى الدائم.

---

(١) الجوييم: صيغة جمع للكلمة العبرية «جوى»، وتعنى: شعب أو قوم، استخدمت للإشارة للأمم غير اليهودية، دون سواها، ومن هنا كان المصطلح العربى «الأغيار»، وقد اكتسبت الكلمة ـ فيما بعد ـ إيحاءات بالذم والقدح، وأصبح معناها: الغريب والأغيار: درجات، أدناها: الأكوام، أو عبدة الأوثان والأصنام، وأعلاها: أولئك الذين تركوا عبادة الأوثان «أى: المسيحيون والمسلمون»، وتقسيم العالم إلى يهود وأغيار، يضع اليهودى فوق التاريخ وخارجه مما يجعله يرى كل شىء على أنه مؤامرة موجهة ضده.
– عبدالوهاب المسيرى: «موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية»، ص: ٧٨-٧٩.

- لقد خدعنا الجيل الناشىء من «الجوييم» وجعلناه فاسداً متعفناً بما علمناه من مبادىء ونظريات، معروف لدينا زيفها التام.

- يجب علينا أن نحطم كل عقائد الإيمان، وتكون النتيجة المؤقتة، هى: إثمار ملحدين.

- عندما نصل إلى مملكتنا يصبح من غير المرغوب فيه لدينا وجود عقيدة غير عقيدتنا، وعلى ذلك يتعين علينا: أن نكتسح جميع العقائد والأديان الأخرى[1].

وحينما يدقق الإنسان النظر فى هذه القرارات - والتى جئنا ببعضها - ترى: أنها قرارات لتحطيم العقائد والإنسان فى هذا الوجود، تصد الناس عن الحق، وتصرف الناس عن الإسلام. وأساليبها وإمكاناتها خطر على المجتمعات.

والبروتوكول الأول يرسم لليهود كيف يكيدون لسائر شعوب الأرض ويبذرون غراس الفساد، ويعيثون بالفوضى والانحلال فى المجتمع[2].

أما البروتوكول التاسع فجاء فيه: «لقد أتلفنا الجيل الحاضر من غير اليهود، وأفسدنا خلقه بتلقينه المبادىء والنظريات التى نعلم سلفاً أنها مبادىء ونظريات فاسدة، وعملنا على ترسيخها فى ذهنه[3].

وهكذا يقف اليهود وراء كل دعوة هدامة، وكل مبدأ يتنافى مع الخلق والكرامة، ويحيكون الأحابيل للشباب، يتملكون غرائزه، ويزينون له أسباب المتعة المحرمة من فسق وفجور وميسر، وإدمان للخمر، وتهالك على المخدرات لإنهاك قواه، وابتزاز طاقاته، وتوهين عزائمه، للتردى به فى إسار الإدمان، حتى يسهل ويسلس قياده واستسلامه[4].

ويقول البروتوكول الرابع عشر: «عندما نصبح أسياد الأرض لا نسمح بقيام

---

(١) محمد خليفة التونسى: «الخطر اليهودى»، ص: ١١١-٢٢٣.

(٢) السميع الهراوى: «الصهيونية بين الدين والسياسة»، ص: ٨٤.

(٣) محمد خليفة التونسى: «الخطر اليهودى»، ص: ١٤٧، أحمد عبدالغفور عطار: «مؤامرة الصهيونية على العالم»، ص: ٢٢٨.

(٤) عبدالسميع الهراوى: «الصهيونية بين الدين والسياسة»، ص: ٨٤.

دين غير ديننا أى دين لا يسلم إلا بإله واحد، يرتبط به مصيرنا، لأنه اختارنا، ويرتبط به كذلك مصير العالم[١].

ويقول البروتوكول السابع عشر: «لقد عنينا عناية. . . [مخصوصة] بالعيب فى رجال الدين غير اليهود، والحط من قدرهم فى نظر الشعب، وأفلحنا كذلك فى الإضرار برسالتهم التى تنحصر فى تعويق أهدافنا، والوقوف فى سبيلها، حتى لقد أخذ نفوذهم ينهار مع الأيام[٢].

«إن حرية العقيدة معترف بها اليوم فى كل مكان، ولا يفصلنا عن انهيار المسيحية إلا بضع سنوات، وسيكون القضاء على الأديان الأخرى أيسر من ذلك»[٣].

وأن الباحث فى مخططات الصهيونية يجد: أن الإسلام والمسيحية قد كرست لها الصهيونية نشاطها، ابتغاء النيل منهما، بدأب حثيث، وموجة مسعورة، ودهاء خارق. . يقول التلمود: «حيث أن المسيح كذاب، وحيث أن محمداً اعترف به، والمعترف بالكذاب كذاب مثله، فيجب أن نقاتل الكذاب الثانى، كما قاتلنا الكذاب الأول»[٤].

ولم يسع حاخام إسرائيل أن يضمر هذه النعرة بين جنبيه، لاهبة جياشة تؤزه، ويملك عليه غلواؤها حماسه، وعقدة منطقه، فأطلق للسان العنان، يجاهر بها ويدعو لها علانية فى حفل وضع حجر الأساس للمحفل الماسونى فى تل أبيب فى سنة ١٣٧٧هـ - ١٩٥٨م بقوله: «إننا نعمل جميعاً لهدف واحد هو: العودة بكل الشعوب إلى أول دين محترم أنزله الله على ظهر هذه الأرض، وما عد ذلك فهى أديان باطلة، أديان أوجدت الفرقة بين أهل البلد الواحد، وبين أى شعب وشعب، . ونتيجة لمجهوداتكم سيأتى يوم يتحطم فيه الدين المسيحى، والدين الإسلامى، ويتخلص المسلمون من معتقداتهم المتعفنة، ويصل جميع البشر لنور الحق والحقيقة».

---

(١) محمد خليفة التونسى: «بروتوكولات حكماء صهيون»، ص: ١٦٩.
(٢) المصدر السابق، ص: ١٨٧.
(٣) المصدر السابق، ص: ١٨٧.
(٤) د. محمد على الزغبى: «دقائق النفسية اليهودية»، ص: ١٢٨ ط: بيروت، سنة: ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.

وللصهيونية وسائل كثيرة، تصنعها لتصل عن طريقها إلى أهدافها. ويهمنى من هذه الوسائل والأساليب ما يتصل بالإسلام، وما يتصل بالإسلام فى قمة الخطورة، مما يعد من أكبر العراقيل التى توضع أمام المد الإسلامى، ومن هذه الوسائل:

١ - محاولة تحريف الكتب الدينية والتاريخية، بالإضافة أو الحذف أو التعديل، أو التغيير، وقد كشف الله أمرهم فى الأعوام الماضية حينما حاولوا تحريف القرآن الكريم.

٢ - دراسة الإسلام واللغة العربية وكتبهما، بالاشتراك مع هيئة الاستشراق، متعاونين على أمل التمكن من تحريف الإسلام فى المؤلفات، وفى نفوس أبنائنا الذين يلجأون إليهم بعد فترة من الزمن.

٣ - تلقف أبناءنا الذين نرسلهم إلى جامعات الغرب أو الشرق ليوجهوهم بأساليبهم المختلفة، وأفكارهم المسمومة إلى ما يصرف شبابنا الصاعد عن بناء مستقبله، ولينأوا به عن دينه.

٤ - مداومة تنمية الفرقة بين المسلمين بما يضمن نموها لتفريق الشمل وتفتيت الجمع.

٥ - العمل على التحالف بين اليهودية والمسيحية ضد الإسلام، وأول من قام بهذه الفكرة، هو دافيد ريوبينى - حاخام اليهود - فقد تقدم إلى البابا فى روما بمشروع محالفة ضد الإسلام، للقضاء عليه[1]. ونشأ عن هذا الاتفاق ما يسمى الآن «بالصهيونية المسيحية»، وعلى رأس هذه المسيحية الكنيسة البروتوستنتية. ويرى هؤلاء: أن مصلحة المسيحية ممالأة اليهود، والوقيعة بينهم وبين المسلمين[2].

---

(١) محمد محمد أبو فرحة: «الصهيونية ومخططاتها للسيطرة على العالم»، ص: ٥٩-٦٠ محاضرة ألقيت فى الموسم الثقافى للعام الدراسى ١٣٩٣هـ/ ١٣٩٤هـ بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

(٢) المصدر السابق، ص: ٦٠-٦١، بتصرف.

الماســـونيـــة

الماسونية كلمة غامضة فى لفظها ومعناها، كما هى غامضة فى الدعوة التى تقوم تحت رايتها، وهذا الغموض الذى تتحرك فى ظلامه هذه اللفظة هو مقصود لذاته، إذ يتعامل بها الناس، وهى فى هذا القناع الكثيف من الغموض، الذى لا يرفع السر عنه أبداً، بل تظل هكذا مغلفة فى هذا الضباب تغرى كثيراً من الناس بالجرى وراءها، والبحث عن هذا العالم المجهول الذى ترمز إليه رمز الكهان والسحرة والمشعوذين، بما يتحدثون به إلى الناس: إذ يكون للفظة أو العبارة محامل كثيرة من المعانى المتناقضة المتضاربة، تذهب بها التأويلات كل مذهب لا يردها إلى عقل أو منطق(١).

وإذا نظرنا إلى اللفظة «الماسونية» فى ذاتها، وإن لم تكن قد عرفت اللغة التى جاءت منها، ولا الأصل الذى اشتقت منه، وجدنا أن معظم حروفها مشكلة من كلمة (موسى) عليه السلام، المرسل إلى بنى إسرائيل بالتوراة التى هى شريعتهم إلى اليوم، فالميم فى الماسونية هى: الميم فى موسى، والألف هى الواو منقلبة ألفاً، والسين هى السين، والواو هى الواو، والنون هى النون التى تلحق بياء النسب، مثل: النون فى ربانى، نسبة إلى رب(٢).

والماسونية لغة معناها: البنّاؤون الأحرار، وهى فى الاصطلاح: منظمة يهودية صهيونية سرية إرهابية غامضة محكمة التنظيم، تهدف إلى ضمان سيطرة اليهود على العالم، وتدعو إلى الإلحاد والإباحية والتخريب والفساد، جل أعضائها من الشخصيات المرموقة فى العالم، يوثقهم عهد بحفظ الأسرار بما يسمى بالمحافل الماسونية للتجمع والتخطيط والتكليف بمهمات الأمور(٣).

---

(١) عبدالكريم يونس الخطيب: «الغزو الفكرى والتيارات المعادية للإسلام»، ص: ٤٤٩.

(٢) المصدر السابق.

(٣) الندوة العالمية: «الموسوعة الميسرة فى الأديان»، ص: ٤٤٩.

وفى أوائل القرن السابع عشر الميلادى تكونت جمعية سرية فى فرنسا تدعى: «جمعية البنائين الصادقين»، واتخذت هذا اللقب من كلمة «الماسونية» وهى مكونة من لفظين:

الأول: ومعناه «فران» وهى كلمة عبرية معناها فى اللغة العربية: الصادق.

والثانى: «ماسون» أى: البانى: ومعنى الكلمتين معاً فى العبرية: «البناؤون الصادقون»[١].

واليهود هم واضعو هذه اللفظة «الماسونية» وهم الذين عملوا على تجسيدها فى صورة هياكل يجتمع الناس فيها من مختلف الأديان والمذاهب والمشارب والأعمار، حتى صارت «الماسونية» دعوة من تلك الدعوات الرائجة فى جميع أنحاء العالم، فلا تكاد تخلو دولة من دول العالم كله من أن يكون بها أعداد كثيرة من المحافل الماسونية المنتشرة فى جميع مناحيها[٢].

وللماسونية أسماء أخرى اختلفت حسب اختلاف الأمكنة والأزمنة والفروع المتفرعة منها، كالمنورين فى ألمانيا، والفحامين فى إيطاليا[٣].

وللماسونية تعاريف كثيرة أهمها:

- أنها جمعية سرية لم تعرفها بلاد الإسلام إلا فى العصور المتأخرة، آخذة إياها عن البلاد الغربية من فرنسية وإنجليزية وإيطالية وألمانيا وغيرها[٤].

- الماسونية لون من نشاط اليهود المعادى للأديان عموماً والإسلام على الأخص، وهى جمعية سرية أنشأها اليهود ليمارسوا من خلالها الأعمال التى توصلهم إلى أهدافهم وأغراضهم[٥].

---

(١) د. مبارك حسن حسين: «التيارات الفكرية والحركات المعاصرة»، ص: ١٣٦، ط. الأولى، دار الاعتصام بالقاهرة.

(٢) عبدالكريم الخطيب: «الغزو الفكرى»، ص: ٤٤٩.

(٣) مجلة (الجندى المسلم) السنة العاشرة، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م، العدد ٢٧، ط: وزارة الدفاع والطيران، الرياض.

(٤) فتحى يكن: «حركات ومذاهب فى ميزان الإسلام»، ص: ٥٣، ط: دار الجيل، بيروت، سنة ١٣٩٠هـ-١٩٧٠م.

(٥) مجلة (الجندى المسلم)، العدد ٢٧، ص: ٧٠.

- أن الماسونية شركة سرية غايتها: تقويض أركان سلطة دينية كانت أو مدنية[1].

- هى جمعية سرية تحمل أهدافاً سرية، غاية فى الخطورة[2].

- الماسونية هى الجمعية التى تعمل فى الخفاء «للاستيلاء على العالم عن طريق بث أفكارها»[3].

والمتأمل بثاقب فكره فى تلك التعريفات التى وقع اختيارى عليها من بين العشرات يجد أنها متقاربة، وأنها تشكل فى مجموعها خطراً على الإسلام وخطورة رهيبة على البشرية، لا يمكن السكوت عليها، وأن الإنسانية ما وصلت إلى ما وصلت إليه من التردى والانحلال والضياع، إلا نتيجة لأعمال هذه الجمعيات الماسونية التى تكيد للإسلام والإنسانية.

وقد اختلف المؤرخون فى منشأ حركة «الماسونية».

- فمن قائل: إنها قديمة قدم الإنسان منذ ظهر آدم - عليه السلام - على الأرض[4].

- ومنهم من قال: إن الذى أسسها «هيرودوس أكريبا» ملك الرومان، وذلك سنة ٤٤م بمساعدة مستشاريه اليهوديين[5].

- ومنهم من قال: إنها انبثقت من جمعية الصليب الوردى، التى تأسست سنة ١٠٢٥هـ-١٦١٦م[6].

ومنهم: من أوصلها إلى الحروب الصليبية[7].

---

(١) الأب لويس اليسوعى: «السر المصون فى شيعة الماسون»، ص: ٤٣، ط. دار الكتاب العربى، بيروت، سنة ١٣٨٠هـ-١٩٦٠م.

(٢) مجلة (الجندى المسلم)، العدد ٢٧، ص: ٧٠.

(٣) الجنرال (جواد رفعت أتلخان): «أسرار الماسونية»، ص: ٢٦، ط: الأولى، المختار الإسلامى، بمصر، سنة ١٣٩٥هـ-١٩٧٥م.

(٤) د. مبارك حسن حسين: «التيارات الفكرية»، ص: ١٣٨.

(٥) أضواء على الماسونية، مجلة (الجندى المسلم)، العدد: ٢٧، ص: ٧١، عفيفى إبراهيم حسن: «الماسونية بين الشيوعية والصهيونية»، ص: ٥.

(٦) المصدر السابق.

(٧) المصدر السابق.

وهناك أقوال وآراء كثيرة حول نشأة هذا الوكر الخبيث الماسونية، وسبب الاختلاف فى نشأتها: يرجع إلى طبيعة هذه الجمعية السرية إذ أن سريتها هى التى جعلت مسألة نشوئها غامضة، يحيطها الكتمان الشديد.

وإذا كان المؤرخون والباحثون يختلفون فى نشأتها، فإن من المؤكد أن هذه الحركة لم تعرف على حقيقتها إلا فى بداية القرن السابع عشر الميلادى. والماسونيون أنفسهم يقولون فى ذلك أقوالاً وآراء كثيرة، منها:

أولاً: لا ينكر أنها شاعت بين الوثنيين فى القرون السابقة لعهد المسيح جمعيات سرية، كانت تحجب أسرارها الفاسدة تحت ستر الظلمة فتدعى ظاهراً ترقى العلوم، والتقرب بين الألوهية، وهى فى الواقع موارد خالعة متهتكة. وكان أسوأها فعلاً: الجمعيات المتسترة وراء حجاب الدين[1].

ثانياً: أنه من الأقرب إلى العقل والتصديق أن يقال: أن الماسونية هى حفيدة لجمعيات أخرى، وشيع سرية ظهرت فى أوائل النصرانية.

فقامت لمعاداة الدين المسيحى، وتعرضت لأربابه[2].

ولا يخفى على أهل البحث والدراسة: أن الماسونية كانت ابتكاراً واختراعاً يهودياً بهدف استقطاب الجاليات اليهودية فى العالم كله وجمعهم بفلسطين، سعياً وراء غايتهم المنشودة، وهى: إعادة تأسيس مملكة إسرائيل، وإعادة مجد «يهوذا» تحت لقب «الحكومة العالمية» لتسيطر على العالم كله سياسياً واقتصادياً، وفكرياً وعقدياً[3].

فأصل كلمة «الماسونية» قد صاغها اليهود تلك الصياغة الخبيثة، لتكون جارية على الألسنة فى كل لغة، ولتحتفظ بهذه الصورة التى يعرفها كل يهودى فى

---

(١) جورجى زيدان: «تاريخ الماسونية العام»، ص: ١٤٨، ط: الانجلو المصرية، بالقاهرة، سنة: ١٣٦٧هـ-١٩٤٨م.

(٢) المصدر السابق.

(٣) د. مبارك حسن حسين: «التيارات الفكرية»، ص: ١٣٩، د. صابر طعيمة: «الماسونية والصهيونية والشيوعية غاية وهدفا»، ص: ١٥، ط: دار الفكر العربى، بيروت.

العالم، فكلما ظهر لها وجود فى أية جهة، عرف اليهود فى تلك الجهة أنها دعوتهم، وأنهم أهلها، وحملة رايتها[1].

ثم إننا إذا صرفنا النظر جانباً عن أصل الكلمة، ونظرنا إلى مظهرها الخارجى، وما قام تحت مسماها من هياكل، وما يجرى فى داخل هذه الهياكل من أقوال وأعمال، وجدنا:

- أن تلك المبانى التى أطلق عليها «المحافل» والتى يجتمع فيها المستجيبون، أو المستجلبون لهذه الدعوة الماسونية، قد بنيت على شكل هيكل سليمان - عليه السلام -.

هذه المحافل التى نصبوها فى كل مدن العالم هى: إعداد لاستقبال هذا المسيح المنتظر - فى زعمهم -، والذى سيحكم العالم، ويقيم اليهود ولاة باسمه على كل أمم الأرض.

- أما مهمة المحافل الماسونية: فهى جلب الناس إليها من مختلف الأجناس والأديان تحت اسم الإخاء الإنسانى البعيد عن التعصب لأى دين أو مذهب أو وطن أو جنس أو لون، فإن كان ثمة تعصب لشىء فهو الدين، وإن كان ثمة دين فهو دين العالمية - بفتح اللام - أى: دين الغيرة على الإنسان فى كل مكان من هذا العالم[2].

والباحث فى منهاج الماسونية: يجد أنها تسلك منهاج الباطنية فى الدعوة إلى مبادئها واعتناقها، بمعنى: أن لها ظاهراً براقاً جميلاً تخدع به العوام والجهلة والبسطاء من الناس، إذ تغريهم وتساومهم باستخدام أساليب الخداع والتضليل، تارة بالإغراء بالمال، أو بالمناصب والجاه، وتارة بالوصول إلى مراكز القوى والحكم فى البيئة التى يريدون إفسادها وتخريبها. ويقولون: إن غاية دعوتنا: الأعمال الخيرية لبنى الإنسان، وتنادى بمبادىء براقة، ظاهرها الرحمة، وفى

(١) عبدالكريم الخطيب: «الغزو الفكرى»، ص: ٤٤٩-٤٥٠.
(٢) المصدر السابق، ص: ٤٥٠-٤٥١، بتصرف واختصار.

باطنها العذاب، وهى: مبدأ الحرية، والمساواة، والإخاء. وهذه المبادىء الثلاثة استعاروها من بروتوكولات صهيون[1].

وهذا يضع أيدينا على أن أصابع الصهيونية خططت لهذه الدعوة وتبنتها بالمال والدعم المعنوى، حتى عملت على إنجاحها وانتشارها فى العالم كله، إذ كانت فى بادىء أمرها مقتصرة فى دعوتها على النصارى فى أوروبا الغربية، وبعد أن استقرت وقويت، توسعت فى العالم كله، وجمعت بين النصارى والمسلمين واليهود. وهيأت لهم الظروف الملائمة إذ عملت على نبذ الأديان السماوية، ونادت بحرية الأديان، لكى تضمن دخول المسلمين فى هذه الجمعيات السرية المناوئة للأديان السماوية بحربها الشعواء عليها، وبخاصة الدين الإسلامى الحنيف[2].

فأنت تجد الماسونية تسلك مناهج وسبل الدعاوى والتيارات الهدامة، وجميع أساليب الخبث والمكر المناهضة للأديان السماوية للنيل منها وهدم آدابها، وقيمها، وأخلاقها، ومنع انتشارها.

وإذا ذهبت تتعرف على المحافل الماسونية التى ينشئونها، تجد أن المحافل الماسونية عبارة عن الأماكن التى تعد لتكون مقراً لاجتماعات الماسونيين وتعمل هذه المحافل فى اتجاهين رئيسيين، هما:

الأول: نشر الدعوة الماسونية. وبثها فى المجتمع الإنسانى كله خدمة للصهيونية، تارة بالإغراء بالأموال، وتارة بالوعود بالمناصب والسلطة والوظائف فى هذه البلاد، لمن تلمس فيهم التطلع إلى الظهور.

الثانى: تعمل المحافل الماسونية كأجهزة مخابرات سرية، للتجسس على الحكومات فى البلاد والدول التى توجد بها محافل الماسونية والوقوف على سير النظم السياسية والاقتصادية والدينية والاجتماعية، والعمل من وقت لآخر على بث

---

(١) محمد خليفة التونسى: «الخطر اليهودى، بروتوكولات حكماء صهيون»، ص: ١٢١.
- د. محمد على الزغبى: «الماسونية فى العراء»، ص: ٩، ط: الثالثة، سنة: ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.
- سعود بن على الصقرى: «الماسونية فى الميزان»، ص: ٩٠. ط: الأولى، مطابع الفرزدق التجارية، بالرياض، سنة: ١٤٠٨هـ-١٩٨٧م.
(٢) د. مبارك حسن حسين: «التيارات الفكرية»، ص: ١٤٠.

القلاقل داخل البلاد. حتى لا يستقر لها نظام، كما تعمل على تشجيع طرق الفساد فى هذه البلاد، لإفساد الأخلاق والقيم، والمبادىء وكسر حدة التدين فيها[1].

والتاريخ لم يعرف منظمة سرية أقوى نفوذاً وخطورة من الماسونية، وذلك:

- لأن لها نفوذ واسع فى العالم من خلال الزعماء الذين اصطادتهم فأصبحوا كالدمى فى يدها، خوفاً على أنفسهم وكراسيهم.

- لها محافل فى العالم تقريباً، إذ تستقطب هذه المحافل الشخصيات فى كل بلد، لضمان سيطرتها عليه.

- تسيطر على كل الجمعيات والمنظمات الدولية؛ ومنظمات الشباب، لتضمن سير العالم كما تريد، ولتضمن أن يكون القرار دائماً بيدها.

- تسيطر على معظم وسائل الإعلام ودور النشر، والصحافة فى العالم.

- لهم عصابات إرهابية، لتنفيذ العمليات الإجرامية، للتخلص من كل من يقف فى طريقهم عن قصد أو عن غير قصد[2].

وإذا كان هذا شأن الماسونية من حيث النشأة والنفوذ، فإن عقيدتها تزعم فى الظاهر أمام الناس، وبخاصة البسطاء والجهال، أنها تعتقد بوجود إله واحد واجب الوجود، أزلى قديم قادر على كل شىء، خالق كل شىء بمشيئته، كل مخلوق يحتاج إليه، ولا يحتاج هو إلى أحد من المخلوقين.

هذا منطوق الماسونيين فى الظاهر أمام الناس، لخدعتهم والتغرير بهم والحقيقة: أن الماسونيين - وفقاً لمبادئهم وعقيدتهم الملحدة - ينكرون وجود الله الخالق - سبحانه وتعالى -، ويعادون كل دين سماوى، ولا يؤمنون إلا بالمادة، فهى عقيدتهم[3].

يقول أحد الماسونيين فى خطبة له: «إنى أعلن بينكم صريحاً أنه من الواجب علينا أن ننبذ التعاليم الدينية، ونطرح كل نفوذ دينى على أى صورة كان، فكل

---

(١) عبدالرحمن سامى: «الصهيونية والماسونية»، ص: ٨٣.

(٢) الندوة العالمية للشباب الإسلامى: «الموسوعة الميسرة فى الأديان والمذاهب المعاصرة»، ص: ٤٥٣.

(٣) د. مبارك حسن حسين: «التيارات الفكرية»، ص: ١٤٤.

اعتقاد دينى أساسه ما وراء الطبيعة، كالإله غير المنظور، إنما هو ضعف فى عقل الإنسان»(١).

ويقول ماسونى آخر - كما جاء فى النشرة الماسونية المؤرخة سنة: ١٢٨٢هـ-١٨٦٦م: «علينا نحن الماسونيين فقط أن نرقى فوق طبقات كل الأديان، بل نتحرر - أيضاً - من كل اعتقاد بوجود إله أياً كان»(٢).

وقال ثالث: «إن صرح الاستبداد الروحى قد سقط، وإن المتحررين عن كل اعتقاد قد فازوا ظافرين، حتى إنه لم يبق الآن أحد يؤمن بالله وبخلود النفس غير البله والحمقى»(٣).

وفى المؤتمر المنعقد سنة: ١٣١١هـ-١٨٩٤م بألمانيا: قام أحد خطباء الماسون، فقال: «ليس فى العالم سوى جوهر واحد، وذات واحدة، هى المادة، والإله الحقيقى هو المادة»(٤).

وتحت عنوان (الماسونية والدين): كتب أحد مفكرى الإسلام يقول: «إن موقف الماسونية من الدين لا يختلف عن مواقف المادية منه، فالماسونية تعمل على إشاعة المادية، وتدعو إلى حرب الأديان ومقاومتها بصورة عامة»(٥). كما حكى قول أحد الماسون فى مؤتمر الطلاب المنعقد فى سنة: ١٢٨١هـ-١٨٦٥م بمدينة «ليبزج»: «يجب أن نعلنها حرباً شعواء على العدو الحقيقى للبشرية، الذى هو الدين، ويجب ألا ننسى بأننا نحن الماسونيين أعداء للأديان، وعلينا ألا نألوا جهداً فى القضاء على مظاهرها»(٦).

ويضاف إلى ما سبق فى عقيدة الماسونيين: أنهم يناصبون العداء للأنبياء - عليهم أفضل الصلاة والتسليم - ولهذا دعوا إلى كذبهم وسقوطهم والطعن

---

(١) شاهين مكاريوس: «الآداب الماسونية»، ص: ٤، ط: الأولى، دار الفكر العربى، ببيروت، سنة: ١٣٨٦هـ-١٩٦٦م.

(٢) فتحى يكن: «حركات ومذاهب»، ص: ٥٩.

(٣) المصدر السابق، ص: ٦٠.

(٤) الجنرال جواد رفعت أتلخان: «أسرار الماسونية»، ص: ٣٠، مطبعة الجاحظ، سنة ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م، بتصرف.

(٥، ٦) فتحى يكن: «حركات ومذاهب»، ص: ٥٠.

فيهم، قال أحد الماسون، سنة ١٣١٩هـ-١٩٠١م: «نحن الماسون يسرنا أن نشاهد سقوط الأنبياء الكذبة، فإن الماسونية قد أنشئت لتناصب الأديان العداء»[١].

وجاء في النشرة الرسمية للمحفل الماسوني الفرنسي، سنة ١٢٧٢هـ-١٨٥٦م: «إننا نحن الماسون لا يمكننا أن نكف عن الحرب بيننا وبين الأديان، لأنه لا مناص من ظفرها أو ظفرنا، ولا بد من موتنا أو موتها، فالماسون لا يمكن أن يذوقوا طعم الراحة إلا بعد أن يغلقوا جميع المعابد ويحولوها إلى هياكل لحرية الفكر، ولإله العقل[٢].

فأنت ترى أن أقوال هؤلاء الماسونيين ناطقة بإنكارها لوجود الله - سبحانه وتعالى - ومحاربتها للأديان السماوية، كما أنها تسب الأنبياء، وتنكر رسائلهم، فهم كفار ملحدون، ولا يؤمنون إلا بالمادة، فالمادة إلههم ومعبودهم، وهذا يكشف لنا عن حقيقة عقيدتهم المادية الخبيثة، فهم ماديون ملحدون، لا يؤمنون إلا بالمادة كما أنهم يدعون إلى التحلل من الأخلاق والشرائع السماوية، وطبائع الماسون تقوم على بث الإباحية إذ تتوسل بالجنس والنساء، وتبيح شرب الخمر، وإقامة الحفلات الماجنة للإيقاع بالأشخاص، واجتذابهم إلى صفوفها[٣].

أما بالنسبة للأخلاق وانحلالها: فإن الجمعيات الماسونية تؤدى الدور الذى تقوم به بخبث ومكر ودهاء جمعيات الانحلال الخلقى، والمطبوعات الفاضحة والممارسة المشينة، والجمعيات الماسونية لها أعضاء فى كل مؤسسات المطبوعات الجنسية الفاضحة، وهدفها: إشاعة الانحلال الأخلاقى بين أصحاب الأديان، ويعبر عن هذا أحد كبار الماسونية وهو «دور فويل».

فيقول: «إن العفة المطلقة مرذولة عند الماسونيين والماسونيات، لأنها ضد ميل الطبيعة»[٤].

---

(١) د. مبارك حسن حسين: «التيارات الفكرية»، ص: ١٤٦.

(٢) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(٣) الجنرال جواد رفعت أتلخان: «أسرار الماسونية»، ص: ٢٩-٣٢، كتاب ديشأن، الجمعيات الماسونية، ص: ١١٨،. ط: دار الفكر العربى، ببيروت، سنة: ١٣٨٥هـ-١٩٦٥م، د. مبارك حسن حسين: «التيارات الفكرية»، ص: ١٤٧.

(٤) مجلة (الجندى المسلم)، العدد: ٣٠، السنة العاشرة، ص: ٦٢، الرياض، وزارة الدفاع والطيران.

وفى أحد نشرات الماسونية تقرأ بالحرف الواحد: «لماذا يستر الإنسان عورته، لماذا تخفى الواحدة جسدها؟ إن إظهار العورات واستعمالها هو الشكل.. [الأساس]... الذى تود تحقيقه الماسونية، إذ أن حماية الأخلاق شىء تحاربه وتخطط له وتهدمه، كما أن الكشف عن الأعضاء التناسلية للرجال والنساء شىء تدعو له جمعيتنا الموقرة»(١).

وإن المتتبع لدعوات الماسونية: يجد أن من هذه الدعوات تحريم الجهاد فى جميع المذاهب والأديان، ما عدا الماسونيين، فإنهم يجاهدون ضد أعدائهم لانتصار مبادئهم ونجاحها(٢).

ونستطيع بعد هذا أن نعرض بعض أفكار الماسونية ومعتقداتها، التى تشكل خطورة أساس فى سبيل تقدم وانتشار الإسلام، ومن تلك الأفكار والمعتقدات:

- أنها تكفر بالله - سبحانه وتعالى - ورسله - صلوات الله وسلامه عليهم- وكتبه، وبكل الغيبيات، ويعدون ذلك خزعبلات وخرافات.

- تعمل على تقويض الأديان، والإسلام بصفة خاصة.

- تعمل على إسقاط الحكومات الشرعية، وإلغاء أنظمة الحكم الوطنية فى البلاد المختلفة، والسيطرة عليها.

- إباحة الجنس، واستعمال المرأة كوسيلة للسيطرة.

- العمل على تقسيم غير اليهود إلى أمم متنابذة تتصارع بشكل دائم.

- تسليح هذه الأطراف، وتدبير حوادث لتشابكها.

- بث سموم النزاع داخل البلد الواحد، وإحياء روح الأقليات الطائفية العنصرية.

- تهديم المبادىء الأخلاقية والفكرية والدينية، ونشر الفوضى والانحلال والإرهاب والإلحاد.

---

(١) المصدر السابق، ص: ٦٢.

(٢) د. مبارك حسن حسين: «التيارات الفكرية»، ص: ١٤٧ بتصرف.

- العمل على السيطرة على رؤساء الدول، لضمان تنفيذ أهدافهم التدميرية الفتاكة.

- السيطرة على أجهزة الدعاية والصحافة والنشر والإعلام، واستخدامها كسلاح فتاك شديد الفاعلية والتأثير[1].

فهدف الماسونية - كما ترى من الأفكار والمعتقدات - هو: القضاء على الأديان، باستثناء اليهودية التى تعمل على تثبيت دعائمها وتمجيدها، ونشر سيطرتها على العالم. ولقد جاء فى السجلات الماسونية الصادرة سنة: ١٣٢٢هـ - ١٩٠٤م: «لقد تيقن اليهود أن خير وسيلة لهدم الأديان، هى: الماسونية، وأن تاريخ الماسونية يشابه تاريخ اليهود فى الاعتقاد، ويربط كيانها بخمسة آلاف سنة، منذ بدأ الخليقة، وأن شعارها: نجمة داود المسدسة... [ويعد]... اليهود والماسون معاً الأبناء الروحيين لبناء هيكل سليمان. وأن الماسونية التى تزيف الأديان الأخرى تفتح الباب على مصراعيه لإعلاء اليهودية وانتصارها»[2].

وفى مؤتمر الطلاب الذى انعقد فى سنة: ١٢٨١هـ-١٨٦٥م فى مدينة «ليبزج» التى تعد أحد المراكز الماسونية. أعلن الماسونى المشهور Lefargoe «ليف أرجو» فى الطلاب الوافدين من ألمانيا وأسبانيا وروسيا وانجلترا وفرنسا قائلاً: «يجب أن يتغلب الإنسان على الإله، وأن يعلن الحرب عليه، وأن يخرق السماوات، ويمزقها كالأوراق»[3].

وجاء فى كتب الماسونية: يجب ألا ننسى بأننا نحن الماسونيين أعداء للأديان، وعلينا ألا نألوا جهداً فى القضاء على مظاهرها، ولا يصح أن نكتفى بالانتصار على المتدينين ومعابدهم، إنما غايتنا الأساسية، هى: إبادة الدين من الوجود، وأن النضال ضد الأديان لا يبلغ نهايته إلا بعد فصل الدين عن الدولة. وسوف تحل الماسونية محل الأديان، وأن محافلها ستقوم مقام المعابد[4].

---

(١) الندوة العالمية للشباب الإسلامى: «الموسوعة الميسرة فى الأديان والمذاهب المعاصرة»، ص: ٤٥٠-٤٥١، باختصار شديد.

(٢) أحمد البشير: «الغزو الفكرى والتيارات المعادية للإسلام»، ص: ٤٨٥.

(٣) الجنرال جواد رفعت أتلخان: «أسرار الماسونية»، ص: ٢٩-٣٠.

(٤) المصدر السابق، ص: ٣٠-٣١، بتصرف واختصار.

وأن المتأمل فى أهداف الماسونية يجدها تتنوع إلى غايتين:

الأولى: غاية عقدية، وهى: غزو الأفكار والأذهان والعقول بمبادئهم، حتى يضمنوا التحكم فى الناس، وبالتالى يعملوا على ضياع العقائد، وانحلال الأخلاق والقيم، ونزعها من نفوسهم، وبذلك يسهل لهم بث الإباحية والإلحاد والفساد، ليحلوا محل العقائد السماوية، والفضائل الإنسانية[1].

الثانية: غاية سياسية، وهى: غزو الأحزاب السياسية، وجعلها تحت سيادتهم، بحيث تصبح جميع الأحزاب خادمة لهم[2].

وإن الناظر بعمق فى هاتين الغايتين اللتين تهدف إليهما الماسونية يجد: أنهما يشكلان خطورة على الإنسانية، كما أن هاتين الغايتين معوق خبيث وخطير لكل ما هو إسلامى، والتنظيمات الماسونية القديمة والتى خططت للحرب والقضاء على المسيحية منذ عصر الميلاد، ما أن فوجئت بالمجتمع الإسلامى فى القرن السابع الميلادى يقوم على دعوة التوحيد لله والحب والإخاء الصادق، حتى ظهرت الأحقاد التى تكره للحق أن ينتصر»[3].

وقد لبست الماسونية مع تطور وتصاعد عدائها ضد الإسلام أثواباً عديدة، وكان كل ثوب يوائم المرحلة أو العصر الذى تمر به التنظيمات الماسونية كقوة خفية تعمل فى الظلام جيلاً بعد جيل. ومن الأثواب التى ارتدتها الماسونية فى حربها للإسلام: المذاهب والاتجاهات والتيارات التى دست على الإسلام، حتى حسبها العامة من المسلمين فى مراحل القهر والاستبداد من الإسلام[4].

ولا يخفى على الباحث والدارس والمتتبع لأحوال المسلمين، وما فى المجتمعات المسلمة من أحزاب وتيارات: أن تفرق المسلمين إلى طوائف صناعة ماسونية، لأن الماسونية تعمل على عرقلة الجهود لمصلحة الإسلام والمسلمين.

---

(١) مجلة (أكاسيا): «الماسونية الإيطالية»، سنة: ١٣٢٢هـ-١٩٠٤م، ص: ٢٥٦. نقلاً من: د. مبارك حسن حسين: «التيارات الفكرية والحركات المعاصرة»، ص: ١٤٨.

(٢) البيان الماسونى، سنة: ١١٥٧هـ-١٧٤٤م، نقلاً من: د. مبارك حسن حسين: «التيارات الفكرية»، ص: ١٤٨.

(٣) د. صابر طعيمة: «الماسونية ذلك العالم المجهول»، ص: ٢٢٥.

(٤) المصدر السابق، ص: ٢٢٦، باتصرف واختصار..

والذى يؤكد القول بهذا: أنك تجد المجتمعات المسلمة انصرفت عن الدعوة إلى الجهاد فى سبيل الله انصرافاً أنساها أن هذه فريضة إسلامية، فما الذى أنسى المسلمين فريضة الجهاد، وما الذى صرف الحكومات عن الدعوة إلى الجهاد؟

تساؤلات ترد على الذهن، ويعرف الإجابة عنها، لمن تأمل الماسونية وعرف أخطارها وأوكارها العفنة.

أنـدية الروتــارى

جاء فى المصدر التى كتبها المنتسبون إلى الروتارى، والمعلقون عليها: أن المحامى اليهودى «بول هاريس» الذى كان يعيش فى شيكاغو أحس بالوحدة، وبحاجته الملحة إلى الزمالة والصداقة، ففكر فى جمع بعض الأصدقاء فى مكتبه، فى روح أخوية، ليتدارسوا كيفية رفع مستوى كل منهم[١].

وأول اجتماع كان فى ١٩ ذى الحجة، سنة ١٣٢٢هـ- ٢٣ فبراير سنة ١٩٠٥م، حضره أربعة من الأصدقاء، واتفقوا على أن يكون الاجتماع أسبوعياً فى مكان عمل واحد منهم. ومن هنا جاء اسم «الروتارى». ولما كثر عددهم، وضاقت بهم أماكن العمل، أصبحت اجتماعاتهم حول موائد الطعام، مع مناقشة ما يرون من مسائل[٢].

ثم أنشأوا نادياً ثانياً فى «فرانسيسكو»، سنة: ١٣٢٦هـ - ١٩٠٨م، وتكونت نواد خارج أمريكا، كان أولها نادى «ويننج» فى كندا، سنة ١٣٣٠هـ-١٩١٢م، ثم انتشرت فى كثير من البلاد، حتى صار عددها: سبعة عشر وثمانمائة ناد فى أربع وخمسين ومائة دولة، ومنطقة جغرافية حسب إحصاء ذى الحجة، سنة: ١٣٩٨هـ - نوفمبر، سنة ١٩٧٨م[٣].

والروتارى - كما تذكرها المعاجم -: «منظمة ماسونية، تسيطر عليها اليهودية العالمية. تعرف باسم «نادى الروتارى»، وقد جاء هذا الاسم من التناوب Inrotarion تلك العبارة التى صاحبت الاجتماعات الأولى لأعضاء النادى، الذين كانوا يعقدونها فى مكاتبهم بشكل متناوب»[٤].

---

(١) مشيخة الأزهر، بيان للناس، ج٢ ص ٤٩.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

(٤) الندوة العالمية للشباب الإسلامى، الموسوعة الميسرة فى الأديان والمذاهب المعاصرة، ص: ٢٤٣.

ونوادى الروتارى تعد أعضاء فى مؤسسة الروتارى الدولية، ومقرها مدينة «افنسنون» بولاية «إلينوى» بالولايات المتحدة الأمريكية[1].

وتعد الجمعيات الروتارية إحدى الجمعيات السرية المتفرعة من الماسونية العالمية، التى عملت الصهيونية جاهدة على تكوينها وانتشارها فى العالم، وفى المجتمعات المسلمة، لخدمة أغراضها السياسية، وأهدافها الاقتصادية والدينية[2].
وهذه الجمعيات من أهم المؤسسات التى اعتمد عليها اليهود لتنفيذ أغراضهم. والوصول إلى أهدافهم[3].

ويرجع السبب فى ظهور جمعيات ونوادى الروتارى إلى: أن اليهود لما رأوا أن مخطط الماسونية فى العالم - وبخاصة العالم العربى والإسلامى - قد ظهرت نواياه الخبيثة فى تقويض الحالة السياسية، وتقويض العقائد، وهدم القيم والأخلاق، أرادوا أن يتستروا ويموهوا هذا المخطط الماسونى تحت اسم جمعيات الروتارى، وبثها فى العالم، وبخاصة العالم الإسلامى، بحجة أنها جمعيات كونت لأجل خدمة المجتمع والبيئة[4]، لذا تجد أن نادى الروتارى فى مصر، يوضح الغرض من إنشائه فى أمور أربعة:

١ - توسيع مدى التعارف، لإتاحة الفرصة للخدمة.

٢ - بلوغ مستوى أخلاقى سام فى الأعمال والمهن.

٣ - تمسك كل روتارى بمبدأ الخدمة فى حياته الشخصية العلمية والاجتماعية.

٤ - تعزيز روح التفاهم الدولى، والنية الصادقة، وحب السلام وذلك بتوثيق أواصر الزمالة فى العالم بين الروتاريين أصحاب الأعمال والمهن[5].

وهذه الأغراض فى شكلها وفى جملتها قد تغرى بالانضمام إلى هذه النوادى، أو على الأقل عدم التعرض لنشاطها، ما دام يستهدف تحقيق هذه الأغراض[6].

---

(١) مشيخة الأزهر، بيان للناس، ج ٢ ص ٥٠.

(٢) د. مبارك حسن حسين إسماعيل: «التيارات الفكرية والحركات المعاصرة». ص: ١٥١.

(٣) د. أحمد شلبى، اليهودية، مقارنة الأديان، ص: ٢٣١، ط: الانجلو المصرية، بالقاهرة، سنة: ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.

(٤) د. مبارك حسن حسين: «التيارات الفكرية»، ص: ١٥١، بتصرف.

(٥) مشيخة الأزهر، بيان للناس، ج: ٢، ص: ٥٠.

(٦) المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

والواقع أن أعداء الإسلام منذ القدم على اختلاف ألسنتهم وألوانهم أدركوا حقيقة: أن من العسير جداً أن يرتد المسلم عن دينه إلى دين آخر سواه، وأن محاولة ارتداده عن دينه يتطلب جهداً كبيراً وأموالاً طائلة، ووقتاً طويلاً دون أمل فى النتيجة. ومن ثم اكتفت جمعيات أعداء الإسلام بتضليل المسلمين، ودفعهم إلى الانحراف، والبعد عن الإسلام الصحيح[1].

ومن وسائل هذه الجمعيات: منهاج التمويه والتضليل، ولذلك يعدلون عن هدفهم الأساسى إلى أساليب مموهة، يخدعون الإنسانية بأن هدفهم الأساسى هو: خدمة الإنسان، والعمل على نفعه[2].

ومن المعلوم أن هناك صلة بين الروتارى وبين الماسونية أكدت هذه الصلة، الشعارات، والأقوال، والأفعال، ومن شواهد ذلك:

١ - أن شعار جميع الأعضاء هو: «الأديان تفرقنا، والروتارى يجمعنا»، وهو شعار الماسونية. وقد قرر مجلس إدارة الروتارى الدولى فى اجتماع سنة: ١٣٠٩هـ-١٩٤٠م/ ١٣١٠هـ-١٩٤١م: أن نوادى الروتارى تضم أعضاء من مختلف الأديان والمبادىء، ولكل أن يتمسك بعقيدته الدينية مع الاحترام الكامل لعقيدة الآخرين[3].

وتلقن نوادى الروتارى أفرادها قائمة بالأديان المعترف بها لديها على قدم المساواة، مرتبة حسب الترتيب الأبجدى: البوذية - المسيحية - الكونفوشيوسية - الهندوكية - اليهودية - المحمدية. وفى آخر القائمة: التاوزمية[4]، وهى: عقيدة

(١) د. مبارك حسن حسين: «التيارات الفكرية»، ص: ١٥٢.

(٢) المصدر السابق.

(٣) مشيخة الأزهر، بيان للناس، ج:٢، ص: ٥٠.

(٤) هى: دين صينى، أسسه فيلسوف اسمه «لاوتز» الذى ولد سنة: ٦٠٤ق.م. وتقوم هذه الديانة على مبدئين:
الأول: القانون السماوى الأعظم، وهو: أصل الحياة والنشاط والحركة لجميع الموجودات فى السماء والأرض، ولكنه ليس متعالياً على الموجودات، بل هو فيها نفسها، وهو ليس شخصاً، وليست له فردية منفصلة عن الأشياء التى هو سر حياتها ووجودها.
الثانى: الاستقبال، أى: أن الأشياء تتصل حياتها ونشاطها وشكلها ولونها بفضل الاستقبال، وهى بهذا قريبة الشبه بمذهب وحدة الوجود الذى يوحد الخالق والمخلوق.
- محمد سيد الكيلانى: «ذيل الملل والنحل للشهرستانى»، ج:٢، ص: ٢٦.

صينية وجدت فى القرن السادس قبل الميلاد، وهى تؤمن بأن تحقيق السعادة يتم بالاستجابة لمطالب الغرائز البشرية، وتسهيل العلاقات الاجتماعية والسياسية بين جميع البشر(١).

فأنت ترى: أن الروتارى وضع الأديان كلها فى مستوى واحد من الاحترام، بصرف النظر عما هو سماوى أو أرضى، وفى ذلك - كما يقال: غسل القلوب تمهيداً لغرس ما يراد فيها مما تخطط له الماسونية من سيطرة الدين اليهودى، وأفكار التلمود التى استغنوا بها عن التوراة.

٢ - أن المجموعة الأولى التى اشتركت مع «بول هاريس» فى تأسيس الروتارى، كانت أعضاء فى المحافل الماسونية، بل إنه فى بعض الحالات قصرت عضوية النادى على الماسون فقط، مثل: نادى «أدنبرة» فى بريطانيا، سنة: ١٣٣٩هـ-١٩٢١م.

٣ - أن بعض الجمعيات والتنظيمات الحديثة التى دخلت المحيط الإسلامى ظهر أن لها صلة قوية فى تنظيمات غربية تستهدف مصالح الغرب، وبخاصة اليهود، كجمعية «أصدقاء الشرق الأوسط الأمريكية» التى يعمل «هوبكنز» «نائباً لرئيسها. وقد كان قسيساً ومنتسباً لطائفة خطيرة، وله نشاط واسع فى السياسة، لصالح أمريكا وبريطانيا(٢).

فأندية الروتارى: أنشطة علنية تؤدى مهامها، وبعض هذه المهمات تحت ستار الإخاء الإنسانى، وهى أندية منبثة ومنتشرة فى أغلب العواصم والمدن الكبرى، وأهدافها الظاهرية - كما يقولون - هى النظر فى الشئون الاجتماعية والاقتصادية بإلقاء المحاضرات والخطب، والعمل على التقارب بين أتباع الأديان المختلفة، والبلدان المتعددة(٣).

أما الغرض الحقيقى، فهو أن يمتزج اليهود بالشعوب الأخرى باسم الإخاء والود. ثم يحاول - عن هذا الطريق - أن يصلوا إلى جمع المعلومات التى تساهم

(١) الندوة العالمية للشباب الإسلامى، الموسوعة الميسرة فى الأديان والمذاهب المعاصرة، ص: ٢٤٤.
(٢) مشيخة الأزهر، بيان للناس، ج:٢ ص: ٥١.
(٣) د. على عبدالحليم محمود: «الغزو الفكرى»، ص: ١٧٠.

فى تحقيق أغراضهم، اقتصادية كانت أو صناعية أو سياسية[1]. ولقد فطن الفاتيكان - أيضاً - إلى خطر هذه الأندية المسماة «الروتارى». فصدر مرسوم من المجلس الأعلى المقدس - كما يزعمون - فى ٢١ من شهر ربيع الأول سنة ١٣٧٠هـ- ٢٠ ديسمبر، سنة ١٩٥٠م، قرر فيه الكرادلة ما يأتى: دفاعاً عن العقيدة، وعن الفضيلة تقرر عدم السماح لرجال الدين بالانتساب إلى الهيئة المسماة بنادى الروتارى، وعدم الاشتراك فى اجتماعاتها، وأن غير رجال الدين يطالبون بمراعاة المرسوم ذى الرقم: ٨٦٤ الخاص بالجمعيات السرية والمشتبه فيها[2].

ولما كانت أندية الروتارى تدرك أن أبوابها ليست مفتوحة لكل من يريد الاشتراك فيها ضماناً على سير مخططاتها، وحفاظاً على قراراتها وتنظيماتها، ولذلك تسعى هذه الأندية لتختار أحد نوعين من الناس:

الأول: المشاهير فى المجتمع، والذين لهم صوت مسموع ومراكز عالية فى المجتمع، والذين لا تتحوم حولهم الشبهات، ويتمتعون بحسن السمعة والشهرة، وهؤلاء يكونون الدرجة الأولى فى أندية الروتارى، ويتمتعون بالحفلات والرحلات، وكل مظاهر الرفاهية الاجتماعية، والإخاء الإنسانى.

ووظيفة هذا النوع من الناس ضمان سلامة الأندية، وإبعاد الشبهات عنها، لحساسية مراكزهم فى المجتمع، وبما لهم من تأثير قوى على أجهزة الحكم فى دولتهم، ومن جانب آخر: أن يكون قدوة للتأثير على الناس للدخول فى هذه الجمعيات، لينضموا فى أنديتها، ويكونوا فى صفوفها.

الثانى: جماعات لهم حب الظهور، وحب البحث عن الشهرة، ويكون عندهم الاستعداد النفسى والعقلى والجسمى، للتفانى فى خدمة العمل الروتارى[3].

وإن الباحث فى التاريخ وكتب العقائد والديانات - قديمها وحديثها - يجد علاقة قوية بين دعوى الروتارية، والقرامطة الباطنية الذين حاربوا العالم

---

(١) المصدر السابق.

(٢) د. أحمد شلبى: «اليهودية، مقارنة الأديان»، ص: ٣٢٨.

(٣) د. مبارك حسن حسين: «التيارات الفكرية»، ص: ١٥٧.

الإسلامى، وكانوا السبب الحقيقى فى إضعافه سياسياً، وعقدياً، واقتصادياً، وأخلاقياً، ومن أبرز النقاط التى يلتقون فيها مع القرامطة «الباطنية» نقطتان:

الأولى: شروط القبول فى الجمعيات الروتارية، والتنظيم القرامطى الباطنى: إذ كان القرامطة لا يقبلون من يريد الانضمام إلى صفوفهم، إلا الأشخاص الذين تجرى الاختبارات لهم، ووضعهم تحت الرقابة مدة طويلة(١)، وكذلك هى نفس شروط الروتارى سواء بسواء(٢).

الثانية: العمل السرى فى القرامطة، وفى مؤسسات الروتارى، واتجاهاته واحدة، فكلمة «قرمط» معناها: «العلم السرى» كما يقول «فيليب حتى»(٣).

وكذلك القسم الذى من يريد الدخول فى جماعات الروتارى سرى للغاية(٤).

وتسلك الروتارية طريقة التدريج بالنسبة للأفراد الذين وقع عليهم الاختيار للدخول فى هذه المؤسسات، وهى نفس الطريقة التى سلكتها الباطنية من قبلهم سواء بسواء(٥).

وعند دخول الأشخاص لأول مرة، تعمل لهم الحفلات، وتقدم لهم ألوان من الغذاء والعشاء والمشروبات من كل ما تشتهى الأنفس، وتلذ الأعين، وتقدم لهم المسرحيات ذات الطابع الإنحلالى على هيئة ترفيه وترويح عن النفس، وفى أثناء ذلك تكون هناك العيون الروتارية الخبيثة تراقب وتفحص وتختبر، لتلتقط من بين هؤلاء الأشخاص الذين تتوافر فيهم الشروط الآتية:

١ - التسامح الدينى، وفى الحقيقة هى: دعوى إلى الإلحاد والفتور الدينى والعقدى، وعدم التحمس لإقامة الشعائر الدينية والاهتمام بها.

٢ - فقدان الولاء الوطنى، بمعنى: أن الإنسان يفقد وطنيته، ويضعف حماسه لوطنه.

---

(١) الأسفراييني: «التبصير فى الدين»، ص: ١٩٨.

(٢) د. أحمد شلبى: «موسوعة التاريخ الإسلامى»، ج:٧، ص: ٤٢، بتصرف.

(٣) فيليب حتى: «تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين»، ج:٢، ص: ١٨٩، ط: دار الجيل، بيروت، سنة ١٣٧٧هـ-١٩٥٨م.

(٤) د. مبارك حسن حسين: «التيارات الفكرية»، ص: ١٦٢.

(٥) الإمام الغزالى: «فضائح الباطنية»، ص: ٢١.

٣ - الشخصية والنفوذ اللذين يتمتع بهما العضو، وقد يكون النفوذ عن طريق مقدرته على بث الشائعات الضارة بالمجتمع، والقدرة على الكتابة فى المجلات، والتأثير على الآخرين[١].

ولمن تتوافر فيه هذه الشروط، تتدرج به الروتارية إلى مرحلة أعلى ومنزلة أرفع مما قبلها، وتقدم له المعونات المادية، مما يشجعه على الاستمرار فى حبال هذه الجمعيات التى تعمل على المزيد من انسلاخه من دينه ووطنيته، والإيحاء إليه بألفاظ خداعة، فإذا لمسوا فى هذا الشخص الانسجام لهذه المبادىء، نقل إلى درجة أعلى يشبع فيها رغباته وشهواته المادية، وانفعالاته المعنوية، ويصل أخيراً إلى المرحلة التى يصبح فيها أداة طيعة فى أيدى قادة هذه المؤسسات[٢].

والباحث فى أهداف الجمعيات الروتارية يجد أن لها هدفان: هدف ظاهر، وهدف خفى، أما الهدف الظاهر، فهو: النظر فى الشئون الاجتماعية والاقتصادية، ومساعدة المحتاجين، وإعانة ذوى العاهات والعجزة عن العمل، وتقديم العون المادى للمجتمعات النصرانية والإسلامية على السواء.

وقد بلغ الدهاء فى جمعيات الروتارى: أن تغلغلت فى كثير من البلاد المسلمة، ووصل بها الأمر: أن قدمت العون المادى لأبناء جامعة الأزهر، فى صورة تقديم أدوات ووسائل تعاون وتساعد الطلبة المكفوفين على تسجيل المحاضرات عن طريق تقديم العون لهم بشراء أجهزة التسجيل على نفقتها الخاصة، وفات على المسئولين بجامعة الأزهر: أنها - فى الحقيقة - مخططات خطيرة تؤدى وتلعب فى التأثير على طلاب الأزهر، للاستيلاء على خواطرهم، وتحبيبهم فى هذه الجمعيات، حتى لا يقاوموها، أو يقفوا فى وجهها[٣].

ومما يحكى أن الكاتب المصرى أنيس منصور انضم لأندية الروتارى وظل عشر سنوات فى داخل الإطار الروتارى، ولم يعرف عن الروتاريين شيئاً.

وصرح يوماً: «اشتركت على سبيل العلم بالشىء فى إحدى جماعات

(١) د. مبارك حسن حسين: «التيارات الفكرية»، ص: ١٦٤، بتصرف.
(٢) المصدر السابق، الصفحة نفسها.
(٣) المصدر السابق، ص: ١٥٤.

الروتارى منذ أكثر من عشر سنوات، وكان اشتراكى نتيجة لضغط شديد من الأصدقاء، قالوا لى: تعالى وتفرج لكى تزداد معلوماتك ومعارفك بدلاً من أن تدفن رأسك وحياتك كلها فى الكتب، يا أخى أنت درت حول الأرض شرقاً وغرباً وسوف يأتى العالم كله إليك، هيا اشترك، وذهبت واشتركت، وفى اليوم الأول كان حفل غداء، والغداء أهم حدث أسبوعى فى جمعيات الروتارى وفى أثناء الغداء أو بعده، كان يقال لنا: جاءنا مستر «كوكو ماكوكو» من اليابان، وهو عضو الروتارى المركزى فى طوكيو، ويحمل إليكم تحيات السيد «أكوماكو» الرئيس الفخرى، ويتعالى التصفيق. ثم يتبادل الزائر اليابانى ورئيس الروتارى المصرى الأعلام.

ومع التصفيق يجلس الزائر، لنسمع عن زائر آخر جاء من الهند، ويحمل تحيات الهنود، وزائر ثالث من أمريكا. وهكذا غداء وتصفيق، وإعلام وأعلام، ولا شيء بعد هذا»[1].

إن الواقع - إن صحت هذه المهزلة التى حكاها أنيس منصور - يبرهن على أن هذه الجمعيات لها تعاليم خبيثة وخفية لا تمنح ولا تعطى إلا لمن يثقون فيه، ويتأكدون من استمراره فى هذه الجمعيات.

ولا يخفى أن هذه الجمعيات المشبوهة من أشد الجمعيات خطراً وخبثاً فى طريق الإسلام، إذاً أنها تعمل على صرف الناس عن الدين والدعوة إليه وإسقاطهم للتمرغ فى الوحل والضياع.

---

(١) أنيس منصور (مواقف)، مقال بجريدة الأخبار المصرية، الصادرة فى ٢٨ من شهر ربيع الآخر، سنة ١٣٩٣هـ الموافق ٣٠ مايو سنة ١٩٧٣م.

العلمانيــــة

العلمانية - بفتح العين - نسبة غير صحيحة إلى العالم[1]. والمعنى ما يقابل روحية كهنوتية، أو ما يقابل دينية بوجه عام، والمقصود به أن يتولى قيادة الدولة والحكم، وأجهزته ومؤسساته وخدماته: رجال زمنيون لا يستمدون خططهم وأساليبهم فى الحكم والإدارة والتشريع من الدين[2]. وإنما يستمدون ذلك من خبرتهم البشرية فى الإدارة والقانون، وأساليب العيش، وتكون الروح العامة التى توجه الدولة والمجتمع فى مؤسساته الثقافية والسياسية والتشريعية روحاً غير دينية[3].

وفى مقابل ذلك يتولى قيادة الدولة والحكم رجال يستمدون خططهم وأساليبهم فى الحكم من عدة مصادر، من جملتها: الدين، وتكون الروح العامة التى توجه الدولة والمجتمع ومؤسساتهما ذات منابع دينية أو متأثرة بالدين[4].

وقد ينحرف بعض المفكرين فى فهم العلمانية، فيجعلها نسبة إلى العلم، وهو خطأ، لأن مفهوم العلمانية بنسبتها إلى العالم يعنى: توجيه الاهتمام إلى ما يتعلق بالحياة الدنيا، وإسقاط الاهتمام بالحياة الآخرة، وبعبارة أشمل وأدق: تعنى إما مجرد استبعاد الدين من توجيه شئون الحياة الدنيا فى السياسة والاقتصاد

(١) د. يحيى هاشم حسن فرغل: «حقيقة العلمانية بين الخرافة والتخريب»، ص: ٧، ط: دار الصابونى، بالقاهرة، سنة: ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

(٢) د. محمد يحيى: «ورقة ثقافية فى الرد على العلمانيين»، ص: ٧١، ط: الأولى، مؤسسة الزهراء للإعلام العربى، بالقاهرة، سنة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

(٣) د. روجيه جارودى: «ماركسية العشرين»، ص: ١٤٤، ترجمة: نزيه حكيم، ط: الأولى، دار الآداب، بيروت، سنة: ١٣٩٢هـ-١٩٧٢م.

(٤) محمد مهدى شمس الدين: «حول العلمانية»، مقال بمجلة (الهادى)، العدد: الثانى، السنة: الخامسة، ص: ٩٧، سنة: ١٣٨٠هـ-١٩٦٠م، بيروت، لبنان.

والعلم والأخلاق والتربية. وإما أنها تعنى: إسقاط الدين بالكلية، واعتباره أفيوناً للشعوب يخدرها عن الاهتمام بحياتها التى لا حياة بعدها[1].

هذا ولما كانت العلمانية بمفهوم الاستبعاد أو بمفهوم الإسقاط تنفى الدين من مجال التأثير فى توجيه شئون الحياة الدنيا، فإنها بحسب الظروف والدعاوى التى نشأت فى ظلها تستدعى العلم، ليقوم بهذا التأثير. وهذا هو عذر المخطئين فى الخلط بين مفهوم العلمانية ومفهوم العلم، وهو فى نفس الوقت: خطأ المعتدلين عن استبعاد الدين باستدعاء العلم، لأن العلم بطبيعته أداة للتنفيذ، وليس مرجعاً للتوجيه[2].

وإذا بحثنا عن الأسباب التى أدت إلى ظهور العلمانية، نجد أن التاريخ يقول لنا: أنه من الأساس اعترفت النصرانية بوجود سلطتين: سلطة الله، وسلطة قيصر، وذلك فى الجواب المشهور المنسوب إلى عيسى - عليه السلام - رداً على السؤال الذى وجهه إليه اليهود حول ولائه السياسى[3]. وقد غلب جانب الكنيسة منذ بدايات العصور الوسطى المسيحية على جميع جوانب الحياة السياسية والثقافية والاجتماعية فى أوروبا بشكل خاص، وفى جميع العالم المسيحى بوجه عام. فكانت الكنيسة طيلة فترة العصور الوسطى المسيحية بصورة مباشرة أو غير مباشرة تكاد أن تكون صاحبة السلطان المطلق على كل شيء، فلها بكونها مؤسسة دينية سلطان مطلق على روح الفرد وعقله. كما أن لها لهذا الاعتبار نفسه سلطان على الأسرة من حيث نشأتها وصيرورتها، وحلها، ولها من حيث أنها تمثل سلطان الله على الأرض: سلطة على المجتمع ومؤسساته السياسية المتمثلة فى الدولة والإمارات الإقطاعية[4].

---

(١) د. يحيى هاشم فرغل: «حقيقة العلمانية»، ص: ٧، د. محمد البهى: «العلمانية والإسلام بين الفكر والتطبيق»، ص: ٣، ط: مجلة (الفكر الإسلامى) ببيروت، محاضرة ألقيت بدار الفتوى، ٢ من شهر ربيع الآخر، سنة: ١٣٩١هـ - ٢٧ مايو، سنة: ١٩٧١م.

(٢) د. يحيى هاشم فرغل: «حقيقة العلمانية»، ص: ٨، باختصار وتصرف.

(٣) إنجيل متى، إصحاح (٢٢)، فقرة (٢١).

(٤) محمد قطب: «العلمانية»، ص: ٢-٣، محاضرة ألقيت بقسم الثقافة الإسلامية فى كلية الشريعة بالرياض، البرنامج العام، العام الدراسى: ١٣٩٩هـ-١٤٠٠هـ.

- محمد مهدى شمس الدين: «حول العلمانية»، ص: ٨٣-٨٤.

وقد حدثت فى نهاية العصور الوسطى المسيحية فى أوروبا بعض المتغيرات الكبرى، التى أدت إلى إحداث بعض الاهتزاز على نظام العلاقات، الذى كانت الكنيسة تحتل قمته العليا. ومن هذه المتغيرات السياسية الدولية: دخول العثمانيين إلى القسطنطينية، سنة ٨٥٧هـ-١٤٥٣م. والنشاط المالى بنمو التجارة، وتبادل السلع والمنتجات بين الأمارات الإقطاعية داخل كل دولة، وبين الدول نفسها، وحقل العلوم بإنجاز بعض الاكتشافات المهمة فى الفلك، والجغرافيا وغيرهما، والآداب بإحياء التراث اليونانى والرومانى القديم. هذه المتغيرات فى حقول السياسة والعلم والمال والفن أدخلت - كما قلنا - بعض الاهتزاز على نظام العلاقات الذى ظل سائداً طيلة العصور الوسطى النصرانية، وأدت إلى طرح أسئلة أساسية حول عدالة الوضع القائم. وبدأت الكارثة حين تبين أن الكنيسة لم تكن مؤهلة لاستيعاب المتغيرات الجديدة، والتكيف معها[١]. فحصل نزاع على السلطة بين رجال الكنيسة وبين رجال الحكومة المدنية، انتهى هذا النزاع إلى فصل سلطة الكنيسة عن الحياة المدنية ونظام الحكم، حيث كان للدولة مجال، وللكنيسة مجال[٢]. فحصل صراع بين الكنيسة من جهة والقوى الجديدة فى حقول السياسة والعلم والاجتماع والتجارة وغيرها من حقول الحياة[٣].

وبعض المؤرخين يعزون أسباب ظهور العلمانية إلى مدى قصور المفاهيم الدينية النصرانية فى المجتمع الأوروبى عن مجاراة النهضة العلمية التى حدثت فى بداية القرن السابع عشر الميلادى.

وهناك من يعزو أسباب ظهورها إلى ما كانت تهدف إليه الماسونية والمخططات الصهيونية، والثورة الفرنسية من تحطيم القوائم التى شكلتها النصرانية والكنيسة، للوقوف فى وجه اليهود، وصد نشاطهم فى المجتمعات الأوروبية والأمريكية، إذ أفسدوا الحياة فى أمريكا على وجه الخصوص، ودمروا

---

(١) محمد مهدى شمس الدين: «حول العلمانية»، ص: ٨٥.

(٢) د. مبارك حسن حسين: «التيارات الفكرية والحياة المعاصرة»، ص: ١٧٠، ط: دار الطباعة المحمدية بالقاهرة، سنة: ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

(٣) محمد قطب: «العلمانية».

الأخلاق والقيم باحتكار تجارة الخمور والبغاء، والأزياء الماجنة، والأشرطة الوضيعة، والمسرحيات البذيئة. والآداب الساقطة عبر مخطط مدروس ومنظم. هذا فضلاً عن إفساد الحياة السياسية والتلاعب البشع بالعالم ككل، وبالأسعار والأسواق، وامتصاص الفوائد الربوية الباهظة، والتآمر على الحكومات والشعوب؛ إذ هدفهم الأساسى: تحطيم العالم فى عقائده، وأخلاقه وروابطه، حتى يتمكنوا من القفز إلى السلطة العالمية بلا مقاومة[1]. ولم يروا سبيلاً لتطبيق صهيونيتهم ومخططاتهم إلا عن طريق الدعوة العلمانية، أى: الفصل بين الدين والدولة؛ وبذلك يستطيع اليهود أن يبثوا نشاطهم فى المجتمعات الأوروبية وغيرها من المجتمعات النصرانية، ويأخذوا مكانتهم فيها[2].

ومن خلال ما سبق من سطور، يتبين: أن الدعوة العلمانية كان لها أبعد الأثر فى الفكر الغربى؛ إذ سادته عوامل أربعة مهمة، هى:

١ - نظام الاقتصاد القائم على الربا.

٢ - القانون الوضعى المنفصل عن شرائع الله - سبحانه وتعالى -.

٣ - التعليم اللا دينى المتحرر من نفوذ الكنيسة المتسلطة.

٤ - ما يسمونه بالديمقراطية التى تحل الإيمان بالدولة محل الإيمان بالعقيدة[3].

والعلمانية أولاً وأخيراً - كما دلتنا البحوث - : عبارة عن أمرين متكاملين، لا تكون الدولة علمانية بدونهما. هما:

الأول: مصدر الشرعية فى السلطة السياسية.

الثانى: التشريع الدستورى والقانونى فى الدولة.

فبالنسبة للأمر الأول: تعنى العلمانية أن الشرعية التى تخول السلطة السياسية أن تحكم المجتمع وتسيره وفقاً لمفاهيمها وخططها غير المستمدة من الدين، فالله

---

(١) د. عبدالستار فتح الله سعيد: «معركة الوجود بين القرآن والتلمود، دراسة علمية قرآنية»، ص: ٤٧-٤٨، ط: دار النصر للطباعة الإسلامية بمصر.

(٢) أنور الجندى: «سقوط العلمانية»، ص: ١٧، ط: دار الاعتصام، بالقاهرة، سنة: ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م.

(٣) أبو الأعلى المودودى: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر»، ص: ١٢٦-١٢٨، ط: دار الخلافة، بالقاهرة، بتصرف واختصار.

-سبحانه وتعالى- أو الدين ليس مصدراً للشرعية التى تتمتع بها السلطة السياسية فى الدولة العثمانية، ولا تتوقف شرعية السلطة السياسية على أن تنال اعترافاً بها من السلطة الدينية[١].

وبالنسبة للأمر الثانى: تعنى العلمانية لدى دعاتها: أن يقوم التشريع القانونى والدستورى فى المجتمع والدولة، على أساس غير دينى، ويشمل ذلك كل مجالات التشريع والحياة[٢].

وبجانب نفوذ الشرق والغرب فى العالم الإسلامى، نجد أن سماسرة العلمانية يروجون لها فى البلاد الإسلامية بمجموعة من الخرافات:

الأولى: أنها سر التقدم فى أوروبا.

الثانية: أنها الأسلوب الوحيد لتحرير العلم من الدين.

الثالثة: أن الإسلام الحاكم للحياة الدنيا قضية مرفوضة أساساً، وأنه أى الإسلام - الحاكم أثبت فشله فى التطبيق.

الرابعة: أن العلمانية لا تتعارض مع الإسلام[٣].

وكل هذه الخرافات لا واقع لها، ولكنها جاءت على ألسنة سماسرة الإلحاد والعلمانية والتخريب. وليس من شأنى أن أعرض لهذه الخرافات أو أرد عليها، وما كانت الخرافات يوماً تستحق المواجهة لولا أن لهذه الخرافات سماسرة وذيولاً.

ومنذ مطلع القرن التاسع عشر الميلادى والاحتلال يفرض إرادته على العالم الإسلامى عن طريق القوة، والغزو الفكرى والثقافى[٤]. وقد بدأت باكورة الغزو الثقافى فى العالم الإسلامى بإقصاء المنهاج الإسلامى فى الشريعة والاقتصاد والتعليم، وإحلال منهاج علمانى بديلاً عنه. وقد بدا هذا واضحاً فى محاولات فرض القانون الوضعى بديلاً للشريعة الإسلامية، وظهرت هذه المؤامرة فى إلغاء

(١) محمد مهدى شمس الدين: حول العلمانية، ص: ٨١، بتصرف.

(٢) المصدر السابق، بتصرف.

(٣) د. يحيى هاشم فرغل: «حقيقة العلمانية»، ص: ٨.

(٤) حسن أحمد أمين: «دليل المسلم الحزين»، ص: ٤-٥، ط: الثالثة، مكتبة مدبولى بالقاهرة، سنة: ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

المحاكم الشرعية من بعض الدول المسلمة: مثل: المغرب العربى ومصر والسودان وسوريا، وغيرها، كذلك ظهرت بوادر العلمانية فى العالم الإسلامى بإنشاء الإرساليات التنصيرية، والسيطرة على مناهج المدارس الوطنية، وتغيير مناهجها من دراسة القرآن الكريم وعلوم العقيدة، إلى دراسة اللغات الأجنبية بطريقة تحبب العربى والمسلم فيها، وتنفره من اللغة العربية، وعلوم الشريعة الإسلامية[1].

وإن الباحث فى أمر العلمانية: يجد أن تركيا هى الدولة المسلمة فى الشرق التى أعلنت العلمانية الغربية أساساً لسياستها، منذ تولى مصطفى كمال أتاتورك السلطة فيها، وذلك بعد الحرب العالمية الأولى.

والواقع أن تركيا فى قبولها للعلمانية كانت مجبرة. وقصد الحلفاء الغربيون من إعلان تركيا العلمانية، وفصل الإسلام عن الدولة، وهى مركز الخلافة الإسلامية أمرين:

الأمر الأول: إلغاء الخلافة الإسلامية كأداة تجميع للمسلمين، عرب وعجم، على السواء، فى آسيا وإفريقيا، إذ سيترتب على إلغاء الخلافة: إمكان تمزيق المسلمين إلى عرب ينطقون بالعربية، وغير عرب ينطقون بلغاتهم الوطنية، وعندئذ يمكن المناداة بالقومية العربية لتوسيع الهوة بين المسلمين، ثم لكى لا تكون للقومية العربية فاعلية بعد عزل العرب عن غيرهم من المسلمين[2].

الأمر الثانى: الذى قصده الحلفاء المنتصرون فى الحرب العالمية الأولى.

- وهم أصحاب العلمانية الغربية - من إعلان تركيا للعلمانية، عزلها عن التراث الإسلامى، حتى تكون أجيالها القادمة فى بعد عن الصلة بالإسلام، وعن العرب معاً، وبذلك تصبح تركيا المسلمة قريبة من الغرب فى ميوله واتجاهاته. ولكى يتم التحول عن الإسلام كانت كتابة اللغة التركية بحروف لاتينية بدلاً من الحروف العربية[3].

---

(١) د. سامى عزيز: «الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الإنجليزى»، ص: ٢٢٤، ط: دار الكتاب العربى، القاهرة، سنة: ١٣٨٨هـ-١٩٦٨م.

- أنور الجندى: «أصالة الفكر العربى الإسلامى»، ص: ٢٥، ط: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، بالقاهرة.

(٢) د. محمد البهى: «العلمانية والإسلام»، ص: ٦٦، مجلة (الفكر الإسلامى)، بيروت.

(٣) د. محمد البهى: «العلمانية والإسلام»، ص: ٦٧.

والتقدم الصناعى والعلمى فى تركيا العلمانية لم يكن بسبب الفصل بين الدين والدولة، أى: لم يكن بسبب إبعاد الإسلام عن شئون الدولة وما تجر إليه مبادئه - كما يقال ويدعى - من التخلف، وإنما كان مكافأة من الغرب والشرق على السواء، على إبعادها للإسلام، فكان بسبب المساعدات الأجنبية التى قدمت لتركيا من جانب الاتحاد السوفيتى، والولايات المتحدة الأمريكية على الخصوص من الغرب، وهى مساعدات اقتصادية وفنية وعلمية، لتتحول إلى نموذج بين البلاد الإسلامية[1].

ولا يخفى على باحث أن خطط الاحتلال أو ما يسمونه بالاستعمار والمذاهب الهدامة مهدت إلى تقبل الفكر العلمانى، ثم الإيمان به. وقد شهدت المجتمعات المسلمة أعنف موجة ثقافية تعمل للإنسلاخ الكامل عن الإسلام، وقد تزعمها المثقفون المتفرنجون الذين تربوا تربية أوروبية، وتثقفوا بالثقافة الغربية فى معاهد العلم الإنجليزى والفرنسى. وكان من الطبيعى أن يعود هؤلاء الشباب بعد تعليمهم فى فرنسا وانجلترا بآراء حديثة تتمثل فى التحرر الفكرى، والتحرر الاقتصادى، وتتجه بأنظارها إلى هذه الدول الأوروبية كمثل أعلى، تحاول تقليده، وأكملت هذه المجموعة من الجيل الناشىء مجهودات بعثات التبشير، والبعثات العلمانية التى كانت تعمل فى البلاد[2].

ويمكن أن نلمس هذا الإعجاب والتقليد بالغرب عند رفاعة رافع الطهطاوى، فكل ما كتبه هو صدى لتفكير أوروبا، وبخاصة فرنسا، وأفكاره لأول مرة تظهر فى المجتمع المسلم، وربما رددها عن حسن قصد، دون أن يسبر أغوارها، ولكنه على كل حال قد وضع البذور للأخذ بنظم الغرب العلمانية، ثم تعهد هذه من جاء بعده بالسقى والرعاية، حتى نمت وضربت جذورها فى الأرض[3].

---

(١) د. يحيى هاشم فرغل: «حقيقة العلمانية»، ص: ٢٩٤.

(٢) د. السيد أحمد فرج: «جذور العلمانية»، ص: ٧١-٧٢، ط: دار الوفاء، بالمنصورة، سنة: ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

(٣) د. محمد محمد حسين: «الإسلام والحضارة الغربية»، ص: ١٨-١٩، ط: الخامسة، مؤسسة الرسالة، بيروت، سنة: ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.

فلأول مرة فى البيئة المسلمة نجد كلاماً عن الوطن والوطنية، وحب الوطن بالمعنى القومى الحديث فى أوروبا، ولأول مرة نجد كلاماً عن الحرية بوصفها الأساس فى نهضة أية أمة وفى تقدمها(١). ثم نرى بعد ذلك كلاماً كثيراً عن المرأة، لا شك فيه أنه من وحى الحياة الاجتماعية الأوروبية، مثل: تعليم البنات، ومنع تعدد الزوجات، واختلاط الجنسين(٢).

ومن هذه الطبقة كذلك: منصور فهمى، وكذلك على عبدالرازق الخريج الأزهرى، والقاضى الشرعى، وذلك بإصداره كتاب «الإسلام وأصول الحكم» والذى طرح فيه قضية العلمانية للمرة الأولى فى صميم الفكر الإسلامى حين أنكر أن تكون الخلافة، أو القضاء، أو وظائف الحكم، ومراكز الدولة جميعاً من الدين فى شيء، ووصفها بأنها: خطط دنيوية صرفة، لا شأن للدين بها، فهو لم يعرفها، ولم ينكرها، ولا أمر بها، ولا نهى عنها، وإنما تركها لنا لنرجع فيها إلى أحكام العقل، وتجارب الأمم وقواعد السياسة، وحاول أن يصل إلى هذه النتيجة من كل طريق(٣).

وكتابه هذا: جل مادته من كتب الإفرنج التى كتبوها فى الخلافة، ومن العجيب أن تكون مادته ما ذكر فى مثل كتاب «الأغانى»، و«العقد الفريد»، ولم يكن من مراجعه شيء من صحيح البخارى، وصحيح مسلم، ولا موطأ مالك، ولا مسند أحمد، ولا غيرها من كتب يعول عليها، وهو فى مجمله: مخالف لما لا يحصى من النصوص القطعية المجمع عليها، والمعلومة من الدين بالضرورة(٤).

وفى سنة ١٣٤٤هـ-١٩٢٦م: كتب إسماعيل مظهر- من رجال ودعاة العلمانية بمصر - يدعو إلى نقض العقلية المسلمة، وإحلال العقلية الأوروبية

---

(١) د. محمود فهمى حجازى: «أصول الفكر العربى الحديث عن الطهطاوى»، ص: ٦٤-٦٥، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة: ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م.

(٢) المصدر السابق، ص: ٧٩.

(٣) د. محمد محمد حسين: «الاتجاهات الوطنية فى الآداب المعاصرة»، ج:٢، ص: ٨٢-٨٣، ط: مكتبة الآداب.
- د. محمد جابر الأنصارى: «تحولات الفكر والسياسة فى الشرق العربى»، ص: ٢١، ط: الأولى، الكويت.

(٤) أنور الجندى: «الإسلامية نظام مجتمع ومنهاج حياة»، ص: ١١٣-١١٤، ط: دار الاعتصام، بالقاهرة، سنة ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م، الناشر: دار النصر للطباعة الإسلامية.

العلمانية، ويقول: إننى أتوقع ذلك وعسى أن يكون قريباً، لنخرج من ظلمات الإسلام وأسلوبه الغيبى إلى الأسلوب الغربى اليقينى(١).

والدكتور زكى نجيب محمود له مقال أسماه: «ردة فى عالم المرأة»(٢) يهاجم فيه المرأة المسلمة، ويهاجم الدين والمتدينين(٣)، ويدعو فيه المرأة المسلمة إلى خلع الحجاب، وإلقائه فى البحر، بل إغراقه فى اليم، ليصبح نسياً منسياً، كما يدعو المرأة المسلمة إلى محاكاة المرأة الغربية فى كل ما تأتى وما تذر.

فالقضية إذن ليست تشكيك وشبهات، بل سلخ ونهب وعلمنة واجتثاث، ثم محاولة للإذابة فى كيان آخر وثقافة مغايرة، هى: العلمانية التى يرون أنها الأحدث والأرقى(٤).

فاستطاع المستعمرون أن يكونوا من العناصر الضعيفة الإيمان قوى منظمة بعضها أحزاب سياسية، وبعضها اتجاهات فكرية تربت على عين المحتل الحاقد وسمعه، وحشيت أذهانها بما أملاه أعداء الإسلام، وظل الشعور بالنقص والتبعية للغرب هو إحساسها الدائم(٥).

واختير من تلك القوى أفراد قدر المحتل أنهم أفضل المطايا له، فصنع لهم بطولات ضخمة، وأثار حولهم الغبار الكثيف، حتى خيل للأمة أن على أيديهم مفتاح نهضتها وبناء مجدها، فطأطأت لهم الرأس، حتى إذا تمكنوا منها أنزلوا بها من الذل والدمار وخراب العقيدة ما لم تذقه على يد أسيادهم(٦).

وبهذا نجحت خطة المحتلين الكفرة والمنصرين فى فصل السلطة الدينية عن السلطة السياسية، دون جلبة ولا ضوضاء(٧).

---

(١) إسماعيل مظهر: «تاريخ الفكر العربى»، ص: ١١٥، ط: الأولى، القاهرة.

(٢) نشر هذا المقال بجريدة «الأهرام»، العدد الصادر فى ٩ رجب، سنة ١٤٠٤هـ- الموافق ٩ أبريل، سنة ١٩٨٤م ص٤.

(٣) د. عبدالحى الفرماوى: «صحوة فى عالم المرأة»، ص: ٣، ط: مكتبة التراث الإسلامى.

(٤) د. حسان محمد حسان: «وسائل مقاومة الغزو الفكرى»، ص: ٥٦، ط: رابطة العالم الإسلامى، بمكة المكرمة، سنة: ١٤٠١هـ-١٩٨١م.

(٥) د. سفر بن عبدالرحمن الحوالى: «العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها فى الحياة الإسلامية المعاصرة»، ص: ٥٤٢، ط: دار مكة، سنة ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.

(٦) المصدر السابق.

(٧) د. السيد أحمد فرج: «جذور العلمانية»، ص: ٤٤.

وقد بلغت هذه الخطة أقصى مداها على يد «كرومر» فى مصر، ولأن مصر أكبر الدول المسلمة العربية، فقد كان تأثيرها بالتالى كبيراً على الأمة الإسلامية، ساعد على ذلك رغبة مستترة من هذه الأمم المغلوبة فى تقليد الأمم الأوروبية الغالبة، وهو تقليد جرهم إلى الإعجاب بالأوربيين والاستكانة لهم، والرضا بسلطتهم عليهم[١].

وقد ظهرت أمارات المنهاج العلمانى فى البلاد العربية والإسلامية من خلال النظم السياسية السائدة فى العالم العربى والإسلامى، وهو المنهاج الذى يقوم على أساس إنشاء برلمان ودستور وأحزاب، كما هو حاصل وواقع فى معظم البلدان العربية والإسلامية[٢].

وإن الباحث فى مؤامرات العلمانيين العملية، يجد أنها تتلخص فى هذه النقاط:

- الطعن فى حقيقة الإسلام وحقيقة القرآن الكريم والنبوة.
- القول بأن الإسلام استنفد أغراضه.
- القول بأن الإسلام طقوس وشعائر روحية، أو على أحسن الأحوال دين بالمفهوم الغربى الضيق.
- القول بأن الفقه الإسلامى مأخوذ من القانون الرومانى.
- الإدعاء بأن الشريعة الإسلامية لا تتلاءم مع الحضارة.
- الدعوة إلى نبذ اللغة العربية، وهجر حروفها وأساليبها.
- إثارة ما يسمى بقضية تحرير المرأة.
- تهوين شأن الحضارة الإسلامية وتاريخها.
- بعث الحركات الهدامة، والطوائف الضالة، وتضخيم أدوارها.
- نبش الحضارات القديمة وإحياء معارفها.

---

(١) عبدالقادر المغرى: «جمال الدين الأفغانى، خاطرات وأحاديث»، عن: ٩٨، سلسلة كتاب «اقرأ»، رقم ٦٨، ط: الثانية، دار المعارف.

(٢) أنور الجندى: «سقوط العلمانية»، ص: ٢٦-٢٧، بتصرف.

- وضع منهاج لا دينى للبحث العلمى[1].

وإن المتتبع لنشاط التنصير والاستشراق: يجد أن هذا النشاط يركز على النقاط المذكورة آنفاً؛ مما يؤكد أن التنصير والاستشراق والعلمانية تهدف فيما تهدف إلى إبعاد الإسلام عن المسلمين. وبعبارة أخرى: إبعاد المسلمين عن الإسلام سلوكاً ونظاماً.

وإذا كان ما أعلنته تركيا من الفصل بين الدين والدولة حدثاً علمانياً رسمياً، فإن الاحتلال الصليبى الوثنى الغربى مارس الفصل بين الدين والدولة فى الدول التى سيطر عليها فى تدرج وفى إحكام، وذلك فى غيبة من الوعى الإسلامى، ولم يفلت أى بلد إسلامى أو أكثرية إسلامية فى آسيا وإفريقيا من الاستعمار الغربى. ومن ممارسة الاستعمار العلمانية، وإضعاف الإسلام، أبعد الإسلام:

١ - فى سياسة الحكم، فنظام الحكم اليوم فى سيره، إما علمانى غربى، أى: رأسمالى، وإما علمانى شرقى، أى: بلشفى ماركسى.

٢ - وفى سياسة التوجيه والتعليم. وقد يشار إلى الإسلام فى بعض مناهج التعليم فى الإعدادى والثانوى، ويغفل تماماً فى التعليم العالى والجامعات، ماعدا المعاهد الدينية الأزهرية، وجامعات قطر والمملكة العربية السعودية، وجامعة الأزهر، والزيتونة.

٣ - وفى سياسة التشريع والقضاء. ما لم يلغه الاستعمار من مبادىء الإسلام أو مظاهره: ألغاه الحكم الوطنى بعد الاستقلال.

٤ - وفى شئون الدعوة الإسلامية ألغيت الأوقاف الإسلامية، واستولى عليها وبيعت. وبقيت أسماء وزارات للأوقاف، لتخفى ما ألغى من الأوقاف.

٥ - وفى سياسة المال والاقتصاد: لا يعنى فيها إن كانت ملائمة أو غير ملائمة للمبادىء الإسلامية، والاتجاه الإسلامى من حياة الإنسان[2].

---

(١) د. سفر بن عبدالرحمن الحوالى: «العلمانية، نشأتها وتطورها وآثارها فى الحياة الإسلامية المعاصرة»، ص: ٥٤٤-٥٥٠.

(٢) د. محمد البهى: «العلمانية والإسلام»، ص: ٧١-٧٢، بتصرف.

ومما يجدر أن يلحظه الباحث: أن مجال التعليم ظهر فيه المنهاج العلمانى واضحاً فى الدعوة إلى إحياء الدراسات التاريخية السابقة للإسلام، وإحياء الحضارات القديمة، كالحضارة الفرعونية فى مصر، والفينيقية فى الشام، والبابلية، والآشورية فى العراق! بقصد عزل العالم العربى والإسلامى القائم على منهاج كامل للحياة، ورابطة قوية تجمع شمل العرب والمسلمين على رابطة الأخوة والدين. كما أن هناك دعوة تحاك إلى تمصير اللغة، وتمصير الأدب، وتمصير القانون، وتمصير التربية، وتمصير التاريخ. وكلها محاولات علمانية تريد القضاء على مفهوم الرابطة العربية القائمة على أسس وطيدة، عميقة الجذور من اللغة والتاريخ[١].

ويذكر الباحثون أنه جرت دعوة إلى العامية فى اللغة العربية، وإلى الاقتباس من الأساليب الغربية فى التعليم، وإعلاء شأن اللغات الأجنبية والتاريخ الأوروبى. كما يفضل بعض الأساتذة والمدرسين العرب والمسلمين فى تدريسهم لمواد العلوم الطبيعية والرياضية والمواد الأجنبية؛ إذ تجرهم العلمانية إلى التدريس بكلمات إنجليزية أو فرنسية أو ألمانية، بدلاً من الكلمات العربية[٢].

ومما لا يفوت الباحث: أن المحتلين افتتحوا مدارس غربية، قلباً وقالباً فى المراكز الثقافية الكبرى للعالم الإسلامى، ورسموا المخططات لاستئصال التعليم الأصلى، من هذه المدارس التى أنشئت فى لاهور، وبيروت، وإسلامبول، والقاهرة، وغيرها، عدا المدارس الأقل شأناً، التى انتشرت فى الهند وبلاد الشام ومصر، وبصفة أظهر فى بلاد المغرب[٣].

ومما لا شك فيه: أن هذه المدارس كان لها أعظم الأثر فى توجيه النهضة الفكرية وجهة لا دينية، وتوسيع الهوة بين التعليم الدينى واللا دينى[٤].

وبعد:

فهذه العلمانية فى وظيفتها التخريبية ماذا تكون؟!

---

(١) د. مبارك حسن حسين: «التيارات الفكرية والحركات المعاصرة»، ص: ١٨٥.

(٢) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(٣) د. سفر بن عبدالرحمن الحوالى: «العلمانية، نشأتها وتطورها وآثارها فى الحياة الإسلامية المعاصرة»، ص: ٥٩٣-٥٩٤.

(٤) المصدر السابق، ص: ٥٩٤.

أيكفى أن نقول: إنها صورة العصر التى تزخرفت بداء الإلحاد.

أيكفى أن نقول: عباءة الفساد، ونظريته الفكرية المطروحة أمام العقل المعاصر المترنح؟؟

لقد اتضح لنا: أن العلمانية تدعونا إلى استبعاد الدين من مجال الفكر والعلم والسياسة والتشريع والاقتصاد والتربية والأدب والفن.

ذكر المستشرق «لوشاتليه»[1] أن القس «اكسنفلد» قال فى مناقشة له بمؤتمر أدنبرج التنصيرى - والذى سبق أن أشرنا إليه - ونحن نعرض للتنصير وذلك بعد أن ذكر أن الخطر الإسلامى صار أمره معروفاً عند الجميع «أن الحكومة لا بد لها من القيام بتربية الوطنيين المسلمين فى المدارس العلمانية، مادام هؤلاء المسلمون ينفرون من المدارس المسيحية»[2].

وهنا يكون من الواضح: أن العلمانية وإن كانت تستبعد الدين، إلا أنها تجد فى الدين المضاد حليفاً طبعياً يشاركها فى العمل على تحطيم الدين الأصلى السائد.

ولا يخفى على أحد أن العلمانية صناعة إنسانية، جاءت لتخريب الأوطان والدين والتاريخ والمجتمع.

ومن التخريب الدينى الذى تمارسه العلمانية فى بلادنا الإسلامية: إثارتهم للفتنة الطائفية بين وقت وآخر، فكلما وجدوا للصحوة الإسلامية صوتاً يكاد يتجاوز الهمس، صرخوا فزعين، واستجاروا بالطائفية[3].

وأن المرحلة التاريخية التى يعيشها المسلمون منذ أن غزى العالم الإسلامى تفيد: أن نفى إسلامية المسلم لن ينجح، إلا بتفريغ المسلم من تاريخه وحضارته، وكافة مقوماته المميزة له، ومن الشعور بالانتماء، وهذا لن يتأتى إلا باستمرار التدفق الثقافى والحضارى الغربى[4].

---

(١) هو: مستشرق فرنسى، كان أستاذاً للاجتماع الإسلامى فى الجامعات الفرنسية، رأس تحرير مجلة (العالم الإسلامى) التى كانت تصدر فى باريس، ويكتب فيها كبار المستشرقين، وقد نشر فيها أبحاث كثيرة منها: «المركز الاقتصادى للعالم الإسلامى».
- لوشانليه: «الغارة على العالم الإسلامى»، ص: ٨-٩.

(٢) محب الدين الخطيب، ومساعد اليافى: «الغارة على العالم الإسلامى»، ص: ٨٢.

(٣) د. يحيى هاشم فرغل: «حقيقة العلمانية»، ص: ٣٢٣.

(٤) المصدر السابق، ص: ٣٢٧، بتصرف.

الدعوة إلى القوميات

فى القرن الماضى نشأت الدعوة القومية فى أوروبا. فبعد الثورة الفرنسية فى نهاية القرن الثامن عشر الميلادى تكونت الدول الأوروبية الحديثة على أساس القومية[1].

ومما يجدر ذكره أن اليوم الذى تحاربت فيه المعسكرات الغربية من أجل القوميات، كانت هناك حروب قبل الحرب العالمية الأولى، ولم تكن حرب مبادىء وعقائد؛ بل إنها كانت حرب قوميات، دفعت إليها وحملت عليها: النعرة القومية، والطموح القومى، وتلك طبيعة الفلسفة القومية، إذا نضجت وتخمرت، والشجرة لا تلام على ثمارها الطبعية، وجاءت الحرب الأولى بويلاتها على الدول الأوروبية[2].

وبعد خروج أوروبا من الحرب الأولى مثخنة بالجراح، منهوكة القوى، مرهقة بالديون والتبعات، بدأ العقلاء يفكرون ويتحدثون على أساس أوسع من القوميات والوطنيات، فبدأ الحديث منذ ذلك الحين عن: الإنسانية والآفاقية، ولكنه حديث خافت محدود[3].

وجاءت الحرب العالمية الثانية المدمرة، ولم تكن على أساس ما أثارته القومية المتطرفة من الطموح المسرف، والمجد الكاذب والمغالطات الخداعة، والدعايات الكاذبة. واستفزاز الشعور القومى. . ولما وضعت الحرب أوزارها - باضطرار من بعض، واختيار من بعض - قويت حركة الكراهة والتذمر من القومية، وأصبح نوابغ الفكر الحديث، والمفكرون الأحرار - كما يسمونهم - ينكرون عليها فى

(١) إبراهيم خليل أحمد: «المستشرقون والمبشرون فى العالم العربى والإسلامى»، ص: ٤، ط: مكتبة الوعى العربى بالقاهرة، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.

(٢) أبو الحسن على الحسنى الندوى: «العرب والإسلام»، ص: ١١٩، ط: الثانية، مكتبة المنارة، بمكة المكرمة سنة ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م، الناشر: دار المنارة للنشر والتوزيع، بجدة.

(٣) المصدر السابق.

صراحة وقوة. ويدعون إلى الجامعة الإنسانية، والرابطة العالمية، ويؤلفون فى ذلك كتباً قيمة(١).

وقد تأسس المعسكر الشيوعى الإلحادى على أساس عالمى، ورفض القوميات، وتأسس على مبدأ وعقيدة وشعار - وإن كانت إلحادية خاطئة مهلكة- واتجهت دعوته إلى جميع الأمم والشعوب والبلاد. ومن العار علينا نحن المسلمين بعامة، والعرب بخاصة أن نتمسك بالقومية، وندعو إليها، والعالم المتمدين - كما يظن أو يتوهم - بمعسكريه المتنافسين يتجه إلى العالمية والآفاقية(٢).

ولكننا - مع الأسف - نبدأ دائماً من حيث تنتهى أوروبا، فقد ولى عصر القوميات هناك. وبدأ فى شرقنا الإسلامى، بإفرازاته العفنة وآفاته الضارة، وآثاره المدمرة.

وقد اتجهت المطامع الاستعبادية الصليبية للدول الأوروبية إلى دولة الخلافة الإسلامية (العثمانية) وكانت قد بلغت أشد مراحل الضعف والانحلال، وبدأوا باستغلال الأقليات النصرانية فى ولايات مقدونيا الثلاث: مناستر، وقوصة، وسلانيك. فبثوا فيها الدعوة إلى القومية، وبواسطتها استطاعوا أن يمزقوا وحدة الدولة العثمانية، فانفصلت تلك الولايات عنها، وقامت فيها دول نصرانية باليونان والبلغار والسلاف، والرومان بعد مذابح مريعة للسكان المسلمين، أدت إلى هجرة الكثير منهم إلى نواحى الدولة العثمانية فى الأناضول(٣).

ويذكر العلماء: أن الفكرة القومية الحديثة نبتت فى عقول أعداء الإسلام من اليهود والصليبيين. فقد قام المحفل الماسونى فى تركيا بالدعوة إلى القومية التركية «الطورانية». وممن اشترك فى أبحاثه مجموعة من المستشرقين، منهم: «غولا وسكى»، و«قرة جون»، و«ماونان هارتان»، فعكفوا على اكتشاف كل ما يتعلق بالجنس التركى من تاريخ ولغة، وخصائص قومية، وحضارة وأدب، وحياة اجتماعية(٤).

---

(١) المصدر السابق، ص: ١٢٠.

(٢) المصدر السابق.

(٣) أحمد البشير: «الغزو الفكرى والتيارات المعادية للإسلام»، ص: ٤٦٢.

(٤) أحمد بشير: «الغزو الفكرى والتيارات المعادية للإسلام»، ص: ٤٦٢-٤٦٣ بتصرف.

ومن ناحية أخرى. كانت الدعوة للقومية العربية تبرز فى لبنان على أيدى فئة من النصارى العرب. وفى جمعيات أدبية تتخذ من دمشق وبيروت مقراً لها، ثم فى حركة سياسية واضحة المعالم فى المؤتمر العربى الأول، الذى عقد فى باريس، سنة ١٣٣٠هـ-١٩١٢م[١].

وظهرت بعد ذلك القومية العربية كحركة سياسية فكرية متعصبة، تدعو إلى تمجيد العرب، وإقامة دولة موحدة لهم، على أساس من رابطة الدم والقربى واللغة والتاريخ، وإحلالها محل رابطة الدين، وهى صدى للفكر القومى، الذى سبق أن ظهر فى أوروبا[٢].

ولا يخفى أن الاحتلال الصليبى الوثنى - أو ما يسمونه بالاستعمار - هو الذى شجع الفكر القومى، وعمل على نشره بين المسلمين، حتى يجعلوا القومية بديلاً عن الدين. مما يؤدى إلى انهيار عقائدهم، ويعمل على تمزيقهم سياسياً، إذ تثور العداوات بين شعوبهم المختلفة[٣].

وقد قصد الأوربيون من نشر القومية بين المسلمين:

١ - اعتبار العقيدة عنصراً لا قيمة، وبذلك يستطيعون أن يضمنوا عدم اجتماع العالم الإسلامى، والذى طالما أخاف الأوربيين عبر التاريخ ولا يزالون يخشونه حتى الآن.

٢ - التفريق بين صفوف الأمة المسلمة بالدعوة إلى الجنس ويمكن للأجنبى أن يقطف ثمار هذا الاختلاف، ومن ذلك ما يعانيه العراق من اختلاف بين العرب والأكراد، وما يمكن أن يحدث فى المغرب بين العرب والبربر[٤].

وقد تطورت الدعوة إلى القومية العربية تطوراً يجعلها فى مصاف العقائد الدينية، وجاء فلاسفة قوميون ابتدعوا فلسفة قومية تضع القومية العربية موضع

(١) الندوة العالمية للشباب الإسلامى، الموسوعة الميسرة، ص: ٤٠١.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق، ص ٤٠٤.
(٤) محمود شاكر: «العالم الإسلامى ومحاولة السيطرة عليه»، ص: ٦١، ط: الأولى، سنة ١٣٨٧هـ-١٩٦٧م.

العقيدة الدينية. وفى مقدمة هؤلاء. ساطع الحصرى الذى قدم الرابطة القومية على الرابطة الدينية. وألّف عشرة كتب فى القومية، منها: «العروبة أولا»، ومنهم: ميشيل عفلق، وأنيس صايغ، وقسطنطين زريق، وعبدالعزيز الدورى، وأنطون سعادة، ونور الدين حاطوم، ولطفى السيد، وإسماعيل مظهر، وجورجى زيدان، وفرح أنطون، وشبلى شميل، ويعقوب صروف، وغيرهم. وجميع هؤلاء يدعون إلى قومية علمانية، «لا إسلامية». فهم يستبعدون الدين من مقومات الحركة القومية[1].

فإثارة النعرات القومية بين المسلمين مخطط صليبى رهيب، وهذا المخطط يعمل على إحياء العاطفة القومية، تلك العاطفة التى قضى عليها الإسلام وأماتها منذ العهد الأول من الرسالة المحمدية الخالدة، ومنذ أن قال رسول الله ﷺ: «من خرج من الطاعة، وفارق الجماعة، مات ميتة جاهلية، ومن قاتل تحت راية عمية، يغضب لعصبة، أو يدعو إلى عصبة، أو ينصر عصبة، فقتل، فقتلته جاهلية. ومن يخرج على أمتى يضرب برها وفاجرها، ولا يتحاشى من مؤمنها. ولا يفى لذى عهد عهده، فليس منى ولست منه»[2].

إن الإسلام أمات جميع أصناف هذه النعرات والعصبيات، وأحيا أخوة الإسلام، وربط الناس برباط الإيمان، وجمعهم على دعوة القرآن الكريم، أكرمهم عند الله أتقاهم، وأقربهم إلى الله أصلحهم.

ولكن الغرب قرر إحياء هذه العصبيات، وبذل الجهد والمال، وبث الرجال من وكلائه فى ديار الإسلام، حتى يعملوا على نشر هذه العاطفة القومية، التى من شأنها أن تبعد المسلم العربى عن أخيه المسلم الأعجمى، وتنشر بينهم هذه العصبية التى نهى عنها الرسول ﷺ، وحاربها الإسلام: «ليس منا من دعا إلى عصبية»[3]. وتعيد هذه الفكرة عصر الجاهلية الأول، عصر الانحطاط والقبلية،

(١) أحمد بشير: «الغزو الفكرى والتيارات المعادية للإسلام»، ص: ٤٦٥.

(٢) رواه مسلم فى صحيحه، كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين، ج٣، ص: ١٤٧٦.
ورواه أحمد فى مسنده، ج٢، ص: ٢٩٦.

(٣) رواه أبو داود فى سننه، كتاب السنة، باب فى العصبية، ج: ٤، ص: ٣٣٢.

وهذه الفكرة وحدها كفيلة بتفتيت وحدة المسلمين، وكافية لتمزيق شملهم، وتفريق كلمتهم، وإشاعة العداوة والبغضاء بينهم، وقد كان للصليبيين الوثنيين الغربيين ما أرادوا، فقد نفذوا مخططهم، وأشاعوا الفكرة القومية بيننا، ونشروا لها المبادىء المختلفة، تبعاً لاختلاف فكرة القوميات عندهم[١].

إن من يرتكب هذه الجريمة - جريمة القومية - هو الذى يمهد لضياع هذه الأمة الكريمة وانهيارها وإفلاسها، ويتآمر على وجودها وقوتها، ويحولها من أمة مؤمنة منظمة قوية ذات عقيدة وهدف ورسالة إلى أمة متشككة ضعيفة، لا عقيدة لها، ولا هدف، ولا رسالة[٢].

ومن المؤسف المحزن المخجل: أن يقوم رجال يدعون إلى القومية العربية المجردة من العقيدة والرسالة، وعن قطع الصلة عن أمتن رابطة روحية تجمع بين الأمم والأفراد، والأشتات والأضداد. إنها جريمة قومية، تبز جميع الجرائم القومية التى سجلها تاريخ هذه الأمة، وإنها حركة هدم وتخريب، تفوق جميع الحركات الهدامة المعروفة فى التاريخ[٣].

وإن الباحث بعمق: يجد أن أخوف ما كان يخافه رسول الله ﷺ على المسلمين أن تظهر فيهم العصبيات الجاهلية، فتفرق كلمتهم، فكان ﷺ يقول لأصحابه دائماً: «لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»[٤].

ولا يمكن بقاء الرابطة الإسلامية مع نشوء الشعور بالقومية العنصرية، ومن المغالطة: الزعم بأن هذا الزمان إسلامى، مع أن أهله يتغنون بالعنصرية فى كل قطر من أقطارهم، متأثرين بالأوربيين.

ونتيجة للدعوة إلى القومية التى خطط لها أعداء الإسلام «بخبث ودهاء» بدأ

---

(١) محمد محمود الصواف: «المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام»، ص: ٢٤-٢٥، بتصرف.

(٢) أبو الأعلى المودودى: «العرب والإسلام»، ص:٧٣، ط: المكتب الإسلامى، بيروت، سنة: ١٣٨٩هـ-١٩٦٩م.

(٣) المصدر السابق، ص: ٧٤.

(٤) رواه البخارى فى صحيحه مع فتح البارى، كتاب الأدب، باب ما جاء فى قول الرجل ويلك، ج:١٠، ص: ٥٥٣، رقم الحديث ٦١٦٦، ورواه البخارى - أيضاً - فى صحيحه، كتاب العلم، باب الإنصات للعلماء، ج:١، ص:٣٨.

ينشأ فى الهند مسلمون يفخرون بالانتساب إلى القومية الهندية، بل فيهم من يريد أن ينقطع عن ماء زمزم، ويتصل بماء «جنجا» وفى هؤلاء من تبعته أهواؤه على اتخاذ «بهيم» و«أرجن» و«رامها» أبطال الهندوس أبطالاً له»(١).

وإذا كان مما يدعو إلى العجب حقاً: أن الناس فى أوربا وأمريكا لم يدركوا أكثر حقائق الوجود الإنسانى بساطة ووضوحاً، وهى: انحدار البشر من أصل واحد، فإن أكثر من هذا عجباً، وأدعى إلى الرثاء البالغ، والأسى المرير: أن يتنكر فريق من المنتسبين إلى الإسلام بتأثير وزعامة أفراد غير منتسبين للإسلام ومعادين له، لهذه الحقيقة التى يقررها الإسلام فى كتاب الله - عز وجل - وسنة رسوله ﷺ، ويقيم على أساسها منهاج حياة مثلى للإنسانية جمعاء، اعتقاداً وتفكيراً وتربية وتشريعاً ونظاماً فى السياسة والاجتماع والاقتصاد، لا يبلغ البشر ما ينشدون من حق وعدل وأمن وسلام إلا فى حماه، وتحت ظلاله الوارفة الندية الطيبة(٢).

ولعل من أوضح ما يعكس هذا التنكر للحقيقة الإنسانية من حيث وحدة الأصل والنشأة والتكوين - كما يجليها منهاج الإسلام - ما تلقفه فريق من الناس من أفكار ونظريات عنصرية وقومية وطبقية، حرصوا على نشرها، وتلويث الأجواء الإسلامية الصافية بسمومها، ويستطيع من يدرس ما تسرب إلى البلاد المسلمة من اتجاهات الفكر الغربى - من خلال القرنين التاسع عشر، والعشرين للميلاد - بتأثير الغزو الاحتلالى الصليبى الوثنى للعالم الإسلامى، ومحاولة احتوائه فكرياً وثقافيا وسياسياً واجتماعياً: أن يجد مصداق هذا التنكر، والوقوع فى شرك الاتجاهات الاحتلالية الكافرة المعادية فى نماذج من الأقوال والآراء والدعوات والشعارات التى ظهرت فى كل من: تركيا وألبانيا ومصر، وبلاد الشام، وفى الهند، وأندونيسيا، وغيرها من البلاد الإسلامية(٣).

ومما يذكى قلب كل مسلم تقرحت كبده، واحترقت جذوة الإيمان فى صدره: أن حزب الاتحاد والترقى فى تركيا، والذى اعتنق الدعوة إلى القومية التركية، وعمل

---

(١) أحمد بشير: «الغزو الفكرى»، ص: ٤٦٦.

(٢) الأستاذ عمر عودة الخطيب: «نظرات إسلامية فى مشكلة التمييز العنصرى»، ص: ٩٨، ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، سنة: ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

(٣) المصدر السابق.

على ترويجها، وصولاً إلى الفكرة العلمانية، عمل على عزل خليفة المسلمين السلطان عبدالحميد، ذلك الخليفة الذى سجل له التاريخ موقفاً بطولياً رائعاً، لا يمكن أن ينسى أبد الدهر، إذ فيه تجلت الغيرة على الإسلام ومصلحة البلاد الإسلامية، هذا الموقف هو: رفضه أن يعطى فلسطين الكئيبة المغتصبة وطناً لليهود - على الرغم من الإغراءات المادية الكبيرة - قائلاً: الأصبع الذى يوقع للموافقة على إعطاء شبر من أرض المسلمين لليهود أقطعه. ولم يكتف هذا الخليفة العظيم بهذا فحسب، بل وبصق فى وجه زعيمهم «قرصو»، والذى جاء لمفاوضته[1].

ومن المعلوم أن الدعوة إلى القومية العربية أو غيرها من القوميات دعوة باطلة، وخطأ عظيم، ومنكر ظاهر، وجاهلية نكراء، وكيد سافر للإسلام وأهله، وذلك لوجوه:

الأول: لأنها تفرق بين المسلمين، وتفصل المسلم العجمى عن أخيه العربى، بل تفرق بين العرب أنفسهم، وتقسمهم أحزاباً، فهى بذلك تخالف مقاصد الإسلام الذى يدعو إلى الاجتماع والوئام، قال تعالى: ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** ﴾[2].

والثانى: لأنها أمر الجاهلية، فهى تدعو إلى غير الإسلام. وكل ما خرج عن دعوة الإسلام والقرآن الكريم من نسب أو بلد أو جنس أو مذهب أو طريقة، فهو من الجاهلية، كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - مستشهداً بقول الرسول ﷺ: «أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم». والنصوص فى ذلك كثيرة. ولا ريب أن القومية تدعو إلى البغى والفخر، وهى فكرة جاهلية تحمل أهلها على الفخر بها والتعصب لها.

والثالث: لأنها تؤدى إلى موالاة الغرب وملاحدتهم من أبناء المسلمين، واتخاذهم بطانة، والاستنصار بهم على أعداء القوميين من المسلمين وغيرهم،

---

(١) حسن أحمد أمين: «حول تطبيق الشريعة الإسلامية»، ص: ٢٥٩، ط: الثانية، مكتبة مدبولى، القاهرة، سنة: ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٠٣.

وفى ذلك مخالفة لنص القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة الدال على وجوب بغض الكافرين ومعاداتهم، وتحريم موالاتهم، واتخاذهم بطانة، كقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾[(١)].

والقوميون يدعون إلى التكتل حول القومية، فيوالون من أجل ذلك كل عربى من يهود ونصارى ومجوس ووثنيين وملاحدة وغيرهم تحت لواء القومية العربية، وكل قومية غير القومية العربية كذلك تضم غير المسلمين مع المسلمين.

والرابع: لأن الدعوة للقومية تفضى بالمجتمع إلى رفض حكم القرآن الكريم؛ لأن القوميين غير المسلمين لن يرضوا بتحكيم القرآن الكريم، فيوجب هذا لزعماء القومية أن يتخذوا أحكاماً وضعية تخالف القرآن الكريم، حتى يستوى مجتمع القومية فى تلك الأحكام[(٢)].

فأنت ترى من كل هذا: أن مبدأ القومية مبدأ خطير، لا ينتج إلا الشرور والآثام والحروب والتخاصم والتنافس والتزاحم[(٣)]. والقوميون سواء شعروا أو لم يشعروا إنما يجرون قومهم إلى صورة لا يعبأ بها ولا يقام لها وزن[(٤)]. وهم مغرمون أيما إغراء بتأكيد الروابط الأخوية مع القادة الاشتراكيين، وأنصار الحرية والسلام الذين قاموا إلى ركبهم فى دماء الألوف من أبناء الأمة المسلمة[(٥)] إذ أوجدوا التنافر والتفاخر بين الشعب الواحد، والأمة الواحدة، بينما الإسلام هوية جماعية للشعوب وللقوميات، وللأمة، تمكنها من صد تغلغل الأفكار والاتجاهات الغربية أو الشرقية الحاقدة.

هذا وقد ظلت الدعوة إلى القومية العربية محصورة فى نطاق الأقليات الدينية غير المسلمة، وفى عدد محدود من أبناء المسلمين، الذين تأثروا بفكرتها.

---

(١) سورة المائدة، آية: ٥١.

(٢) الشيخ عبدالعزيز بن باز: «نقد القومية العربية»، ص: ١٣-٥١، ط: المكتب الإسلامى، ببيروت، سنة: ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م، بتصرف واختصار شديد.

(٣) محمد العزالى: «حقيقة القومية العربية»، ص: ٢٠٠، ط: دار العروبة ببيروت، سنة: ١٣٨٠هـ-١٩٦٠م.

(٤) د. صالح بن عبدالله العبود: «فكرة القومية العربية على ضوء الإسلام»، ص: ٣١٠، ط: الأولى، دار طيبة بالرياض.

(٥) محمد مصطفى رمضان: «الشعوبية الجديدة»، ص: ٩٠، ط: الأولى، ببيروت، سنة ١٣٨٩هـ-١٩٦٩م.

حركة التغريب

أولا: التعريف:

لجأ أعداء الإسلام إلى طرق عدة، لهدم الإسلام، وإعاقة انتشاره، وإخراج أبنائه من هديه، وكان من أقوى وسائلهم تأثيراً، وأشدها إثماراً ما يسمى: بحركة التغريب.

والتغريب تيار كبير ذو أبعاد سياسية واجتماعية وثقافية وفنية، يرمى إلى: صبغ حياة الأمم بعامة، والمسلمين بخاصة، بالأسلوب الغربى ليكونوا أسرى التبعية الكاملة للحضارة الغربية[1].

ثانيا: الأهداف:

سعى أعداء الإسلام فى هذه الحركة، وهدفهم الرئيسى، هو إعاقة انتشار الإسلام، وإيقاف حركته؛ بل وقتله فى أرضه.

وما قلناه - آنفاً - فيه شيء من الإجمال؛ إذ أن حركة التغريب قد هدفت إلى هدفين رئيسيين هما:

١ - تشكيك المسلمين فى دينهم، الذى اكتشف رواد هذه الحركة: أنه أكبر عقبة فى طريق سيطرتهم على البلاد؛ ولتحقيق ذلك قام الغرب بحملة كبرى لغسل الدماغ الإسلامى، وكسب المريدين والأتباع من أهل البلاد[2].

٢ - إيهام المسلمين أن الحضارة الغربية حضارة عالمية، وأنها ثمرة تجارب

---

(١) الندوة العالمية للشباب الإسلامى: «الموسوعة الميسرة فى الأديان والمذاهب المعاصرة»، ص: ١٤٥.
- محمد المبارك: «الفكر الإسلامى الحديث فى مواجهة الأفكار الغربية»، ص: ١٠٢، ط: الأولى، دار الفكر العربى، بيروت، سنة ١٣٨٧هـ-١٩٦٨م.
- أنور الجندى: «تصحيح المفاهيم فى ضوء الكتاب والسنة»، ص: ٢٠، ط: دار الاعتصام بالقاهرة، سنة: ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

(٢) أنور الجندى: «عقبات فى طريق النهضة»، ص: ٢٠، ط: دار الاعتصام.

الإنسانية، وعلى هذا فلا مناص لمن أراد التقدم أن يتبنى مفاهيمها، ويقتبس نظمها؛ وأن يربط مصيره بمصيرها[1].

وقد صدرت منهم عبارات كثيرة، تصور هذين الهدفين تصويراً دقيقاً من ذلك: ما قاله المنصر «وليم جيفورد بالكراف»: «متى توارى القرآن من بلاد العرب، يمكننا حينئذ أن نرى العربى يتدرج فى طريق الحضارة الغربية، بعيداً عن محمد وكتابه»[2].

لقد جمع هذا الخبيث الماكر فى كلمة «القرآن» كل ما يمس حياة المسلمين؛ لأنه هو مصدر حياتهم، ومورد بقائهم، ومتى سلب من أعمالهم ضاعوا وتاهوا، وتخبطوا فى كل معترك، حتى يقعوا فى الهاوية.

ثالثا: أساليب التغريب:

استخدمت حركة التغريب وسائل كثيرة وطرقاً متعددة، متمايزة فى التأثير، متفاوتة فى القبول، منها: المباشر، ومنها: غير المباشر، ومنها: المادى، ومنها: المعنوى، ومنها: الأجنبى، ومنها: المحلى[3].

وقد اتخذت خطط التغريب أساليب منظمة، يراعى فيها: طول زمن التنفيذ، والتخفى والتستر، حتى لا تنتبه الأمة المسلمة إلى هذه المخططات الغادرة؛ بل تظل غافلة عنها حتى تستحكم، ويصعب التخلص منها[4].

ومن أكثر الأساليب المتخذة، وأشدها خطراً: استخدام أبواق من أبناء الأمة الإسلامية، تنفخ فيها ما تريد. هذا ولا ريب أسلوب شديد التأثير، قوى الفاعلية، فالأمة الإسلامية، ستنكر أى صوت من غير دينها وجنسها، وتبقى أمامه مسددة الآذان، غير آبهة بما يقول.. أما إذا كان صاحب الصوت من جنسها، ومن دينها - كما يزعم - فسيكون له نصيب من القبول[5].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) جلال العالم: «قادة الغرب يقولون: دمروا الإسلام، أبيدوا أهله»، ص: ١٢٤، ط: دار الاعتصام، بالقاهرة،، سنة: ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

(٣) د. حسان محمد حسان: «وسائل مقاومة الغزو الفكرى للعالم الإسلامى»، ص: ٦٤.

(٤) محمد محمود الصواف: «المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام»، ص: ١٧.

(٥) د. على محمد جريشة: «أساليب الغزو الفكرى»، ص: ٥٨.

- د. جلال يحيى: «المجمل فى تاريخ مصر الحديثة»، ص: ١٨٧، ط: الثانية، المطبعة المصرية، سنة: ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م. الناشر: المكتب الجامعى الحديث.

لهذا زرعت حركة التغريب بين المسلمين، نبات سوء، ودعاء شر، ظلت تسقيهم من مائها، وتسكب فى عقولهم من لوثتها، حتى صاروا تلاميذ نجباء لهم، وأبواقاً تحسن الصفير بما يملى عليها(١).

ومن الأساليب الخبيثة التى استخدمت التغريب: أسلوب الإقناع القائم على التشكيك، إذ يقومون بتشكيك أبناء هذه الأمة فى تعاليم ومبادىء دينها، ومدى توافقها مع العصر، ذى التطور والرقى، حتى إذا تم ذلك استعمل أسلوب الإقناع بأخذ البديل من الحضارة الغربية(٢).

وقد نجح هذا الأسلوب نجاحاً باهراً، فأخذ بحضارة الزيف والكفر، وتركت الحضارة التى ارتقت بالإنسان، والأمثلة على هذا كثيرة جداً، فمنها مثلاً: الدعوة إلى تحرير المرأة؛ إذ بدأوا بالتشكيك فى إنصاف الإسلام للمرأة، فقد ظلمها، وضيّق عليها، وجعلها بمنزلة المتاع الساقط، أما الحضارة الغربية: فقد فتحت لها باب الحياة، وجعلتها إنساناً متكامل الحقوق، فخذوا أسلوب هذه الحضارة، وحرروا المرأة(٣)!!!.

رابعا: مجالات التغريب:

رأى قادة حركة التغريب أن التغريب لن يكون ذا ثمرة، إلا إذا تناول مجالات معينة تتسم بالحساسية الشديدة، والأهمية العظمى، والقرب من الفكر والميدان العام؛ لهذا كانت المجالات التى تناولها التغريب مجالات حيوية، تمس المجتمع، وتعالج الفكر، الذى هو شريان الأمة النابض بحياتها.

وفيما يأتى تناول لأهم المجالات التى كانت ميداناً لتغريب الأمة المسلمة، وأثر ذلك فى حياة الأمة:

أولا: التعليم:

التعليم من أكبر المجالات التى نالت نصيباً كبيراً من حركة التغريب، وقد استهدف تغريب التعليم عدداً من الأهداف، من أهمها:

---

(١) المصدر السابق.

(٢) محمد محمود الصواف: «المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام»، ص: ١٢٤-١٢٥.

(٣) د. على محمد جريشة: «أساليب الغزو الفكرى للعالم الإسلامى»، ص: ٥٥-٥٨.

١ - القضاء على الذاتية الإسلامية المتسمة بأخلاقها ومبادئها وتعاليمها السماوية، المرتبطة بالقرآن الكريم، وبالنسبة المطهرة.

٢ - القضاء على الفصاحة العربية، التى أوجدتها منابع البلاغة العربية، المتمثلة فى القرآن الكريم، إذا استطاعت وسائل التعليم الحديثة ومناهجه أن تبتر الصلة بين الشباب المسلم وتراثه العريق.

٣ - القضاء على الإحساس بعظمة العطاء الذى قدمته الأمة المسلمة للبشرية، إذ قدمت لها: منهاج الحضارة الذى حرر الإنسان من عبودية الإنسان، وحرر العقل البشرى من عبودية الوثنية والخرافة.

٤ - القضاء على تمثل الدور التاريخى الذى قام به الإسلام، حين أخرج هذا العالم من ظلمات الوثنية والرهبانية إلى مفهوم الحرية والكرامة والعمل والسعى فى هذه الأرض[١].

ويذكر رجال التربية: أن من أبرز ثمرات تغريب التعليم وأكثرها إفساداً: الاختلاط بين البنات والبنين، الذى يعد خروجاً عن منهاج الإسلام[٢].

ومن ثمراته كذلك: تحول ولاء معظم المتعلمين والمتعلمات إلى الثقافة الغربية، فأخذوا بها، وهى: تنادى بهدم الإسلام، دينهم ومعتقدهم[٣].

ومن ثمراته كذلك: عدم الاهتمام بمواد الشريعة الإسلامية وإعلاء شأن المواد المدنية الأخرى، فينشأ المتعلم غير مهتم ولا عالم بدينه[٤].

ثانيا: الحياة الاجتماعية:

الحياة الاجتماعية وما يسودها من قيم خلقية، وآداب سلوكية وما يحيط بها من عادات وأعراف وتقاليد، هدف ضخم من أهداف التغريب، عملوا على تدميرها وضربها بمختلف الموجات المسمومة، وطرح المجتمع المسلم فى المفاسد التى تحطم أفراده[٥].

---

(١) أنور الجندى: «عقبات فى طريق النهضة»، ص: ١٢٠.
(٢) المصدر السابق.
(٣) د. على عبدالحليم محمود: «الغزو الفكرى والتيارات المعادية للإسلام»، ص: ١١٩.
(٤) أنور الجندى: «عقبات فى طريق النهضة»، ص: ٩٣.
(٥) المصدر السابق، ص: ٢٢١.

وكان تغريب المرأة له الأولوية والأهمية الكبرى، لأن إفساد المرأة إسراع بإفساد المجتمع كله[1].

ومن مظاهر التغريب فى الحياة الاجتماعية كذلك: الاهتمام بالاحتفال بأعياد مصطنعة، كعيد الأم، وعيد العمال، وعيد الطفولة، وعيد رأس السنة الميلادية[2]، إلى غير ذلك من أعياد اخترعها سماسرة الفكر الإلحادى الصليبى[3].

ومن تلك المظاهر - أيضاً - الاهتمام بالألعاب الرياضية أكثر من أى شىء آخر، ولا شك فى أن الألعاب الرياضية ظاهرة جسمانية ونفسية واجتماعية وتربوية، لا تعارض بينها وبين الشرع، إلا أن إساءة استخدامها والتعصب لأجلها، واستهلاك طاقة الشباب فى متابعتها، يفقد الشباب كثيراً من أمور حياتهم[4].

ولا شك فى أن الرياضة بعامة، وكرة القدم بخاصة، باتت وسيلة يستغلها أعداء الأمة المسلمة لإلهاء الشباب والزج بالأجيال الناشئة فى دوامة الجهل، والقدوة السيئة[5].

أما الحديث عن الملاهى والمراقص، وما يدور على شواطىء البحار «المصايف»، فهى محاولة خبيثة لطبع المجتمع المسلم بطابع المجتمع الغربى الذى لا يقيم وزناً للفضائل، ولا يحترم الآداب[6].

ثالثا: الاقتصاد:

لقد امتدت خطوات تدمير المجتمع المسلم إلى عدد من الميادين، منها: مجال الاقتصاد، الذى هو من أهم جوانب الحياة تأثيراً فى المجتمع[7].

---

(١) د. على عبدالحليم محمود« الغزو الفكرى»، ص: ١٢٢.

(٢) موعده: حسب التقويم الجريجورى، اليوم الأول من شهر يناير وهو أول السنة الميلادية. ولم يكن كذلك قبل سنة ١١٦٥هـ-١٧٥٢م، فقد كانت السنة تبدأ فى: ٢٥ من مارس فى انجلترا وأمريكا، ولكن ذلك تغير فى سنة: ١١٦٥هـ-١٧٥٢م، ويحتفل النصارى بهذا العيد، ويقضونه فى اللهو والمرح.
- د. إبراهيم عبده: «الموسوعة الذهبية»، ج:٣، ص: ٤٧٥.
- محمد شفيق غربال: «الموسوعة العربية الميسرة»، ج:٢، ص: ٨٥٢.

(٣) د. على عبدالحليم محمود: «الغزو الفكرى»، ص: ١٢٥.

(٤) د. حسان محمد حسان: «وسائل مقاومة الغزو الفكرى»، ص: ٧٦.

(٥) نبيه عبد ربه: «نحن والرياضة»، ص: ٤٦-٤٧، مقال بمجلة (المجتمع) العدد: ٧٣٠، الصادر يوم الثلاثاء ٤ من ذى الحجة، سنة ١٤٠٥هـ-٣٠ أغسطس، سنة ١٩٨٥م، السنة السادسة عشرة.

(٦) د. على عبدالحليم محمود: «الغزو الفكرى»، ص: ١٢٧.

(٧) أنور الجندى: «عقبات فى طريق النهضة»، ص: ٢٥١.

ولعل أخطر ما فى الاقتصاد السائد الآن فى أكثر الأقطار الإسلامية. النظام الربوى، الذى زينته الحضارة الغربية، فصار الربا بضاعة رابحة يتاجرون فيها[1].

وما المصارف ونظم تعاملها، من حيث الربويات والفوائد والعمولات والزيادات، وغيرها، إلا أنظمة قصد منها: تحدى النظم الإسلامية فى التعامل بالمال، واستغلال حاجة الناس دون رحمة أو رعاية، أو خوف من الله[2].

رابعا: القوانين والأنظمة:

فقد حاول الاحتلال الصليبى الوثنى عندما وضع أقدامه على أكثر أراضى العالم الإسلامى: أن تصبح الأنظمة والقوانين التى تحكم بين الناس قوانين وأنظمة غربية مستوردة.. أما الشريعة الإسلامية: فتقصى وتبعد، ويعمل مكانها بالقوانين الوضعية[3].

ويذكر أحد رجال القانون: أن التقنينات هذه، استوعبت مختلف فروع القانون، فقد صدرت من سنة: ١٢٩٣هـ-١٨٧٦م، وسنة: ١٣٠٠هـ - ١٨٨٣م، ستة تقنينات:

- القانون التجارى.
- القانون المدنى.
- قانون التجارة البحرية.
- قانون المرافعات المدنية والتجارية.
- قانون العقوبات.
- قانون تحقيق الجنايات.

وبذلك انقطعت الصلة فى الجملة بين الشريعة الإسلامية، والقوانين المطبقة فى مسائل الإجرام وعقوباتها، وفى مسائل الملكية والمعاملات المالية والتجارية[4].

(١) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(٢) د. على عبدالحليم محمود: «الغزو الفكرى»، ص: ١٢٧.

(٣) د. عمر سليمان الأشقر: «الشريعة الإلهية، لا القوانين الجاهلية»، ص: ٦٧-٧٠.

(٤) د. شفيق شحاته: «الاتجاهات التشريعية فى قوانين البلاد العربية»، ص: ٣٧، ط: المطبعة العالمية، بالقاهرة، سنة: ١٣٨٠هـ-١٩٦٠م.

وليس الهدف من تغريب الحكم والسياسة، إلا عزل الإسلام عن قيادته للحياة، وتعطيل الشريعة الإسلامية التى ارتضاها الله نظاماً ومنهاجاً متكاملاً تقوم عليه حياة الطمأنينة[١].

خامسا: الإعلام:

الإعلام هو التعريف بقضايا العصر، وبمشكلاته، وبكيفية علاجها فى ضوء النظريات والمبادىء التى اعتمدت لدى كل نظام[٢].

وقد استغلت حركة التغريب هذه الوسيلة التى تخاطب الملايين مباشرة فحركوها وفق ما يريدون من تخريب وإفساد[٣].

ومن أبرز وسائل الإعلام. الصحافة. التى كتبت بتلك الأيدى الحاقدة، فنشرت كل ما يسىء للإسلام، ويخدم أغراضهم، وحققوا هدفهم وهو: إشاعة التفاهة، وتزييف الحقائق، وحبس الناس فى مجال البلاهة[٤].

ومن الملاحظ على سائر وسائل الإعلام فى العالم الإسلامى كله: أنها لا تعمل إلا فى خط واحد، ونغمة يكمل بعضها بعضا، حتى تبنى وتشك كما تشاء فى وحدة متكاملة، بحيث تضمن فى النهاية تشكيل قيادات وأفراد وغزو عقول وشخصيات، واحتلال أفكار ومفاهيم، ودفن تشريعات وقيادات، وزرع تنظيمات وسلوكيات، وهى لا تقتصر على مؤسسة واحدة؛ بل تمتد إلى سائر المؤسسات، ولا تكتف ببعد واحد؛ بل تتناول سائر الأبعاد. وبذلك كله: تحاول غزو المسلم داخل بيته وخارجه وفى تربيته واقتصاده، وفى إدارته وسياسته، وفى صغره وكبره، وفى رجاله ونسائه، وفى ريفه وحضره[٥].

---

(١) د. عبدالحليم محمود: «الغزو الفكرى»، ص: ١٢٨.
(٢) د. عمارة نجيب: «الإعلام فى ضوء الإسلام»، ص: ١٦، ط: مكتبة المعارف بالرياض، سنة: ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.
(٣) المصدر السابق، ص: ١٧.
(٤) أنور الجندى: «عقبات فى طريق النهضة»، ص: ١٧٥-١٧٦.
(٥) د. حسان محمد حسان: «وسائل مقاومة الغزو الفكرى»، ص: ٧٧.

وتأتى بعد الصحافة: الإذاعة والتليفزيون، وتأتى خطورة الإذاعة والتليفزيون فى أنهما يدخلان كل بيت، ويغزوان مختلف المستويات، ويؤثران فى كثير من المواقف.

والتليفزيون بما يقدم من برامج تافهة، أصبح أداة هدم فى يد دعاة التغريب فأنت تدرك أن الغرب الحاقد، أو الشرق الملحد، حرص على نشر العلمانية، وتغريب البلاد الإسلامية بأكثر من سبيل، وحين صنع الغرب أبناء من الوطن يتولون السلطة، حرص على زيادة نشر التغريب بكل الوسائل.

الوجــودية

ظهرت كلمة «وجودية» بالمعنى الفلسفى الذى تستخدم به اليوم لأول مرة فيما كتبه كير كجارد[١]، وتعنى: موت فلسفة الوجود؛ لأنها تغلق علينا أنفسنا، وتجعلنا ندمر ذاتنا حين نجد أنفسنا نسير فى ممرات مغلقة، وطرق مسدودة؛ لأنها تهتم بمشاكل تتصل بالتأصل الفردى، دون أن يتكون من ورائها موضوعات مثمرة فى ميدان الفكر الإنسانى، لأنها تقوم على التأمل الصرف المرتبط بالفكر الشخصى، إذ ترتبط بقضايا القلق والخوف واليأس[٢].

وجاء فى الموسوعة الميسرة: «أن الوجودية تيار فلسفى، يعلى قيمة الإنسان، ويؤكد على تفرده، وأنه صاحب تفكير وتجربة وإرادة واختيار، ولا يحتاج إلى موجه. وهو جملة من الاتجاهات والأفكار المتباينة وليس نظرية فلسفية واضحة المعالم»[٣].

ويصور الوجودية «ريجيس جوليفييه» بأنها: اعتقاد أن أساس وجود الإنسان هو ما يفعله، بمعنى: أن أفعاله هى التى تحدد وجوده. كما قال سارتر: «أنا موجود، فأنا أفكر»، على عكس ما قال ديكارت: «أنا أفكر، فأنا موجود»[٤].

يقول سارتر: «أما الوجودية الملحدة التى أمثلها بنفسى، فهى أكثر إنسجاماً، وأكثر منطقية، فهى تعتقد أنه إذا جاز أن نعتقد أن الله ليس موجوداً، فإنه من

---

(١) هو : سورن كير كجارد، فيلسوف دنماركى، ولد سنة: ١٢٢٧هـ-١٨١٣م. كتب بحوثاً دينية خرج بها عن المألوف، فاختلف مع الكنيسة، إذ كان يعتقد أنه ينبغى للإنسان أن يلتمس المعرفة الحقة داخل نفسه، وأن المثقف إنما يعانى بسبب التعارض بين الوجود الفردى المؤقت من جهة، والحقيقة الأبدية من جهة أخرى، والدين أمر شخصى صرف ينزع إلي التصوف، وهو من وراء المذهب الوجودى.
- ومن أشهر كتبه: «إما أو»، و«مراحل طريق الحياة»، مات سنة ١٢٧١هـ-١٨٥٥م.
- محمد شفيق غربال: «الموسوعة العربية الميسرة»، ج: ٢، ص: ١٥٢٦.

(٢) د. محمد إبراهيم الفيومى: «الوجودية فلسفة الوهم الإنسانى»، ص: ٥١، ط: الهيئة العامة لشئون المصابع الأميرية. مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، سنة ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.

(٣) الندوة العالمية للشباب الإسلامى، الموسوعة الميسرة، ص: ٥٤٣.

(٤) مشيخة الأزهر، بيان للناس، ج:٢، ص: ٦٠.

المتحتم أن نعتقد - على الأقل - بوجود كائن موجود، قبل أن يعرف فى ضمن أى فكرة مجردة، أو وهم أى خالق، وهذا الكائن هو: الإنسان[١].

وخلاصة مذهب سارتر: «أن الوجود متقدم على الماهية، وأن الإنسان مطلق الحرية فى الاختيار، يصنع نفسه بنفسه، ويملأ وجوده على النحو الذى يلائمه»[٢].

إن هذا المذهب ليس جديداً، فقد اهتم به كثير من الفلاسفة والأدباء والمتصوفين وغيرهم من قديم الزمان، وإن كان أبرزهم حديثاً هو كير كجارد الدانمركى، المتوفى سنة ١٢٧١هـ-١٨٥٥م، وآخرهم: جان بول سارتر الفرنسى، المولود سنة: ١٣٢٣هـ-١٩٠٥م، والمتوفى فى يوم الثلاثاء ٣٠ من شهر جمادى الأولى، سنة ١٤٠٠هـ- الموافق ١٥ من أبريل، سنة: ١٩٨٠م[٣].

فالوجودية إذن: تقدس الفرد، وتقدس حريته، ويفهم منها: أن الفرد فى هذا الوجود هو كل شىء، هو الإله، ولا إله غيره. وأى قيد يحد من حرية الإنسان غير إرادته هو: مروق واعتداء على حق الإنسان. ولو كان هذا القيد هو الدين أو التقاليد، أو القيم الأخلاقية المتوارثة. الإنسان ولا شىء غيره، له تمام الحرية[٤].

والوجوديون - على اختلاف ما بينهم - يتفقون جميعاً على مبدأ واحد. هو: تقديس حق الفرد وحمايته من طغيان الجماعة عليه بعد ظهور الديمقراطية الحديثة، ثم ظهور الشيوعية والفاشية فى العهد الأخير، وهم يبنون مبدأهم هذا

---

(١) جان بول سارتر: «الوجودية مذهب إنسانى»، ص: ٣٠-٣١، ترجمة: كمال يوسف الحاج. ط: دار مكتبة الحياة، بتونس.

(٢) د. جميل صليبيا: «المعجم الفلسفى»، ج: ٢، ص: ٥٦٥، ط: دار الكتاب اللبنانى، سنة: ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م.

(٣) مشيخة الأزهر: «بيان للناس»، ج:٢، ص: ٦٠.

(٤) نجيب الكيلانى: «الإسلامية والقوى المضادة»، ص:٩٨، ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، سنة ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

- أبو الأعلى المودودى: «الإسلام والجاهلية»، ص: ٢٤، ط: مؤسسة الرسالة، ببيروت، سنة: ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.

- أ.د. محمد العربى بوعزيزى: «الوجودية الإلحادية وخطرها على الإنسانية»، ص: ٨٢، مقال بمجلة (الهداية). العدد: الرابع، السنة: الحادية عشرة، جمادى الآخرة، ورجب سنة: ١٤٠٤هـ- مارس وأبريل سنة: ١٩٨٤، تونس.

على اعتبارهم: أن الفرد هو الوجود الحقيقى فى الخارج، وأن النوع الإنسانى لا وجود له إلا فى عالم التصور والفروض الذهنية(١).

وتقديس حق الفرد هو: الجانب السليم فى الوجودية... أما السخف والمرض فإنما يظهران عند الانتقال من تقرير وجود إلى النتائج التى تترتب على هذا فى اعتقادهم. ثم يبلغ السخف غايته حين يخلطون بين وجود الفرد وغاية الوجود كله.

ومنهم من يقول: إن الوجود كله عبث لا معنى له على الإطلاق، ولا غاية من ورائه لمخلوق ولا لخالق. ويظهر السخف والمرض حين يقولون: إن الفرد هو الموجود الحقيقى، ويرتبون على ذلك أنه: لا معنى إذن للقول بالطبيعة البشرية، والقول بالأخلاق، التى تفرضها هذه الطبيعة، أو بالأقدار التى رسمت لها طريقها قبل أن تبرز إلى عالم الوجود(٢).

ويتحدث العقاد عن الوجودية فى روسيا، والوجودية فى فرنسا، فيقول: إنما وجدت فى فرنسا مدرسة الوجودية الإباحية، إلى جانب الوجودية الأخلاقية، لأسباب لا مشابهة فيها بين النشأة الوجودية الروسية، ونشأة الوجودية الفرنسية. وجدت تلك الدراسة الإباحية، لأسباب يتعلق بعضها بفرنسا، ويتعلق بعضها الآخر بسارتر إمام تلك المدرسة.

أما الأسباب التى تتعلق بفرنسا، فهى: الولع بالزى الموسمى الذى يتخذ صورة النحلة الاجتماعية. وأما الأسباب التى تتعلق بسارتر، فهى اختلال تكوينه، واتصال نسبه بالصهيونية، ففى تكوينه دلائل اختلال تبدو أعراضها فى شىء كالشلل يعترى شقه الأيمن، وهو فى نسبه نصف يهودى أو أكثر من نصف يهودى، لأنه أمه يهودية، ومعظم أيامه يقضيها بين اليهود، وله عناية شديدة بالدفاع عن السامية، والحمل على حركة المقاومة لها. ذلك هو فحوى الفارق بين وجودية تخرج إلى التصوف، كما خرج «برديف» ووجودية تخرج إلى الإباحية

---

(١) د. على عبدالحليم محمود: «الغزو الفكرى»، ص: ١٦٠.

(٢) عباس محمود العقاد: «بين الكتب والناس»، ص: ٢٦، ط: بيروت، سنة: ١٣٨٦هـ-١٩٦٦م.

والفوضى كما خرج سارتر. ولن تفهم المدارس الحديثة فى أوروبا ما لم تفهم هذه الحقيقة التى لا شك فيها، وهى: أن أصبعاً من الأصابع اليهودية كاملة وراء كل دعوة تستخف بالقيم الأخلاقية، وترمى إلى هدم القواعد التى يقوم مجتمع الإنسان فى جميع الأزمان عليه(١).

فاليهودى كارل ماركس وراء الشيوعية، التى تهدم قواعد الأخلاق والآداب، وتقوض دعائم الأوطان والأديان.

واليهودى دور كايم(٢) وراء علم الاجتماع، الذى يلحق نظام الأسرة بالأوضاع المصطنعة، ويحاول أن يبطل آثارها فى تطور الفضائل والآداب.

واليهودى أو نصف اليهودى سارتر وراء الوجودية، التى نشأت معززة كرامة الفرد، فجنح بها إلى إباحة حيوانية تصيب الفرد والجماعة معاً بآفات القنوط والضياع والانحلال.

والوجودية بعد ذلك: محاولة لتفسير الإنسان بالاستقلال عن المقولات العلمية؛ بل والاستقلال عن المقولات الدينية الخاصة، أو بعبارة أخرى: فإنها تستبعد فى مذهبها الفكرى: وجود إله، وتعتمد على التفسير المادى للكون(٣).

ويذكر العلماء: أن الذين درسوا تاريخ هؤلاء الوجوديين؛ تبين لهم أن ظروف حياتهم هى التى أملت عليهم هذا الاتجاه فى التفكير. فقد كان - كير كجارد - منطوياً على نفسه منعزلاً؛ ولذلك حلل الوجود البشرى تحليلاً يعيش فى جو الحصر النفسى، والتمزق الداخلى، والشعور بالخطيئة. وكذلك سارتر إذ اهتم اهتماماً كبيراً باعتباره داخلاً فى نسيج الوجود. فالفرد عنده يعيش فى مواقف تتصف بالتمييع، ويحاول أن يتخطى حدود نفسه ويخدعها، ومن أجل أن وجوده مرتبط بوجود الآخرين، يرى: تصارع إرادتهم مع إرادته فى جو كله غثيان، والفرد يسعى جاهداً إلى تحقيق رغباته، لكن ذلك غير ممكن؛ لأن

---

(١) المصدر السابق، ص: ٣١ بتصرف.

(٢) عباس محمود العقاد: «بين الكتب والناس»، ص: ٣١-٣٣، باختصار.

(٣) د. عبدالمعطى بيومى: «الله والفلسفة بين الفلسفة والدين»، ص: ٤١٦-٤١٧، بحث فى حولية كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، بجامعة قطر، العدد: الرابع، سنة: ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

إمكاناته لا تسعفه[1]. لأن الوجودية فى جملتها نوعاً مفرطاً من الأنانية.. إنها عداء للمجتمع الذى تراه، عذاباً وحرباً على الفرد، وعداء للقانون، وعداء للدين الذى يفرض مثاليات - مهما كانت هذه المثاليات - على الإنسان الفرد، ولا يخفى ما تنطوى عليه هذه الدعوة من أضرار وخيمة:

أولاً: هى تعزل الفرد وتبالغ فى حريته وإرادته، حتى تكاد تلغى أى سلطان آخر على الفرد من دين، أو نظام، أو عادات، أو أعراف، أو تقاليد.

ثانياً: هى تهز أسس المجتمع، وتعرض أمنه للخطر، بنظرة الفرد للمجتمع نظرة عدائية، باعتباره عذاباً وجحيماً للآخرين.

ثالثاً: هى لا تحاول أن توفق بين نزعات الفرد والمجتمع، فللمجتمع حق على الأفراد، يهبونه عن طيب خاطر من حرياتهم وآماليهم وأطماعهم الفردية، حتى تتسق الحياة، وينتظم دولاب العمل، وهم لا يؤمنون بذلك، وإذا حاولوا أن يطمسوا معالم هذا الزعم الأنانى، فإن ذلك يكون فى عبارات ملتوية، وتفسيرات عاجزة، لا تنهض مع أسسهم الفكرية.

رابعاً: وكان من جراء دعوتهم إلى الحرية المطلقة نشوء عديد من الانحرافات السلوكية، والانحلال الأخلاقى، وتحوير معانى الفلسفة الوجودية إلى ضرب من الإلحاد والضياع والفوضى والتحلل، وإطلاق الغرائز البهيمية، كالغيلان المسعورة[2].

ويمكن أن يحدد الإنسان أهم الصفات المميزة للوجوديين فيما يأتى:

- الإيمان بأن التجربة الفردية هى: أساس المعرفة، وليس العقل أو غيره موصلاً إلى معرفة الحقيقة.

- الإغراق فى تقديس الحياة الشخصية فكراً وسلوكاً، وعدم الاهتمام بالآخرين بقدر الاهتمام بالنفس؛ ولذلك كثر فيهم الشذوذ والتطرف والآراء الغريبة.

(١) مشيخة الأزهر، بيان للناس، ج:٢، ص: ٦١.

(٢) نجيب الكيلانى: «الإسلام والقوى المضادة»، ص: ٩٩-١٠٠، بتصرف واختصار.

- التشاؤم والقلق والتمزق، فالوجودى يحاول أن يخلع نفسه من نفسه، ليعيش نفساً أخرى[1].

ويمكن للباحث أن يعرض لبعض الأفكار والمعتقدات، التى جاء بها الوجوديون، والتى تمثل معوقاً خطيراً أمام انتشار الإسلام، ومعول هدم لليقظة والصحوة والمسيرة الإسلامية؛ لنتبين الأخطار التى تحدق بالإنسانية من جراء هذه الفلسفة المارقة.

- إنهم يكفرون بالله - سبحانه وتعالى - ورسله - عليهم السلام - وكتبه، وبكل الغيبيات، وكل ما جاءت به الأديان، ويعدونها معوقات أمام الإنسان نحو المستقبل، وقد اتخذوا الإلحاد مبدأ. ووصلوا إلى ما يتبع ذلك وينجم عنه من نتائج مدمرة.

- يؤمنون إيماناً مطلقاً بالوجود الإنسانى، ويتخذونه منطلقاً لكل فكرة.

- يعتقدون بأن الإنسان أقدم شىء فى الوجود، وما قبله كان عدماً، وأن وجود الإنسان سابق لماهيته.

- يعتقدون بأن الأديان والنظريات الفلسفية التى سادت خلال القرون الوسطى والحديثة، لم تحل مشكلة الإنسان.

- يقولون: إن على الإنسان أن يطرح الماضى، وينكر كل القيود دينية كانت أم اجتماعية أم فلسفية أم منطقية.

- لا يؤمنون بوجود قيم ثابتة، توجه سلوك الناس وتضبطه؛ إنما كل إنسان يفعل ما يريد، وليس لأحد أن يفرض قيماً أو أخلاقاً معينة على الآخرين[2].

أن الوجودية - كما ترى - : تجرد الإنسان من كل ثقة فى الحياة، وتهدم كل أساس ينطلق منه العمل، وأن للوجوديين تعبيرات غريبة عن التجربة الفردية التى يعيشونها[3].

---

(١) مشيخة الأزهر، بيان للناس، ج:٢، ص: ٦١.

(٢) الندوة العالمية للشباب الإسلامى، الموسوعة الميسرة، ص: ٥٤٣.

(٣) مشيخة الأزهر، بيان للناس، جـ:٢، ص: ٦٢.

وإن الناظر فى هذا الفكر يراه مخالفاً للإسلام؛ وذلك لما يأتى:

١ - أن الإسلام يقوم على الإيمان بوجود الله - سبحانه وتعالى - وبالحياة الآخرة، فالوجود الزمنى فى الدنيا معه وجود آخر دائم بعد الموت، فالعدم ليس نهاية الوجود كله؛ بل إن الحياة الآخرة خير لمن اتقى واستقام أمره.

٢ - ليست وسائل المعرفة الصحيحة قاصرة على إحساس الفرد نفسه بما يعانيه من تجربة، فهناك العقل، وميدان التفكير واسع غير محدد، وهناك الوحى المنزّل من عند الله - تعالى - على رسله - عليهم أفضل الصلاة والتسليم - .

٣ - ليست الحرية الشخصية فى الإسلام أو فى أى دين آخر، بل فى أى تشريع أو عُرف حرية مطلقة بغير حدود. فهناك ضوابط موضوعة لاستقامة السلوك، وللمحافظة على حقوق الآخرين ضرورة أن الإنسان مدنى بطبعه، ولابد أن يعيش فى مجتمع له حقوق، ومعلوم أن الأهواء الشخصية مختلفة، وفى بعضها تضارب كبير. والإنسان كالحيوانات التى تسيرها غرائزها فى أكثر أحوالها.

٤ - الإسلام لا يرضى التشاؤم المطلق أو اليأس المقنط، بل فتح باب الأمل ودعا إلى النشاط والعمل ووعد، بالعفو عن المسىء، إذا أناب إليه، وباليسر والفرج لمن توكل عليه، وآمن برحمته وحكمته، وهو يباشر نشاطه المأمور به(١).

فالإسلام يؤمن بإرادة الإنسان السوى الحر، والإسلام لا يشعل حرباً بين الفرد والمجتمع، وإنما يعقد بينهما نوعاً من الوئام والمصالحة والتنسيق، فيعطى للفرد حقه ويطالبه بأداء واجبه، وللفرد ذاته وفرديته التى تكون لبنة سوية فى بناء المجتمع الشامخ، والمجتمع مجموعة الأفراد، فهما بهذا يكونان شيئاً واحداً كالجسد الواحد(٢).

ولا شك أن من أخطر المعوقات فى سبيل تقدم الإسلام: أن تنتشر أفكار وفلسفات وأنماط سلوك وضعية هى نتاج عقول تخطىء وتصيب وهى نضج لمعاناة شخصية فى ظروف خاصة.

---

(١) المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

(٢) نجيب الكيلانى: «الإسلامية والقوى المضادة»، ص: ١٠٣-١٠٤.

ولا يخفى أن الوجودية مركز خطر من مراكز الغزو الفكرى للعالم الإسلامى تمد تيارات العداء للإسلام بكل المقومات التى تدفع نحو غايته[1].

لقد وجدت الوجودية من يروّج لها فى المحيط الإسلامى ويصبغها بصبغة خادعة، حتى تقبل فى الجو الإسلامى بإضفاء الشرعية العقدية عليها من الإسلام، وهى مذهب إلحادى ينكر الإلهية والأديان، ويحطم مناهج العقل ويرفض الإنسان، ويلحقه بأحط الموجودات وأحياناً يجعله أقل منها[2].

---

(١) د. عبدالحليم محمود: «الغزو الفكرى»، ص: ١٦٦.

(٢) د. مصطفى غلوش: «الوجودية فى الميزان»، ص: ٦٤-٦٥، ط: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، بالقاهرة، سنة ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

أهداف الغزو الفكرى

سوق الأفكار أخطر أسواق المنتجات، وأكثرها تقبلاً للتزييف والإفساد، ومن ثم حفلت أسواقنا، بما هو أشد فتكاً من السم، وأعظم انتشاراً من الهواء. يتخلل كل خلية وينخر فى كل بناء. أفكار ترتدى أثواباً، أو تحمل شعارات، أو ترفع مشاعل. ليس الثوب فيها، أو الشعار أو المشعل، إلا قناعاً يستر الزيف الخطر[1].

إن هذا الغزو الفكرى الذى يجتاح الشعوب الإسلامية يهدف فيما يهدف إلى:

١ - أن تظل الشعوب الإسلامية خاضعة لنفوذ القوى المعادية لها.. تلك القوى التى تتمثل فى عدد محدود من الدول الكبيرة، التى تحمى بعضها بعضا، ويتبادل ساستها الدفاع عن المصالح، التى تهم أى طرف من أطرافها.

٢ - أن تظل بلدان العالم الإسلامى خصوصاً، والعالم النامى عموماً تابعة لتلك الدول الكبيرة المتقدمة، تبعية غير منظورة، وفى هذه التبعية يكمن دهاء تلك الدول المتبوعة وذكاءها فليس أقتل للشعوب من أن تحس بالحرية والاستقلال بينما هى ترسف فى قيود الذل والتبعية. وليس أضيع لمستقبل أمة من أن تعجز عن أن تخطط لمستقبلها ومصيرها إلا وهى دائرة فى فلك دولة كبيرة واهمة ذاهلة عن حقيقة ما تعنيه من تبعية.

٣ - أن تتبنى الأمة الإسلامية أفكار أمة أخرى من الأمم الكبيرة دون نظر فاحص، وتأمل دقيق، مما يؤدى إلى ضياع حاضر الأمة الإسلامية فى أى قطر من أقطارها، وتبديد لمستقبلها فضلاً عما فى ذلك من صرف عن منهجها وكتابها، وسنة رسولها.. وما يترتب على هذا الصرف من ضياع. إذ لا يوجد مذهب

(١) انظر: الدكتور على عبدالحليم محمود: «الغزو الفكرى والتيارات المعادية»، ص: ٦٥.

سياسى أو اقتصادى أو اجتماعى يغنى الأمة الإسلامية عن منهجها الإلهى ونظامها الشامل المتكامل فى كل زمان ومكان.

٤ - أن تتخذ الأمة الإسلامية مناهج التربية والتعليم لدولة من هذه الدول الكبيرة فتطبقها على أبنائها وأجيالها فتشوه بذلك فكرهم وتمسخ عقولهم وتخرج بهم إلى الحياة وقد أجادوا بتطبيق هذه المناهج عليهم شيئاً واحداً هو تبعيتهم لأصحاب تلك المناهج الغازية أولاً ثم يلتبس الأمر عليهم بعد ذلك فيحسبون أنهم بذلك على الصواب ثم يجادلون عما حسبوه صواباً ويدعون إليه، وهم بذلك يؤكدون تبعيتهم من جانب آخر فيعيشون الحياة وليس لهم منها إلا حظ الأتباع والأذناب.

٥ - أن يحول العدو بين الأمة الإسلامية وبين تاريخها وماضيها وسير الصالحين من أسلافها ليحل محل ذلك تاريخ تلك الدول الكبيرة الغازية وسير أعلامها وقادتها.

٦ - أن تزاحم لغة الغالب لغة المغلوب فضلاً عن أن تحل محلها أو تحاربها بإحياء اللهجات العامية أو الإقليمية وما دام الإنسان لا يفكر إلا باللغة فإن إضعاف لغة أمة هو إضعاف لفكرها.

٧ - أن تسود المغزوة أخلاق الأمة الغازية، وعاداتها وتقاليدها[١].

٨ - تصوير تراث الأمة الإسلامية بصورة التخلف وعدم قدرته على إمداد الحضارة بشيء مفيد وأنه لم يكن له الفضل على الحضارات التى جاءت بعده.

٩ - إحياء الجوانب الضعيفة فى التراث الإسلامى خاصة فيما يتعلق بالخلافات السياسية التى وقعت بين المسلمين أنفسهم والتركيز على دعوات الحركات الباطنية وإخراجها بصورة جميلة مضيئة ووصف هذه الدعوات بأنها كانت تحمل فكراً عالياً وفلسفة عميقة[٢].

---

(١) انظر: الدكتور على عبدالحليم محمود: «الغزو الفكرى والتيارات المعادية للإسلام»، ص: ٨-١٠ بتصرف.

(٢) إبراهيم النعمة: «المسلمون أمام تحديات الغزو الفكرى»، ص: ٣٠.

١٠ - إضعاف مُثل الإسلام وقيمه العُليا من جانب وإثبات تفوق المثل الغربية وعظمتها من جانب آخر، وإظهار أى دعوة للتمسك بالإسلام بمظهر الرجعية والتأخر.

١١ - تشكيك المسلمين بقيمة تراثهم الحضارى بدعوى أن الحضارة الإسلامية منقولة عن حضارة الرومان، ولم يكن العرب والمسلمون إلا نقلة لفلسفة تلك الحضارة وآثارها.

١٢ - إضعاف روح الإخاء الإسلامى بين المسلمين فى مختلف أقطارها عن طريق إحياء القوميات التى كانت لهم قبل الإسلام. وإثارة الخلافات والنعرات بين شعوبهم[١].

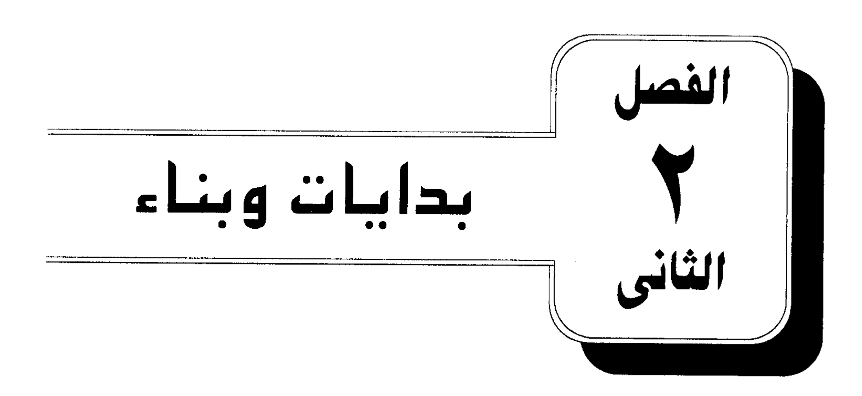
١٣ - اقتلاع العقيدة الإسلامية من قلوب المسلمين وصرفهم عن التمسك بالإسلام نظاماً وسلوكاً.

١٤ -تفريغ العقل والقلب من القيم الأساسية المستمدة من الإيمان بالله ودفع القلوب عارية أمام عاصفة هوجاء تحمل معها السموم عن طريق الصحافة والمسرح والفيلم والأزياء والملابس.

---

(١) أنور الجندى: «شبهات التغريب فى غزو الفكر الإسلامى»، ص: ١٨.





الفصل ٢ الثانى

بدايات وبناء



تمهيد

بعد أن اتضحت لنا أبعاد «الغزو الفكرى» وتياراته، وحركاته التى تعمل ليل نهار، يبقى أمامنا السؤال الكبير: ماذا فعلنا نحن؟ ما موقفنا من الغزو الفكرى؟ إن جزءاً كبيراً من الغزو الفكرى، وهو حركة فكرية هائلة وما تنتجه هذه الحركة يخصنا نحن المسلمين ويخص عقيدتنا ولغتنا وتراثنا وتاريخنا وذاتيتنا.

وإن جزءاً كبيراً من الغزو الفكرى حركة عملية هائلة تأخذ المواقع وتسيطر على القلوب.

والغزو الفكرى بحركته الفكرية والعملية من أخطر ما نواجه فى حياتنا لأن ما يقوم به من أهداف تقوض الدعائم يتعلق بأعمق أعماقنا عقدياً وفكرياً وحضارياً. وليس هناك أمام المسلمين من سبيل إلا المواجهة وقبول التحدى وإثبات الذات وإلا فلسنا جديرين بالحياة.

ولا يخفى على أحد أن السعى إلى إثبات الذات والعمل على مواجهة هذه التحديات والتيارات الغازية دليل صحة ودليل صحوة. . . . إذن لا بد من منهج.

والمنهج الصحيح هو أن نواجه الفكر بالفكر والعمل بالعمل. ولكن قبل أن نواجه الغزو الفكرى لا بد من بناء شخصيتنا وتحصين أنفسنا لنصبح ممنوعين من تأثير الغزو ليست عندنا قابلية له. . وإذا تحصنا لم يعد للغزو تأثير فينا. ولعل أخطر ما استهدفه الغزو الفكرى الذى تسلط على المجتمعات الإسلامية هو هدم شخصية المسلمين هدماً عقدياً وثقافياً وفكرياً.

ولا يخفى أن انهدام الشخصية يساعد على قبول الزيوف والأباطيل كما يدفع إلى التبعية والذوبان.

ولهذا كان لا بد لنا إذا رغبنا أن لا تؤثر فينا مخططات المتربصين أن نبنى شخصيتنا بحيث تكون مصبوغة بصبغة الإسلام وموسومة بميسم الإيمان،

والشخصية المصبوغة بالإسلام والموسومة بميسم الإيمان شخصية إيجابية تعيش فى حركة فكرية ونفسية وجسدية بناءة تعطى وتأخذ وتعطى أكثر مما تأخذ.

ولا شك أن إدراكنا لضرورة الإسلام لنا ولغيرنا يفتح أعيننا على مكانتنا كما ينبهنا إلى موقعنا ومركزنا.

وجدير بنا ونحن نخطو على مجد نسعى إليه أن نتعرف على حقيقة الإيمان فإذا وقفنا على الحقيقة وتعلقنا بها كان لنا دور.

ومن شأننا ونحن نتابع الخطى أن نعرف ما الذى نأخذه من الأمم غيرنا وما الذى لا يصلح لنا.

ويجب أن ندرك أن إعداد القوة ضرورة من ضرورات الحياة حتى يتم النمو ويكمل البناء.

ضرورة الإسـلام

إن الإنسان آية الله فى خلقه طبعه ربه على هذا النحو العجيب وفطره على هذه الصبغة الفذة مقترنة بعديد من الغرائز والميول، وحينما تشده الأولى إلى إزكاء النفس واستواء الفطرة وقصد السبيل فإن الثانية تشده إلى النقيض تماماً بتمام. وبين هذا وذاك يتطلع الإنسان ويرنو إلى ما يحفظ عليه نقاء معدنه، وصفاء جوهره، وزكاة نفسه، وطهارة قلبه، واعتدال خلقه، وقصد سلوكه. ويجعله على طول الخط سوى المنهج قويم السبيل زكى الباعث نبيل المقصد، متعلقاً بمعالى الأمور، نائياً عن سفافها يتطلع إلى ذلك ويهفو إليه، فلا يجده إلا فى رحاب الإيمان بالله وأحضان الطاعة له وظلال القرب منه.

والإنسان بفطرته لا يملك أن يستقر فى هذا الكون الهائل فلا بد له من رباط معين بهذا الكون، يضمن له الاستقرار فيه ومعرفة مكانه فى هذا الكون الذى يستقر فيه[1]، فلا بد له إذن من عقيدة تفسر له ما حوله، وتفسر له مكانه فيما حوله، فهى ضرورة فطرية، شعورية، تقوم بالتأصيل لجوهر الفطرة، ومتابعة بعثها لضمان استمرار حركتها وعملها وانطلاقها.

ومن هنا: كانت حاجة الإنسان إلى العقيدة حاجة فطرية، مركوزة فى فطرته، ومغروسة فى شعوره ومخلوطة بدمه وعصبه، ولكنه قد يضل عن إدراك هذه الحقيقة، فيشقى ويحار، ويفقد الاستقرار[2].

هذه الحاجة الفطرية فى الإنسان إلى العقيدة، هى التى يتحقق بها إدراك الإنسان لحقيقة مقامه فى هذه الحياة ورسالته وعمله ودوره[3].

---

(١) د. أحمد السايح: «العقيدة فى الإسلام»، مجلة جوهر الإسلام، العدد الثانى والثالث، ص: ١٦ من السنة الثانية ١٣٩٦هـ، تونس.

(٢) المصدر السابق.

(٣) أحمد محمد جمال الدين: «فطرة وميثاق»، كتاب ندوة المحاضرات لموسم حج سنة: ١٣٨٩هـ، ص: ٢٠٠، ط: العالم الإسلامى، بمكة المكرمة.

وقد أودع الله - سبحانه وتعالى - فى الإنسان، ما يستطيع به إدراك الحقائق الكبرى فى الوجود[١] وندبه الله - سبحانه وتعالى - للقيام بمهمة التعرف على هذه الحقائق، التى يراها الحس والعقل والوجدن، فى الآفاق وفى النفس، وفى كل شىء[٢]، ففى الأرض آيات للمؤمنين، وفى السماء مثلها وأعظم. فالفطرة الإنسانية السليمة، هى التى تتوجه إلى الكون، بروح متفتحة، تكشف ما فيه من قصد، وتصميم وإبداع، وتنتهى إلى إدراك مكانها من هذا الوجود وتحديد كيفية سلوكها فيه، ومن خلال هذا التصوير تتحدد علاقة الإنسان بربه - عز وجل -[٣].

فالإنسان لا غنى له عن الدين، لأنه يحسه فى نفسه، شعوراً ووجداناً ويشير إلى هذا الشعور ما رواه أبو هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة»[٤].

وقول الله تعالى: ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ** ﴾ (الأعراف: ١٧٢-١٧٣).

ففى هذه الآية: بيَّن الله - تعالى - أنه أخرج من صلب آدم وبنيه ذريتهم نسلاً بعد نسل، على هيئة ذر، وذلك قبل خلقهم فى الدنيا وأشهدهم على أنفسهم قائلاً لهم: ألست بربكم، فأجابوا: «بلى شهدنا» بذلك، فالله - سبحانه وتعالى - أشدهم على ربوبيته، حتى لا يقولوا يوم القيامة: إنا كنا على هذا التوحيد غافلين، أو غير عالمين[٥].

---

(١) قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ سورة النحل، آية ٧٨.

(٢) قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ سورة فصلت، آية ٥٣.

(٣) د. عبدالكريم عثمان: «معالم الثقافة الإسلامية»، ص: ١٦، ط: الثالثة، مؤسسة دار الأنوار، بالرياض، سنة: ١٣٩٤هـ.

(٤) رواه البخارى فى مواضع من صحيحه.

(٥) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص: ٥٠٠-٥٦٠.

فالإيمان بالله فطرة فطر الناس عليها، وإنما يضلون عنها بعض الوقت، أو كل الوقت، ثم يعودون إليها، ولو عند فراق الحياة، أو عند نزول الكوارث والأحداث، فقد كان فرعون يدعى الألوهية، ويقول لقومه: ﴿ .... أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ﴾ (النازعات: ٢٤). وسام بنى إسرائيل سوء العذاب، وكفر بموسى، وإله موسى، ولكنه عندما أدركه الغرق قال: ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (يونس: ٩٠).

والمشركون بالله، والكافرون به، فى كل الأجيال، كانوا يعبدون الأصنام، ويستقسمون بالأزلام. فإذا مسهم الضر فى البر، أو فى البحر، لجأوا إلى الله يدعونه ويسألونه النجاة ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾ (يونس: ١٢).

ومن هذا يتبين: أنه يوجد فى طبيعة تكوين الإنسان استعداد فطرى لمعرفة الله وتوحيده، فالاعتراف بربوبيته متأصل فى فطرة الإنسان، وموجود فى أعماق روحه، فقد أنشأهم الله على الاعتراف بالربوبية له وحده. «فالاعتراف بربوبية الله وحده، فطرة فى الكيان البشرى، فطرة أودعها الله الخالق فى هذه الكينونة، وشهدت بها على نفسها بحكم وجودها ذاته. وحكم ما تستشعره فى أعماقها من هذه الحقيقة، فالتوحيد ميثاق معقود بين فطرة البشر، وخالق البشر، منذ كينونتهم الأولى»[1].

والوجود كله عابد بطبيعته، منصاع لوظيفته، لا يسعه إلا أن يطيع ربه فى ولاء لا يشوبه استنكاف، ولا يطاوله تأب، بل إنه جميعاً من أعلاه إلى أسفله يهتف فى البداية بلغة المقهور أمام عظمة القاهر. وهتاف العابد تجاه قدسية المعبود بما سجله الحق فى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ (فصلت: ١١).

والإنسان وإن كان من طبعه أن ينسى أحياناً، وأن يغفل، وأن يجحد أحياناً، وأن يكفر، لأن امتزاج الروح بالجسد، وانشغال القلب بمطالب جسده، ومطالبه

(١) سيد قطب: «فى ظلال القرآن»، ج٣، ص: ١٣٩١هـ.

المختلفة، التى تستلزمها حياته فى الدنيا، وعمارة الأرض، قد جعلت من معرفة الإنسان بربوبية الله، واستعداده الفطرى للتوحيد، عرضة لأن تطمره الغفلة، ويغمره النسيان، ويطويه اللا شعور فى أعماقه، ويصبح الإنسان فى حاجة إلى ما يوقظ هذا الاستعداد الفطرى، ويبعد عنه النسيان، ويبعثه من أعماق اللا شعور، فيظهر جلياً واضحاً فى الإدراك، والشعور، ويتم ذلك عن طريق تفاعل الإنسان مع الكون[1] وتلك فطرة الله الناس عليها، وصبغة صبغهم بها، لا فكاك لهم منها، ولا شذوذ لهم عنها.

فعاطفة التدين، أو الاعتقاد بدين من الأديان، أمر غريزى، ويشترك بين الناس عامة فى كل عصر ومكان، فإنه لم تخل جماعة من الناس فى أى زمان، من عقيدة دينية على نحو ما - «وقد أثبت التاريخ أنه قد وجد فى الماضى السحيق جماعات إنسانية من غير فلسفات وعلوم وفنون. ولكن لم توجد قط جماعة إنسانية من غير دين»[2]، إذن لا بد فى حياة الناس من نظم تلم شتاتها، وترفه حياتها، وتضمن لها أسباب النهوض والتقدم، ويعيش الناس فى ظل هذه النظم على قواعد الحق والعدل، فى أمن وسلام، وقد كرّم الله الإنسان بالعقل لكنه أودع فيه نفساً أمارة بالسوء، وهو يعيش فى صراع بين عقله الهادى إلى الصلاح، ونفسه الأمارة بالسوء، فكان من تمام نعمته عليه، أن وضع له النظم التى توصله إلى التغلب على النفس، وسد منافذ الشيطان إليها، فحمّله أمانة التكليف، وأخذ عليه العهد، بأن يعبده، ولا يشرك به شيئاً، وأمده بهداية الرسل - عليهم الصلاة والسلام[3] -.

إذن «لكى تتحقق الحكمة الإلهية فى خلق الإنسان، ويتبين المصداق الحق لقوله تعالى إرشاداً للملأ الأعلى: ﴿ .. **قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾ (البقرة: ٣٠)

---

(١) د. محمد عثمان نجاتى: «القرآن وعلم النفس»، ص: ٤٧، بتصرف يسير، ط: دار الشروق بالقاهرة، سنة ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.

(٢) د. محمد يوسف موسى: «الإسلام والحياة»، ص: ٧، ط: مكتب وهبة بالقاهرة، سنة: ١٣٨٠هـ-١٩٦١م.

(٣) د. شوكت محمد عليان، الثقافة الإسلامية وتحديات العصر»، ص: ١٢٦، ط: دار الرشد بالرياض، سنة: ١٤٠١هـ-١٩٨١م.

كان لا بد لقوة الخير فى الإنسان من مدد يعينها على سد منافذ الشر والطغيان»[1].

ومن هذا يتبين: أن الدين للإنسان من الشئون الضرورية التى لا حياة له إلا بها[2] والله - سبحانه وتعالى - قد خلق الناس، ولم يتركهم وشأنهم، بل اختار لهم نظماً وأحكاماً، تسعدهم فى الدنيا والآخرة، وذلك لأن الإنسان عاجز عن إدراك المغيبات، ويتأثر تفكيره بمؤثرات من الزمان، والمكان، والمجتمع، وهو عاجز عن حمل غيره على طاعته، لعدم قدرته على القهر الذى يحمل الناس على كامل الطاعة، ولهذا جعل الله - سبحانه وتعالى - فى كل أمة رسولاً منها، وأيده بالمعجزات، وأمده بتعاليم السماء، لينشر الخير، ويعالج الشر ﴿**لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً**﴾ (النساء: ١٦٥)، وقد شرع الله - تعالى - لخلقه ما يناسب حالهم، ويتلاءم مع ظروف حياتهم، وقوة إدراك عقولهم، وقوة احتمالهم[3].

وإذا كان الدين والتدين أمراً غريزياً وفطرياً فى الإنسان، فى كل زمان - كما عرضنا - فإن الدين الإسلامى هو: الدين الحق، الذى رضيه الله - تعالى - للناس جميعاً. والآية الكريمة التى عدت الدين عند الله الإسلام: ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ...**﴾ (آل عمران: ١٩) تعنى: مجموعة المبادىء الإسلامية وتعاليم الإسلام.. فالإسلام مر بمراحل كثيرة عبر أنبياء الله ورسله، إلى أن انتهى إلى المرحلة المتكاملة فى رسالة محمد ﷺ التى جاءت إلى الإنسانية كلها - إذن - رسالة الإسلام هى الإسلام الشامل للإنسانية، فى وحدة إيمانها بالله، قال تعالى: ﴿**..الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً..**﴾ (المائدة: ٣)، ولهذا كان الإسلام يشتمل على امتداد زمانى فى المعتقد الدينى يعرض لقضية البشرية من نشأتها إلى غايتها، ويشتمل على شمول يضم الأديان كلها، ويدعوها إلى تصحيح معتقداتها»[4].

(٢) محمد شلتوت: «من توجيهات الإسلام»، ص: ١٩، ط: مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، سنة: ١٣٧٩هـ-١٩٥٩م.

(٢) المصدر السابق، ص: ١٤.

(٣) د. شوكت عليان: «الثقافة الإسلامية وتحديات العصر»، ص: ١٢٧.

(٤) د. أحمد السايح: «الفضيلة والفضائل فى الإسلام»، ص: ٣٠، ط: مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، سنة: ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.

فالديانات وإن تعددت فى الفروع والتكاليف والأعمال، فقد اتحدت فى المصدر الذى صدرت عنه، وهو الله - تعالى - واتحدت - أيضاً - فى الأصل الذى دعت إليه، وهو التوحيد.

فالقدر المشترك بين الديانات جميعاً هو: تصحيح العقيدة أولاً، ثم معالجة الأمراض الخلقية والاجتماعية الموجودة فى تلك البيئات، قال تعالى: ﴿ولَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ..﴾ (النحل: ٣٦)، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: ٢٥) وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ..﴾ (الشورى: ١٣).

ولقد جاء الإسلام فى جانبه الإيمانى، يؤكد هذه الأسس، التى أكدها كل نبى، ولكنه فى الجانب الذى يستتبع الشريعة، جانب الالتزام والعمل، كان الإسلام الفصل الأخير فى تكامل التشريعات.

وهذا الطابع الشمولى الملتقى فى أسس العقيدة، والمتكامل فى التشريع، هو الذى جعل من الإسلام الصيغة الوحيدة الباقية المستمرة أبد الدهر، ولعل هذا هو السر الذى جعل من الإسلام كلمة تختص بالدين الذى جاء به رسول الإنسانية محمد ﷺ[١].

وكلمة الإسلام، وفى الإطار اللفظى تعنى: التسليم والخضوع، وفى مفهوم الدين يراد منها: التسليم، والخضوع لله وحده لا شريك له، وبهذا المعنى، أطلقت على كل من آمن بالله من أصحاب الأديان السماوية الحقة، هم مسلمون بهذا المعنى[٢].

ووحدة الإيمان حقيقة تفرضها وحدة المصدر بصورة قاطعة، لا تقبل الجدل أو التشكيك، ولا يغير من واقعها وجود فواصل البعد الزمنى بين الأنبياء، الذين أرسلهم الله إلى عباده[٣].

---

(١) د. أحمد السايح: «الفضيلة والفضائل فى الإسلام»، ص: ٢٨-٢٩.

(٢) المصدر السابق، ص: ٢٩ بتصرف.

(٣) المصدر السابق، ص: ٢٩.

فالإيمان بالله - سبحانه وتعالى - ليس غريزة فطرية فقط، بل هو ضرورة، فالدين عنصر ضرورى، والإنسانية بحاجة إليه، للكمال النفسى، والروحى. فالإنسان جسم وروح، والجسم يتغذى بالطعام، والشراب، بينما تتغذى الروح بالإيمان، والعقيدة، وعلى ذلك فالإسلام منهج شامل لأمور الدنيا والآخرة، محقق لمصالح الفرد والجماعة، قوامه الشريعة والعقيدة والأخلاق، فليس ديناً فقط، ولكنه دين ونظام حياة، لا تنفصل فيه العلاقة بين الله والإنسان، عن الصلة بين الإنسان والإنسان، وهو ينظمها جميعاً.

فالعقيدة الإسلامية ضرورة للإنسان، وذلك لرفع مستواه والمحافظة عليه من الانحراف المادى والإلحادى.

ومن القواعد المقررة أن الإنسان مدنى بطبعه، ومعنى ذلك أن الإنسان بفطرته، يميل إلى التعارف، والتعايش مع غيره، ولذلك جعل الحق - سبحانه وتعالى - التعارف بين الناس، من أهم أسباب خلقه لهم، إذ قال سبحانه وتعالى: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾** (الحجرات: ١٣)، هذا التعارف ليس مقصوداً لذاته، وإنما جعل أولاً غذاءاً لطبيعة الإنسان، وثانياً: وسيلة للتعارف على كل ما فيه إسعاد البشرية، وتحقيق حياة أفضل لأفرادها فى جانبها المادى والفكرى، يبين ذلك الفكر محمد عبدالله دراز، فيقول: «إنه لا قيام للحياة فى الجماعة، إلا بالتعاون بين أعضائها، وهذا التعاون إنما يتم بقانون ينظم علاقاته، ويحدد حقوقه وواجباته، وهذا القانون لا غنى له عن سلطان نازع، ووازع، يكفل مهابته فى النفوس، ويمنع انتهاك حرماته»[1].

وعلى ذلك نستطيع أن نقرر - دون أن نجانب الصواب - أنه ليس على وجه الأرض قوة تكافىء قوة التدين، أو تدانيها فى كفالة احترام شرع الله، وضمان تماسك المجتمع، واستقرار نظامه، والتئام أسباب الراحة، والطمأنينة فيه. والسر فى ذلك، أن الإنسان يمتاز عن سائر الحيوانات الحية، بأن أفعاله وأعماله الاختيارية يتولى قيادتها شىء لا يقع عليه سمعه ولا بصره، ولا يوضع فى يده، ولا فى عنقه،

(١) د. محمد عبد الله دراز: «الدين»، ص: ٩٨.

ولا يجرى فى دمه، ولا يسرى فى عضلاته وأعصابه، وإنما هو معنى إنسانى روحانى اسمه الفكر والعقيدة. وقد ضل قوم قلبوا هذا الوضع، وحسبوا أن الفكر والضمير لا يؤثران فى الحياة المادية والاقتصادية، بل يتأثران بها(١).

وليست قوانين الجماعات، ولا سلطان الحكومات بكافيين وحدهما لإقامة مدينة فاضلة، تحترم فيها الحقوق، وتؤدى الواجبات على وجهها الكامل، فإن الذى يؤدى واجبه رهبة من السوط أو السجن، أو العقوبة المالية، لا يلبث أن يهمله متى اطمأن إلى أنه سيفلت من طائلة القانون.

والقانون إما إلهى، أو وضعى: لأن لكل حضارة شطرين: شطراً روحياً، وشطراً مادياً، فالشطر المادى يعتمد على الحس والعقل، وليس الأمر كذلك، فيما يتعلق بالشطر الروحانى أو النظرى.

والشطر النظرى: العقيدة والأخلاق، والتشريع، ونظام المجتمع(٢)، ولذلك جاءت العقيدة الإسلامية كاملة هادية فى الجانب النظرى، فشملت التشريع، والأخلاق، ونظام المجتمع، ومن خصائص الوحى فيما يتعلق بالتشريع: أنه هاد للعقل، وكما أن الدين هادٍ للعقل، كان لا بد فى استخدام العلم، من رقيب أخلاقى يوجهه لخير الإنسانيةِ، وعمارة الأرض، لا إلى نشر الشر والفساد، ذلكم الرقيب هو: العقيدة والإيمان.

ولا يخفى على أهل العلم: «أن من الخطأ المبين، أن يظن بعض الناس أن فى نشر العلم والثقافات وحدها ضماناً للسلام، والرخاء، وعوضاً عن التربية والتهذيب الدينى والخلقى»(٣) ذلك «أن العلم سلاح ذو حدين، يصلح للهدم والتدمير، كما يصلح للبناء والتعمير»(٤) فكما يستعمل للخير، يستعمل كذلك للشر، فلا بد للعلم من تربية عالية، وتوجيه سديد، وإيمان راسخ يوجه المجتمع، وذلك أن وظيفة العلم محصورة فى الجانب الحسى المحض. فهو يقف عند حدود

---

(١) المصدر السابق، ص: ٩٨.

(٢) د. عبدالحليم محمود: «الإسلام وتنظيم المجتمع»، ص: ٥، ط: دار الكتاب العربى بمصر.

(٣) د. محمد عبدالله دراز: «الدين»، ص: ٩٩.

(٤) المصدر السابق، ص: ٩٩.

لا يتجاوزها، بينما وظيفة الدين فى الحياة ذات مجال رحب. فالإسلام بما حواه من هداية إلهية، وتشريعات سماوية، يكفل للمجتمع الإنسانى، كل عوامل السعادة، والأمن والاستقرار، ولا يكون ذلك عن تشريع وضعى، يضعه فرد، أو جماعة معينة، ذلك لأن الإنسان مهما سما فكره، ونضج عقله، لا يمكن أن يحيط بكل ما يوفر للإنسانية أمنها واستقرارها.

لقد بيّن الله - سبحانه وتعالى - بالدين الإسلامى، وهو خاتم الرسالات الإلهية، ما هو حق وخير، فى مجتمع شئون الحياة فهو لم يترك الإنسان سدى، بل بيّن له الرشد من الغى، ووضعه على الجادة الصحيحة، والطريق السوى، فيما يختص بالعقيدة، والسلوك الفردى والاجتماعى، والعلاقات التى تربطه بغيره من الناس جميعاً، فالدين الإسلامى فيه صلاح الناس جميعاً، حتى الذين لم يرزقوا حظاً وافراً من التفكير العقلى السليم، ولذلك كان الوحى الإلهى رحمة عامة لجميع الناس، ولهذا نرى الدين ضرورة اجتماعية كما هو فطرة إنسانية[١].

والله الذى خلق الإنسان، وركب فيه طبائعه ونوازعه، هو الخبير بكل أدوائه، والعليم بوسائل شفائه، هو وحده الذى يقدر أن يضع للجماعات الإنسانية من الشرائع والنظم، ما يحقق لها أسباب السعادة، وجميع وسائل الأمن والاستقرار، وذلك بالدين الذى يدعوها إليه، فهو السلطان المهيمن على نفوس المؤمنين به، يحملهم على الأخذ بتعاليمه، ويدفعهم إلى القيام بما سنّه لهم، من تشريع وتنظيم، ويدفعهم إلى التحلى بالفضائل، ويحول بينهم، وبين ارتكاب الرذائل، وليس هناك وراء الدين شىء يهيمن على النفوس، غير نظام خالق النفوس[٢].

فالإسلام نظام ربانى، يقوم على مبادىء سياسية، رضيها الله لعباده دستوراً يقودهم فى دنياهم إلى حياة كريمة، ويعدهم فى أخراهم لميراث جنة عرضها السماوات والأرض.

---

(١) د. محمد يوسف موسى: «الإسلام والحياة»، ص: ٨.

(٢) د. محمد حسين الذهبى: «الدين والتدين»، دراسة بمجلة البحوث الإسلامية، ج:١، ص:٥٤، الصادرة سنة: ١٣٩٥هـ- ط: دار الإفتاء والبحوث بالرياض.

فالإسلام هو الرابطة التى جمعت البشرية على الإيمان بالله واليوم الآخر، ذلك أن القصد من الدين ليس إلا تزكية النفس، وتطهير القلب، وظهور روح الامتثال والطاعة، واستشعار عظمة الله. وإقرار الخير والصلاح فى الأرض، على أساس قوى متين، من ربط العبد بخالقه[١].

فهو إذن مطلب إنسانى رفيع، يغذى جانب الروح ولا ينسى حاجة العقل، وبعبارة أخرى: هو مطمح العقل، وغاية الروح، وبجانب ما للدين من وظائف نفسية، تجعل منه غذاءاً ضرورياً لقوى النفس، وعصارة مقومة لحيويتها، توجد له وظائف اجتماعية، لا يكون موضوعها الفرد، وإنما يكون موضوعها المجتمع ككل[٢]. وهكذا يتبين للباحثين والدارسين: أن العقيدة الإسلامية تعبر عن حاجات النفس الإنسانية، فى مختلف ملكاتها ومظاهرها. ومن هنا تنبع حاجة البشر إلى الدين، من طبيعة الإنسان نفسه، فقد خلقه الله - تعالى - ومنحه طبيعة الكائن المتكيف، وعلى ذلك فحاجة الإنسانية إلى التدين نبتة فطرية أصيلة ركبت فيه، وفطر عليها، ولذلك يكون الدين هو الرقيب الذاتى داخل النفس، يدفع الإنسان إلى مراقبة الله، الذى يعلم السر، وما تخفى الصدور، فيكون دافع الدين والاعتقاد شاملاً لجميع القوى المختلفة: الجسمية، والروحية، والنفسية، والخلقية والاجتماعية.

فالدين يزكى النفس، ويطرها، ويحول دائماً بين الإنسان، وبين نوازع السوء والضلال فيه، وذلك أنه يشعر دائماً بمراقبة الله له فى كل شىء، ومن هنا تزكو نفسه بفعل الخير وعمله، والبعد عن الشر، وهذا مبلغ ما ينبغى أن تسعى الإنسانية إليه.

فالإنسانية بحاجة إلى الدين، لأنه جزء من فطرة الإنسان، وطبيعته، ولا يمكن لإنسان عاقل أن يستغنى عن جزء من فطرته وكيانه، فهو الوسيلة الوحيدة التى نأمن مخاطرها، ونضمن نتائجها، لتحقيق الحياة الإنسانية.. فالدين يقيم

---

(١) محمود شلتوت: «من توجيهات الإسلام»، ص: ١٨.

(٢) د. محمد عبدالرحمن بيصار: «العقيدة والأخلاق وأثرهما فى حياة الفرد والمجتمع»، ص: ٩٢، ط: الرابعة، الانجلو المصرية بالقاهرة.

نظاماً يدعو إلى الفضيلة واعتناقها، كما يقيم دستوراً حكيماً يحفظ للإنسان إنسانيته، كما يحفظ له نفسه وماله.

وكما أن حاجة الإنسانية إلى الدين لحفظ النفس، والمال، والعرض، كذلك فإن الإنسانية فى حاجة إلى الدين، لتربية الإنسان، الذى كرّمه الله تعالى فقال: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ (التين: ٤٠)، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ (الإسراء: ٧٠).

وعلى ذلك فإن احتياج الإنسان إلى العقيدة نزعة فطرية ركبت فيه، وفطر عليها. ومن هذا المنطلق يصف القرآن الكريم الدين أنه الحياة، وبأنه النور الذى يضىء للسالك الطريق، قال تعالى: ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (الأنعام: ١٢٢).

فالعقيدة تقوم من المجتمع مقام الروح من الجسد، ولسعادة المجتمع لا بد من العقيدة الصحيحة، التى تنير الطريق، وتحدد أسلوب معاملة الفرد للجماعة والجماعة للفرد.

ولقد كان لهذه العقائد والأصول والمبادىء الإنسانية، التى قام الإسلام عليها، ولما قام عليه هذا الدين من المساواة والعدالة، والإحسان، كان لذلك أثر بالغ فى سرعة انتشاره، وحسن تقبل الناس له فى أقطار العالم المختلفة، كما كان ذلك من العوامل الحاسمة، والأسباب القوية، فيما أدركه الإسلام من عز، ومجد، وسلطان، سعد به العالم الذى عاش تحت لوائه[1].

فمن طبيعة المنهج الذى يرسمه هذا الدين، ومن حاجة البشرية لهذا المنهج، نستمد يقيننا الذى لا يتزعزع، فى أن المستقبل لهذا الدين، المتعطشة إليه البشرية جمعاء[2].

---

(١) د. محمد يوسف موسى: «الإسلام والحياة»، ص: ١١٤.

(٢) محمود شلتوت: «من توجيهات الإسلام»، ص: ٢٣.

فالعقيدة هى أساس قيام المجتمع، وأساس صلاحه أو فساده، بل هى أساس بقائه واستمراره، فهذا الدين فى حقيقته النقية المصفاة، له أثره المبارك فى تهذيب النفس، وإسعاد الإنسان، وتوجيه الحياة وجهة الحق والخير، إن الدين ضرورة من ضرورات الإنسانية الراشدة، لا تغنى عنه فكرة عقلية، ولا تنظيم وضعى، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ (النساء: ١٧٤-١٧٥).

لقد كان الإنسان فى الماضى يعبد ما لا ينفع، ولا يضر، وكان يخاف من كل شىء، فجاء الدين الحق، ودعا الناس إلى التحرر من خوف غير الله، وما عداه من المخلوقات، وبهذا تغيرت نظرة الإنسان إلى كل شىء.

إن الباحث: إذا تأمل أحوال الإنسانية فى هذا العصر، فسوف يجد أنها فى أمسّ الحاجة إلى الإسلام.

فالحضارة الغربية وصلت إلى أعلى مستوى من الرقى العمرانى، والتقدم العلمى الهائل، ولكن قصة البشرية - برغم التقدم الحضارى - فيها مساوىء كثيرة، زلت فيها أقدام البشر، وضاعت عقولهم. فقد أطلقت الحضارة الغربية حرية الإنسان، وحررت غرائزه من كل ضبط، وتحولت الحريات إلى انحراف فى الغريزة، وإلى شذوذ فى الطبيعة، وإلى عدوان على حريات الآخرين، ونتيجة لهذه الحرية لم يعد هناك ضابط.

ومن تعاسة الحضارة المادية، إنها عكست كرائم النعم، والملكات التى أنعم الله بها على الإنسان عكساً أسقط الإنسان فى وديان الهلاك والدمار، وسقطت بالإنسانية دون عالم الحيوان فراجت خسائس العادات وذمائم الصفات من الاختلاط الفاضح والشذوذ فى السلوك وظواهر الخنفسية والهيبيز والارتخاص والابتذال والخلاعة[1].

لقد تقدمت العلوم بلا ريب ولكن هذه الحضارة التى علّمت الناس كيف يسبحون فى الماء بالغواصات الجبارة، وكيف يطيرون فى الفضاء، وفى الهواء

(١) د. محمد يوسف موسى: «الإسلام والحياة»، ص: ٢٦.

وفوق السحاب، عجزت حتى اليوم عن تعليم ناسها وشعوبها كيف يسيرون على الأرض فى طريق الخير بغير عوج والتواء أو تعثر.

إن الغرب اليوم فى حيرة بالغة وقلق واضطراب شاملين وكل ذلك يأخذ عليهم عقولهم وقلوبهم، وأصبح الضمير هناك لا يطمئن إلى عقيدة أو مبدأ أو نظام، فلم يعد يجد اليقين الذى يفىء إلى ظله فى جو من الهدوء والراحة والاستقرار[1].

والبشرية اليوم فى مفترق الطريق فهناك اضطراب فى الأفكار وحيرة فى الاتجاهات وزعزعة فى النظم وخواء من العقيدة أصبح يجرفها دولة بعد دولة، وشعباً بعد شعب إلى هاوية المادية والضلال.

وليس الحال فى الشرق والبلاد العربية بأحسن من الغرب فقد انحرف الكثير عن الدين فى غير قليل من شئون الحياة[2]. لقد تأثرت بعض المجتمعات بالغزو الحضارى الغربى وليس ذلك التأثير فى الجانب العلمى والصناعى والعمرانى ولكن للأسف - وفى أسوأ المساوىء - وأصبح بعضهم يقلد الغرب فى كل ما هب ودب وما من ظاهرة من الظواهر العفنة ولا موضة من موضات العصر إلا ولها فى بعض المجتمعات صدى واهتمام.

لقد أفلست الحضارة الغربية برغم التقدم العلمى الهائل الذى وصلت إليه وبدأ الإنسان الأوربى يهرب من حضارته لأنه لم يحس فى ظلها بالسعادة ولم يحس فى مجتمعه بالأمن والأمان والاطمئنان، فقد انتشرت عصابات القتل والخطف والتخريب والإرهاب وتفاقم خطر الجريمة وازداد عدد المجرمين وامتلأت البلاد بجماعات العربدة والفجور وأقيمت نوادى العراة وأبيح فى غير استحياء الشذوذ الجنسى إلى غير ذلك.

وأخيراً لهذا وغير هذا: لجأ الغربيون إلى الهروب من معتقداتهم الدينية ومذاهبهم الاقتصادية بل من كل حضاراتهم التى افتتنت بالعلم والعقل فأصبحت

---

(١) د. محمد يوسف موسى: «الإسلام والحياة»، ص: ٢٧.

(٢) المرجع السابق، ص: ٢٦.

شقية عمياء لا تبصر، طارت بحضارتها إلى الفضاء وانحدرت بالشباب الغربى إلى مدارك السفالة والانحطاط ليعيشوا فى حياة الجنس والخمر ونوادى العراة.

والشيوعية فى الشرق وفى الغرب قد أعلنت فشلها وسقطت بعد أن شبع الناس جوعاً، وبكوا توجعاً، وتألموا من شدة الكبت، وفقدوا كل كرامة، وكل شىء.

وهكذا تعجز النظم البشرية، والقوانين الوضعية، عن تقديم أى عون للإنسان، والأخذ به إلى الطريق السليم، مما يؤكد ضرورة الإسلام للمجتمعات الإنسانية، لأن الإسلام قد انطوى على طاقة روحية جعلت منه - عند التطبيق - قوة فعالة ومؤثرة، بل إن فاعلية الإسلام، شملت حياة الأفراد، وحياة المجتمعات من جميع الجوانب.

والإنسانية فى عصرنا هذا أشد ما تكون فى حاجة إلى الدين الإسلامى، فإن التقدم العلمى المادى الذى غزا الفضاء، لم يستطع أن يحقق للناس السعادة والطمأنينة التى ينشدونها، بل زادهم تكالباً على المادة، وتنافساً جشعاً جر إلى حروب.

فالذى نرجوه إذن لإصلاح هذا العالم الذى نعيش فيه، بعد أن أفلست كل نظمه السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وبعد أن ظهرت فيه فلسفات تدعو لإنكار وجود الله، والتحلل من المسئولية، وفاضل الأخلاق[1].

إنه لا شىء غير الدين الإسلامى، فلا خلاص للإنسانية إلا بالرجوع إلى الدين الحق، ولن نجد هذا الدين - كما أنزله الله - واضحاً ميسراً، خالياً من الغموض والتعقيد، سليماً من التحريف والتبديل، إلا فى الإسلام خاتم الرسالات الإلهية، فهو دين الروح والمادة، والقلب والعقل، والفرد والجماعة والدنيا والآخرة[2].

فإلى هذا الإسلام فى عقيدته وشريعته، فى عباداته ومعاملاته، فى نظمه وأخلاقه، ندعو البشرية كلها: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا**

---

(١) د. محمد يوسف موسى: «الإسلام وحاجة الإنسان إليه»، ص: ٢٢.

(٢) محمود شلتوت: «من توجيهات الإسلام»، ص: ٢٤.

إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً ﴾ (النساء: ١٧٤-١٧٥).

هذا الدين لا يزال العالم فى حاجة شديدة إليه، ولا خلاص للإنسانية مما تعانيه إلا بالإيمان به، فهو الآمر بالمعروف، والناهى عن المنكر والداعى إلى الحق، وإلى الصراط المستقيم.

دور الإيمـــــان

من المعلوم أن الإيمان هو نبع الفطرة فى صدقها وصفائها. . وإذا صدق الإيمان فى القلب، كان لذلك آثاره فى عقيدة المؤمن وشعوره، وفى صلته بالله تعالى، وفى جهاده فى الحياة، فلا يقبل إلا الحق، ولا يعبد إلا الله، ولا يخشى فى الله لومة لائم، ولا يرتبط بالباطل فى قول أو عمل، بل يكون شهيداً على الناس من حوله، يرشد ضالهم، وينصح مخطئهم، ويعطيهم من نفسه المثل والقدوة بأخلاقه وسلوكه، موثراً فيهم بما فى قلبه من النور واليقين، غير متأثر بما لدى البعض من باطل.

وصاحب الإيمان الصادق لا تزيده الأيام إلا يقيناً، فإن أصابه خير شكر ربه، وأدى حق الله فى نعمته، وإن أصابه شر حمد الله، ورضى بقضائه، ولا يضعف ثقته بالله شيء.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (الحجرات: ١٥).

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (الأنفال: ٢-٤).

روى الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: إن النبى ﷺ قال: «المؤمنون فى الدنيا على ثلاثة أجزاء: الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله، والذى يأمنه الناس على أموالهم وأنفسهم، والذى إذا أشرف على طمع تركه لله عز وجل».

وكما أن الخوف من الله ومراقبة جلاله أثر من آثار الإيمان الصادق، فإن حب الله، وحب الرسول ﷺ، وحب الإسلام، كمنهج للحياة بحيث لا يربو على

هذا الحب شيء أبداً، يدل على صدق الإيمان كذلك وعمقه فى ضمير المؤمن.

ولا شك أن الإيمان الصادق العميق، يحيا به ضمير المؤمن، وتسلم به اتجاهاته.. فبينما يتخبط الملايين، فى دياجير الظلام الحالك، وسبل الضلال، ترى المؤمن بوحى من تفاعل الإيمان فى كيانه: مرهف الحس، صادق العزم، صالح العمل، لا تستذله الحياة، وما فيها، ولا تعصف به الشدائد مهما بلغت حدتها.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (الزمر: ٢٣).

فقوة الإيمان فى نفس المؤمن ترفع مقتضيات الإيمان فوق كل شىء، وتجعل المؤمن وثيق الرابطة بما يمليه عليه إيمانه، لا يشغله عن ذلك شاغل.. ومهما اشتد البلاء فإن المؤمن لا يزداد إلا ثباتاً ويقيناً، ذلك لأن قوة الإيمان فى القلب تمد المؤمن فى كل أحواله بنور الاهتداء، وكمال الرجاء.. ذلك شأن المؤمن فى كل أموره، فى عبادته لله، وذكره إياه، وفى حرصه على مرضاة الله، مهما تكاثرت عليه مشاغل الحياة، وفى خضوعه دائماً لأمره، وفى كمال ثقته بالله، وصدقه معه، وتصديقه لوعده.. فهو يحيا مع الله، قولاً، وعملاً، وقلباً، وجسداً، وسلوكاً، كذلك من شأنه ألا يهادن أهل الباطل أو يلين فى مقاومتهم.

ومن المعلوم أن الإيمان ليس كلمة تقال وكفى.. وليس شعار يطرح ثم ينفذ، وإنما هو أولاً وقبل كل شىء: عقيدة وعمل، عقيدة تخالط شغاف القلوب، وتسرى مع الدم فى العروق، لا يدركها ريب، ولا يلحقها شك أبداً، وهذه العقيدة لا تكون صحيحة كاملة، ولا تكون سليمة تامة إلا إذا أتت ثمراتها الطيبة.. سلوكاً مستقيماً، وأخلاقاً طاهرة، وأعمالاً رشيدة، ومن ثم لا يذكر الإيمان فى القرآن الكريم إلا مقروناً بالعمل الصالح، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ (يونس: ٩).

وهكذا يتبين للمسلمين أن الإيمان ليس قولاً بلا حقيقة، وليس ادعاء بغير دليل أو برهان، ولقد فهم المسلمون القرآن الكريم، وتشربوه فى نفوسهم، وتمثلوه فى أعمالهم، فكانوا بذلك مثار العجب فى يقينهم الثابت، ونشاطهم الدائب، وسلوكهم الفاضل، وأخلاقهم العظيمة، وعمارتهم للأرض، وعبادتهم لله، تجاوباً بذلك كله مع حقيقة الإيمان، فدانت لهم الدنيا، وامتلكوا زمام الجاه، والسلطان، والقوة، وتبوأوا قمم المجد، وصاروا فى أسمى مراتب الحياة الحرة الكريمة.

وشاءت إرادة الله تبارك وتعالى أن تكون الأمة الإسلامية، خير أمة أخرجت للناس، تحمل الأمانة، وتنشر أنوار الحق، وتأخذ بيد الناس إلى أقوم طريق، وأهدى سبيل.

وكلما كان الإيمان عميقاً فى الصدور: أحس المؤمن بذاته، وأحسن النظر إلى واجباته ومسئولياته.

وإذا كان المجتمع البشرى يموج بعضه فى بعض، تحركه أمواج عاتية من الفتن والضلال، فإن أهل الإيمان يشعرون إزاء ذلك بأمرين:

الأمر الأول: أن يستمسكوا بالحق جاهدين فى العمل به وحمايته.

الأمر الثانى: حماية أنفسهم من أن يجرفهم تيار الفتن الذى يحيط بهم.

وأمر ثالث: لضمان مسيرتهم: أن يكونوا مُثُلاً حياً صادقاً لمبادىء دينهم، ليرى فيهم الناس ما يدعو إلى هيبتهم واحترام دينهم، ولتكون مثاليتهم فى حياتهم أكبر داع إلى الله ورسوله.

قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران: ١١٠).

وإذا كان خير المقال ما صدقه الفعال، فإن الإسلام يوجب على الأمة أن تحمل دعوة الحق إلى الناس، وتسوسهم برفق إلى صراط مستقيم.

قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٤).

وإن قوة الإيمان بما تفيض على النفس من طمأنينة، وبما تعطى من الاندفاع الواثق فى طريق الحق، منفعلاً به داعياً إليه، معتزاً بما لديه، لا يحيد عنه، ولا يقصر فيه، هى أعلى ما اكتسب الإنسان لأنها صمام الأمان من غضب الله، وضمان النصر للمعتصمين بالله، وسبيل النجاة من عذاب الله فى دار الجزاء.

بهذا يحس كل مؤمن إحساساً يجعله أقوى من أن يهزم أمام باطل، أو يضعف فى مواجهة فتنة، أو يستسلم لهوى، أو يستمرىء معصية.

والمسلمون فى أمسّ الحاجة إلى هذا الإيمان الكامل، الإيمان الذى يقتضى من المؤمن أن يتخذ سبيلاً إلى الله عز وجل.. فتجىء أعمال المسلمين وفق عقيدتهم، فلا يرهبون من أحد أبداً، ولا يذعنون إلا لسلطان الله، ولا يعملون من عمل إلا وهم يريدون به وجه الله سبحانه وتعالى، يفعلون ما أمر به جل جلاله، ينتهون عما نهى عنه، يذوبون رحمة لإخوانهم المؤمنين، فيواسون الفقير، ويجبرون الكسير، ويقوون الضعيف، ويشدون العزائم، ويستنهضون الهمم، ويكونون دائماً عوناً لإخوانهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، ويتفجرون شدة على أعداء الإسلام، فيجاهدونهم بالقلب واللسان والمال والنفس، يفلون عزيمتهم، ويكسرون شوكتهم، ويعملون جاهدين على ألا يكون لأعداء المسلمين سبيل على المؤمنين، لا فى أنفسهم، ولا فى أرضهم، ولا فى أوطانهم.

طبيعة الحياة

الصراع بين الأحياء من طبيعة الحياة، وقد ثبت بالتجربة أنه أمر لا بد من وقوعه بين الناس، مهما ارتقت أفكارهم، أو تقدمت وتطورت معارفهم وحضارتهم، والدليل الواضح على ذلك، ما يقع بين الأمم من الحروب العالمية، وهذا التسابق المحموم في أسلحة الفتك والدمار والخراب، رغم ما وصلوا إليه من العلم والحضارة المادية، والتقدم[1].

فالحرب لا يمكن أن تزول من الدنيا، أو أن تخف حدتها، أو تحصر ويلاتها. . ذلك أنها بكل ما فيها من مرارة وآلام، وبكل ما تنطوى عليه من قسوة، وبطش، وإخلال بالأمن والسلام، سر من أسرار الحياة، وجوهر من جواهرها، لأن الحياة هى الحركة، والحركة هى التى تحول المادة وتغيرها، بما تحدثه من احتكاك وصدام، وصراع مستمر.

إن كل ما فى الكون، من عناصر مركبة، أو بسيطة فى كفاح مستمر، بين أجزائه المختلفة، فالماء، والهواء، والحرارة، وبقية العناصر، كلها فى حرب دائمة، ومن هذه الحرب تنشأ جميع الظواهر الطبيعية والجغرافية، التى تؤلف مسرح الحياة.

فالرياح، والعواصف، والسحب، والبروق، والرعود، والصواعق، والسيول، والأمطار، والزلازل، والبراكين، هى مظهر هذا القتال، فما من ذرّة من ذرّات الكون إلا ويجرى فيها هذا الصراع.

وحسبك أن تنظر إلى قطرة من الماء خلال المجهر، أو قطرة من الدم لترى فيها جيوشاً جرّارة، فى كر، وفر، واقبال، وإدبار، يلتهم بعضها البعض الآخر، بعد أن يصرعه.

(١) الدكتور أحمد السايح: «أضواء على الحضارة الإسلامية»، ص: ١٧٩، ط: دار اللواء بالرياض، ١٤٠١هـ.

فإذا شئت أن ترى ذلك مكبراً بالعين المجردة، فما عليك إلا أن تلقى بنظرة على الغابة، حيث تغص بالحيوانات الكاسرة، والطيور الجارحة، التى لا تنفك فى حرب متواصلة، ولا تفتر لحظة، أو تهدأ، ابتداء من الدودة الصغيرة، إلى الفيل الضخم. . ولو نظرت إلى قاع المحيط لوجدت مثل ذلك جيوشاً لا يدركها الحصر، تتباغى، وتتقاتل، وتتصارع، حول الحياة والموت(١).

وما كان الإنسان ليشذ عن هذه القاعدة، وهو أرقى صور الحياة وأكملها غير أن العقل والأديان، قد نظمت قواه، وحدت من غرائزه، التى تدفعه للقتال دائماً أبداً. . لكنها لم تقض على هذه الغريزة، وإلا لقضت على الحياة فى أساسها، فبقيت غريزة القتال كامنة فى النفوس، لا تلبث أن تحتدم، متى جدت دواعيها، وتهيأت أسبابها، وما أكثر الأسباب والدوافع التى تفضى إلى المنافسة بين أبناء البشر(٢).

والإنسان حين يفقد سلامه النفسى فى داخله، يفقد سلامه الاجتماعى، والعالمى فى خارجه، ويعدم الراحة، والهدوء، والانضباط، ويتلفت عن يمين، وشمال فلا يرى إلا جيوش الأهواء والنزوات، وفيالق الأثرة، والمطامع تدق طبولها، معلنة على قراره الذاتى، وسلامه النفسى. . . حرباً ضروساً، لا تلبث إلا ريثما يضيق بها ميدان وجدانه، ومجال مشاعره، لتمد ألسنتها، حامية الوطيس، مشتعلة الأوار، خارج هذا النطاق، لتأتى على الأخضر واليابس، من علائق الأفراد والجماعات، والأمم، ومقدراتها، وممتلكاتها، ومناطق نفوذها، وما سطرته يراع الإنسانية من معالم الحضارة، ومشاهد التقدم، ووسائل المدنية، التى ترمى إلى ترقية الحياة، وتهذيبها.

والويل كل الويل يوم يذر قرن الفتنة، وتشرئب الأهواء النافرة، والنزعات الشاردة، والمطامع الفاغرة، معلنة إصرارها على طمس الحق وأهله.

لهذا حرص الإسلام البالغ على أن يتصف أهل الإيمان بالقوة وعلى أن

---

(١) الأستاذ أحمد حسين: «الحرب على هدى الكتاب والسنة»، ص: ١١ ط: المجلس الأعلى بالقاهرة، ١٩٧٤م.

(٢) المصدر السابق، ص: ١١.

يكونوا دائماً على استعداد لمواجهة أهل الباطل مهما تكن التضحيات فى النفس والأهل والمال.

والتحفظ الوحيد الذى وضعه الإسلام على قوة المسلمين هو أن تكون قوتهم فى خدمة العدل والسلام وأن تنأى عن البغى والعدوان.

قال تعالى: ﴿ **وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴾ (الحج: ٤٠).

ذكر القرطبى فى تفسيره: أنه لولا ما شرعه الله تعالى للأنبياء والمؤمنين من قتال الأعداء، لاستولى أهل الشرك وعطلوا ما بنته أرباب الديانات، من مواضع العبادات ولكنه دفع بأن أوجب القتال ليتفرغ أهل الدين للعبادة.. فالجهاد أمر مقدم فى الأمم وبه صلحت الشرائع واجتمعت المتعبدات»[١]. حقاً إن الإسلام حين يضطر إلى القتال فإنما يمارس أشرف أنواع القتال وأنبله، ذلكم الذى لم ولن تعرف الدنيا له عدلاً ولا نظيراً من قريب أو بعيد من حيث أسبابه وبواعثه وأهدافه وغاياته وملابساته وظروفه...

إن أسباب القتال جميعاً تلتقى عند درء العدوان ورد الهجوم واسترداد الحق السليب، والكرامة المهيضة والأمل الشريد واقتلاع جذور الظلم وكسر حدته وانحسار موجته.. ولولا أن يغرى الله به المؤمنين لاعتلت المفاهيم، واختلت الموازين واضطرب أمر الحياة وخلا وجهها من الحق وجنده[٢].

وتلتقى أيضاً بواعث القتال عند درء الفتنة إذا ذر قرنها واستيقظ شرها فإن طاقات النفس محدودة وقدراتها تحت مطارق الفتن وصرف الهوان قاصرة، يخشى حالئذ أن تلين أو تهون أو تتشتت فتعطى خصمها الدنية فى ذاتها ويقينها.. إذ التلويح والتلميح والمساومة والإلحاح والرغبة والرهبة من أخطر الأساليب التى تمس أغوار النفس فى ظروف العسف والقهر والبغى والطغيان.

---

(١) القرطبى: «أحكام القرآن»، ج١٢، ص: ١٧٠، القاهرة.

(٢) وزارة الأوقاف، مكتبة الإمام، ج١٤، ص: ١٢ الأوقاف ١٩٧٣م.

فيلين عودها ويتبخر ريها وتأتى على ما فى قرارها من يابس وأخضر. . وما لم يتدارك هؤلاء تحت العذاب والفتن ومعاول الهدم فإنهم لا يلبثون إلا ريثما تضيق على أعناقهم قبضة الفتن فإذ هم ساقطون. إن القتال حينئذ حبل إنقاذ ينقذ المحطومين ويمنع المتآمرين من التوسع والمزيد ولا ملام فى هذا فمن أشعل الفتنة صلى نارها ومن سل سيف البغى صرع به.

وإن القتال فى الإسلام كما يكون لأهل العدوان والاضطهاد والفتن يكون أيضاً لمن يهددون الأمن ويقلقون السلم، ويكون لمن يدسون الدسائس ويزرعون الوقيعة ويبثون الخدع، وينشرون الأراجيف، وينفثون السموم، ويرجفون لأساليب الهدم والدمار، من المذبذبين، وذوى الضمائر الفاسدة والذمم الخربة، وأهل النكث والخيانة، ومن لديهم الاستعداد إلى الانسلاخ من كل مبدأ، والتلون بكل لون وتغيير جلودهم، حسب الملابسات والظروف[١].

وما كانت أسباب القتال فى الإسلام راجعة يوماً (ما) إلى عدوان منه أو بغى أو تسلط أو قسر أو إكراه وما كانت أيضاً معاداة ولا باطلاً. . وإنما كانت لأمر كان معه على العكس. . فالمسلمون كانوا على مر العصور ضحايا القسر والتعذيب والطغيان والقهر، لذا لجأ المسلمون لمحاربة القوة لأنه لا تحارب القوة بالحجة ولكن بمثلها. فلا يفل الحديد إلا الحديد. فكانت حروبه جميعاً لالتقاء هجوم مبيت من قبل طغاة متجبرين لا يألون جهداً فى مباغتة الإسلام بالهجوم عليه والإيقاع به وفض الناس عنه.

إذن حتمية المواجهة تستدعى من المسلمين - أمة أو مجموعة من المجتمعات- ضرورة التهيؤ، بالاستعداد وليس شرطاً أن ينتظر المسلمون حتى يروا إمارات السوء والشر والعدوان من عدو معروف لهم، فيبدأون فى أخذ وسائل الدفاع. . وإنما عليهم أن يدركوا طبيعة الحياة فى هذه الزاوية الهامة التى تحكم بوجود الصراع، تجربة وتاريخاً واقعاً بين الناس فيبذلوا قصارى جهدهم فى إعداد القوة حتى ولو لم يكن أمامهم عدو معروف ومعلوم لهم.

(١) المصدر السابق، ج١٤، ص: ١٣ بتصرف.

وإلى هذا المعنى يوجه القرآن الكريم المؤمنين فيقول الله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ ﴾ (الأنفال: ٦٠).

فالله سبحانه وتعالى أمر المؤمنين بالاستعداد للحرب التى لا بد منها لدفع العدوان وحفظ الأنفس والحق والفضيلة.. ويكون ذلك بأمرين:

الأمر الأول: إعداد المستطاع من القوة، ويختلف هذا باختلاف الزمان والمكان. والواجب على المسلمين فى هذا العصر صنع المدافع والطيارات والدبابات وإنشاء السفن الحربية والغواصات ونحو ذلك كما يجب عليهم تعلم الفنون والصناعات التى يتوقف عليها صنع هذه الأشياء وغيرها من قوى الحرب.

وقد استعمل الصحابة المنجنيق مع الرسول ﷺ فى غزوة «خيبر» وغيرها. روى مسلم عن عقبة بن عامر أنه سمع الرسول ﷺ وقد تلا هذه الآية[1] يقول: «ألا إن القوة الرمى» قالها ثلاثاً. وذلك أن رمى العدو على بعد بما يقتله، أسلم من مصاولته على القرب بسيف أو رمح أو حربة أو نحو ذلك.

وهذا يشمل السهم وقذيفة المنجنيق والطيارة والمدافع والبندقية ونحوها. فاللفظ يشملها وإن لم تكن معروفة فى عصره ﷺ[2].

والأمر الثانى: مرابطة الفرسان فى ثغور البلاد وحدودها.. إذ هى مداخل الأعداء ومواضع مهاجمتهم للبلاد..

والحكمة فى هذا: أن يكون للأمة الإسلامية جند دائم مستعد للدفاع عنها إذا فاجأها العدو على غرة.

﴿ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ أى أعدوا لهم المستطاع من القوة الحربية، ومن الفرسان المرابطة، لترهبوا أعداء الله الكافرون به..

فالكفار إذا علموا استعداد المسلمين وتأهبهم للجهاد، واستكمالهم لجميع الأسلحة والآلات خافوهم، وإلى هذا يشير أبو تمام إذ يقول:

---

(١) آية سورة الأنفال ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم ﴾.

(٢) الدين الحياة، نظام الحرب فى الإسلام، ص: ٦، ط: وزارة الأوقاف.

وأخافكم كى تغمدوا أسيافكم   إن الدم المغـــير يحـرســه الدم

وهذا الخوف يفيد المسلمون من وجوه:

١ - يجعل أعدائهم لا يعينون عدواً آخر عليهم.

٢ - يجعلون يؤدون الإلتزامات المطلوبة منهم.

٣ - ربما حملهم ذلك على الدخول فى الإسلام والإيمان بالله ورسوله.

والخلاصة: أن تكثير آلات الجهاد وأدواتها كما يرهب الأعداء الذين نعلم أنهم أعداء، يرهب كذلك الأعداء الذين لا نعلم أنهم أعداء ﴿**وآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ**﴾: فالاستعداد للحرب يرهبهم جميعاً ويمنعهم من الإقدام على القتال وهذا ما يسمى فى العصر الحديث: «السلام المسلح»[1].

ولعل الباحث يعرف أن إعداد القوة فى الإسلام والتى جاء الأمر بها ليس المقصود بها إعداد قوة مماثلة لقوة الأعداء.. لأن فريضة الجهاد فى الإسلام لا تنتظر حتى يتم إعداد قوة مماثلة للعدو لأن ذلك قد يطول..

ولو انتظر المسلمون فى غزوة بدر الكبرى حتى تتكافأ قوتهم وقوة عدوهم ما قامت للإسلام والمؤمنين قائمة.

إنما القلة المؤمنة بالله، والمعتزة بعقيدتها، اعتزازاً يفوق كل اعتبار استعدت بقدر ما استطاعت ثم خاضت المعركة فكان فيها الفرقان.

والآية الكريمة التى أمرت بإعداد القوة فيها كلمة «ترهبون» وقد جاءت بصيغة الفعل المضارع وتشير إلى الغرض من إعداد القوة وهو إلقاء الرهبة فى قلوب أعداء الله، وأعداء المسلمين المعلومين منهم للمسلمين والمجهولين.. وكم للإسلام والمسلمين من أعداء لو يفقه المسلمون.

والآية الكريمة «وأعدوا» على اختصارها جمعت أنواعاً للجيوش التى تتلاءم مع كل عصر وزمن.

كالإعداد المادى والإدارى والفنى والمالى والتخطيط والدراسة الموضوعية لمقتضيات الأحوال.

---

(١) الشيخ المراغى: «تفسير القرآن الكريم»، ص: ٢٥-٢٦، ط: القاهرة.

ولقد فرض الإسلام على الأمة الإسلامية الإعداد لكل ما تشمله كلمة «إعداد» من معنى وأن تبذل الأمة أقصى الجهود الصادقة. ولم تغفل الآية الإعداد وقت السلم ووقت القتال حتى تكون الجيوش الإسلامية أشد فعالية وأكثر قدرة قتالية.

والقتال فى الإسلام مجرد من كل غاية أرضية، ومن كل دافع شخصى. ليتمحص خالصاً لله لتحقيق كلمة الله وإقامة العدل، ابتغاء رضوان الله[1].

قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٢).

والإسلام فى هذه الآية الكريمة يربط هذه الغاية المرجوة - دخول الجنة - بالسلوك العملى فى الحياة الدنيوية، بحيث تصبح المقياس والميزان الذى يدل على صحة الارتباط بالدين نفسه.

قال تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (التوبة: ١٤-١٦).

فكلمة «بأيديكم» فى الآية تنفى تماماً معانى التواكل، والإهمال، والكسل، وتؤكد خط الجهد البشرى فى المواجهة لأهل الظلم والباطل، كما تفيد المسلمين أنه لا أمل لهم إلا فى أنفسهم. فكلمة «أم حسبتم أن تتركوا» فى الآية، فيها من الدلالة الواضحة على أنه لا يجوز أن يتصور أهل الإيمان قيام الحياة ونظامها، على الخلو من معاناة الجهاد، والصبر، والبذل، والتضحية. وإن أى تصور يجنح إلى تجربة الحياة من غير هذه الخصائص، وهم باطل لا بد من محاربته حتى يكون المؤمن مستعداً استعداداً واقعياً، يتمشى مع طبيعة الحياة[2].

والله سبحانه وتعالى لا يرضى أن يكون حملة الإسلام، وحماة الدعوة الإسلامية من الجامدين الكسالى الذين ينتظرون النصر لمجرد أنهم مسلمون.

---

(١) أحمد السايح: «أضواء على الحضارة الإسلامية»، ص: ١٢٨، ط: دار اللواء. الرياض: المملكة العربية السعودية.

(٢) وزارة الأوقاف، نشرة رقم ٨٨ من سلسلة الدين والحياة، ص: ٨، ط: وزارة الأوقاف.

والأمة الإسلامية فى أشد الحاجة إلى استيقاظ كل الخلايا فيها، واحتشاد كل القوى، وتوفر كل استعداد، وتجميع كل الطاقات، كى يتم النمو، ويكمل البناء، لأن تحركات الأعداء لا تتوقف، وتكالب الأعداء، يزداد شراسة وسعاراً. . ولا جرم فإن الحق الأعزل ضائع[1].

ولما كانت ظاهرة الصراع تتعلق باستمرار الحياة ذاتها، كان للاستعداد لها، والاعتراف بها، المكان المقدم فى الإسلام. . ولذلك جاءت مقاييس التفاضل بين الأعمال، لتضع الجهاد فى قلب المؤمن ونفسه، فى المكان المتفوق على غيره من سائر الأعمال. . قال تعالى: ﴿**لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا * دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا**﴾ (النساء: ٩٥-٩٦).

والحق أن الذى يستعد استعداداً صادقاً للبذل والتضحية والجهاد، تسهل عليه سائر العبادات. . لذلك فإن المؤمن فى عملية الجهاد أو الاستعداد لها، يتجرد عن كل شىء، لله سبحانه وتعالى، وكأنه عقد مع الله صفقة أعطى فيها وبها لله كل شىء، ليفوز بجنة عرضها السموات والأرض، قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾ (التوبة: ١١١).

وقال تعالى: ﴿**وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**﴾ (آل عمران: ١٦٩).

وهذا يعنى أن أسلوب الجهاد ضرورة للحياة الكريمة، وأى تقصير فى التهيؤ والاستعداد له، يعرض صاحبه لنقصان فى الإيمان، وفساد فى العقيدة. فعن أبى هريرة رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ، قال: «من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه «بالغزو» مات على شعبة من النفاق»[2].

---

(١) أحمد السايح: «أضواء على الحضارة الإسلامية»، ص: ١٨٥.

(٢) المنذرى: «الترغيب والترهيب» ج٢، ص: ٢٥٣، والحديث رواه مسلم وغيره.

وقد روى الطبرانى عن أبى بكر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ترك قوم الجهاد إلا عمهم الله بالعذاب»[1].

والخلاصة: التى نفهمها من المنهاج القرآنى والنبوى، أخذاً من الآيات والأحاديث التى جاءت فى ميدان الجهاد والقتال.. أن واجب الأمة الإسلامية أن تهيىء نفسها بصفة دائمة ومستمرة إلى ضرورة الاستعداد.. حيث أن هذا الاستعداد والإعداد جزء من العقيدة، وركن من العبادة، وقد ربط الله بتحقيقه سعادة المسلمين فى الدنيا ونجاحهم فى الآخرة.

وإن الأمة الإسلامية تملك من الطاقات البشرية، والعقول المفكرة، والإمكانيات المادية، والمواقع الاستراتيجية، ما يمكنها من أن تكون أعظم قوة فى الأرض.. لا لتضرب فى عتو وتجبر، ولكن لتحفظ نفسها ومجتمعاتها، وتقيم العدل بين الناس، وتنشر الأمن والاطمئنان.

---

(١) المصدر السابق.

الحوار الحضارى ضرورة إنسانية

بداية يحسن بنا أن نعرض لمفهوم الحوار. ومفهوم الحضارة. حتى نتعرف على حوار الحضارات وننطلق لرؤية واضحة تكشف عن ضرورة الحوار للإنسان، وحاجة الإنسان إليه.

والحوار: الرجوع عن الشىء، وإلى الشىء، يقال: حار إلى الشىء وعنه حوراً ومحاراً ومحاورة: رجع عنه وإليه. وفى الحديث: «من دعا رجلاً بالكفر وليس كذلك حار عليه» أى رجع إليه ما نسب إليه. والمحاورة، مراجعة المنطق، والكلام فى المخاطبة[1]. قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾، أى وهو يراجعه الكلام ويجادله[2].

والتحاور: التجاوب. لذلك كان لا مندوحة فى الحوار من متكلم ومخاطب، ولا بد فيه من مراجعة الكلام وتبادله وتداوله. وغاية الحوار: توليد الأفكار الجديدة فى ذهن المتكلم. لا الاقتصار على عرض الأفكار القديمة، وفى هذا التجاوب توضيح للمعانى، واغناء للمفاهيم يفيضان إلى تقدم الفكر[3].

وإذا كان الحوار تجاوباً بين الأضداد كالمجرد والمشخص، والمعقول والمحسوس. سمى جدلاً. والجدل هو النقاش والخصومة. وهو منطقياً: قياس مؤلف من مقدمات مشهورة أو مسلّمة. وغرضه إلزام الخصم، وإفحام من هو قاصر عن إدراك مقدمات البرهان[4].

والجدل أصلاً هو فن الحوار والمناقشة. قال أفلاطون: «الجدلى هو الذى يحسن السؤال والجواب، وغايته الارتقاء من تصور إلى تصور، ومن قول إلى قول، للوصول إلى أعم التصورات، وأعلى المبادىء.

---

(١) ابن منظور: «لسان العرب»، ج١، ص: ٧٥٠، ط: دار لسان العرب، بيروت.

(٢) سعيد حوى: «الأساس فى التفسير»، ج٦، ص: ٣١٨٤ ط: دار السلام، القاهرة: سنة ١٤٠٥هـ.

(٣) انظر حسين حمادة: «الحوار القرآنى»، مجلة المعارج، المجلد الأول، ع٨، ص:٣٦، بيروت: سنة ١٤١٢هـ.

(٤) المصدر السابق، ع٨، ص: ٣٦.

واقتبس المحدثون عن أفلاطون. فأطلقوا الجدل على الارتقاء من المدركات الحسية إلى المعانى العقلية، ومن المعانى الشخصية إلى الحقائق المجردة، ومن الأمور الجزئية إلى الأمور الكلية.

وقبل أفلاطون زعم سقراط: أن العلم لا يعلم، ولا يدون فى الكتب. بل يكشف بطريق الحوار[١]. ويذكر العلماء: أن قاعدة القواعد فى النظام الكونى هى حوار الكائنات. وإن جامدة ليأخذ بعضها من بعض، ويعطى بعضها البعض كما هى طبيعة الحاجة، فيكون الانسجام والشد والعقد والاستمرار.

فالحوار ليس قصراً على الكلمات اللسانية المسموعة. إنما قد يتجاوز إلى الإشارة الموضحة والبسمة المشرقة والحس الخافق، والدورة المقبلة، والعمل الصالح، والموقف الصالح حتى الصمت لا يبعد أحياناً أن يتأتى حواراً.

ومن البداهة القول بأن الإنسان كائن عقل واجتماع. كائن علاقة وحاجة؛ ومن البداهة القول أن هذه الأحوال أحوج حاجاتها اللقاءات المتحاورة؛ ليكون المجتمع على بيّنة من أمر علاقاته، وعلى تناسق مؤتلف، وتفاهم واع، وترابط معقود. كما الكون بقوانينه وأنظمته التى تجعله يحفظ بعضه البعض، ويستمر بعضه ببعض[٢]. . وهذا هو أصل مفهوم الحوار.

أما الحضارة؛ فإنها مأخوذة من الحضر، والحضر خلاف البدو؛ والحاضر خلاف البادى؛ وفى الحديث: «لا يبع حاضر لباد» الحاضر المقيم فى المدن والقرى؛ والبادى المقيم بالبادية. ويقال: فلان من أهل الحاضرة، وفلان من أهل البادية. والحضارة - بكسر الحاء - الإقامة فى الحضر، وكان الأصمعى يقول: الحضارة بالفتح. قال القطامى:

فمن تكن الحضارة أعجبته . . فأى رجـال باديـة ترانا

والحضر والحاضرة؛ خلاف البادية. وهى المدن والقرى والريف. سميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار، ومساكن الديار التى يكون لهم بها قرار[٣].

(١) المصدر السابق، ع٨، ص: ٣٧ بتصرف واختصار.

(٢) المصدر السابق، ص: ٣٧.

(٣) ابن منظور: «لسان العرب»، الجزء الأول، ص: ٦٥٨.

إذن أهل الحضر يوصفون بأنهم أهل القرار كما يقال: قرارى للحضرى الذى لا ينتجع ولا يتنقل طلباً للكلأ فى مواضعه. كذلك يوصف أهل الحضر بأنهم «أهل المدر» وهو قطع الطين المتماسك. أو أهل الحجر لأنهم يسكنون بيوتاً متينة ثابتة، خلافاً لأهل الوبر، الذين يسكنون الخيام، من وبر الإبل، أو صوف الغنم، أو شعر الماعز[١].

ومفهوم كلمة «الحضارة» مفهوم تطور مع الزمن لا سيما فى تاريخ الحياة العربية. ولقد عرف العرب الفارق بين حياة البادية وحياة الحضر، منذ كانت بادية ومنذ كان حضر. ولكن أول من تصدى لهذا التمييز على أساس الدراسة الواعية هو العلامة عبدالرحمن بن خلدون[٢]. بل إن هذا العالِم هو أول من عالج شئون الحضارة العربية بطريقة علمية.. ويرى أن الحضارة هى النمط من الحياة المستقرة والذى يناقض البداوة، ويضفى على حياة أصحابه فنوناً منتظمة من العيش والعمل والاجتماع والعلم والصناعة، وإدارة شئون الحياة والحكم، وترتيب وسائل الدعة وأسباب الرفاهية[٣].

والحضارة فى فكر ابن خلدون «طور طبيعى أو جيل من أجيال طبيعية فى حياة المجتمعات المختلفة وأنها غاية العمران»[٤].. ويقول: «إن الحضارة فى الأمصار من قبل الدول، وأنها ترسخ باتصال الدول ورسوخها. إنها أحوال زائدة على الضرورى من أحوال العمران زيادة تتفاوت بتفاوت الرفه، وتفاوت الأمم فى القلة والكثرة تفاوتاً غير منحصر، ويقع فيها عند كثرة التفنن فى أنواعها وأصنافها، فتكون بمنزلة الصنائع ويحتاج كل صنف منها إلى القومة عليه، والمهرة عليه»[٥].

والباحث يجد أن مفهوم الحضارة فى العصور المتأخرة قد امتد إلى ألوان من

---

(١) الدكتور محمد فتحى عثمان: «القيم الحضارية فى رسالة الإسلام»، ص٩، ط: الدار السعودية، ١٤٠٢هـ.
(٢) عبدالرحمن بن خلدون، توفى سنة: ٨٠٨هـ-١٤٠٦م.
(٣) الدكتور أحمد عبدالرحيم السايح: «أضواء على الحضارة الإسلامية»، ص: ١٧، ط: دار اللواء بالرياض، ١٤٠١هـ.
(٤) ابن خلدون: المقدمة، ج١، ص: ٢١٠-٢١٣، ط: دار الكتاب اللبنانى، بيروت: ١٩٦٧م.
(٥) ابن خلدون: المقدمة، ج١، ص: ٦٥٦-٦٥٧.

المعنى هى أبعد وأوسع مما رآه ابن خلدون فى عصره، وفى البيئة العربية، وفى انتقالها الاجتماعى والسياسى والمدنى من البادية إلى الحضر. إن لفظ الحضارة فى مفهومه العام والحديث المعاصر بصفة خاصة، قد أصبح أكثر اتساعاً مما يدل عليه اللفظ فى مفهومه اللغوى التقليدى.. ولذا جاء فى المعاجم الحديثة: أن الحضارة هى الرقى العلمى، والفنى، والأدبى، والاجتماعى، والاقتصادى فى الحضر. وبعبارة أخرى أكثر شمولاً هى: الحصيلة الشاملة للمدنية والثقافة والفكر، ومجموع الحياة فى أنماطها المادية والمعنوية. ولهذا كانت الحضارة هى الخطة العريضة كماً وكيفاً التى يسير فيها تاريخ أمة من الأمم. ومنها الحضارات القديمة والحضارات الحديثة والمعاصرة، ومنها الأطوار الحضارية الكبرى التى تصور انتقال الإنسان أو الجماعات من مرحلة إلى مرحلة[1].

فالحضارة بكل بساطة، معناها: بذل المجهود بوصفنا كائنات إنسانية من أجل تكميل النوع الإنسانى وتحقيق التقدم من أى نوع كان فى أحوال الإنسانية وأحوال العالم الواقعى.

إن الحضارة تنشأ حينما يستلهم الناسُ عزماً واضحاً صادقاً على بلوغ التقدم، ويكرسون أنفسهم تبعاً لذلك لخدمة الحياة وخدمة العالم[2].

والحضارة باختصار شديد: هى جملة المظاهر المعنوية التى يخلفها التاريخ والتى تبقى فى المجتمع على مر الأيام دليلاً على القدرات الذهنية المميزة، وتعبيراً عن روح هذا المجتمع والشعب الذى يمثله. ولا شك أن المظاهر المعنوية تأخذ قوالب مادية مختلفة تتجسم فيها تلك المعنويات، وتشكل المظاهر المعنوية فى صور مختلفة كالفنون والآداب والعلوم والمعارف. ومجموع ما ينتج عن ذلك كله من تسجيلات ومشاهد فى الآثار والعمائر وأسلوب الحياة، وآداب المعاش اليومى[3].

---

(١) انظر الدكتور أحمد السايح: «أضواء على الحضارة الإسلامية»، ص: ١٨.

(٢) البرت اشفيتسر: «فلسفة الحضارة»، ترجمه عن الألمانية الدكتور عبدالرحمن بدوى، ص:٥، ط: دار الأندلس، بيروت.

(٣) المصدر السابق، ص: ١٨.

لقد عرف العلماء الحضارة تعاريف متباينة، وتحدثوا عنها من وجهات نظر مختلفة. ولما كانت الحضارة إنسانية النشأة؛ كان علينا أن نختار من تعريفات الحضارة المتعددة تعريفاً ذكره العلامة الفرنسى «جورج باستيد» جاء فيه: أن الحضارة هى التدخل الإنسانى الإيجابى لمواجهة ضرورات الطبيعة، تجاوباً مع إرادة التحرر فى الإنسان، وتحقيقاً لمزيد من اليسر فى إرضاء حاجاته ورغباته، وانقاصاً للعناء البشرى[1]. فالسلوك الإنسانى الذى ينتج الحضارة هو استجابة لتحد من ظروف الطبيعة يكون هو المثير والدافع والحافز للإنسان. كى يتغلب على ما يواجهه، ومن ذلك عوامل فى طبيعة الإنسان نفسها مثل حاجاته للطعام، والشراب، والدفء، والاستقرار، والأمن؛ وهناك منافسة الإنسان الآخر له على ذلك؛ ثم ما يكون من قصور ظروف بيئته المادية عن تلبية هذه الحاجات[2].

فالحضارة تحقيق للراحة الإنسانية، فى جوانبها المتعددة، المتقابلة المتكاملة، جسدية، وعقلية، ونفسية، وروحية؛ والسلوك الحضارى هو: جواب الإنسان على التحدى المواجه له؛ تحدى الطبيعة المادية من جهة، وتحدى حاجاته هو من جهة أخرى، وتحدى الإنسان الآخر أو المجتمع من جهة ثالثة؛ ويأتى هذا الجواب الإنسانى على التحدى فى صور نشاط متعدد الجوانب؛ كما تشمل أيضاً صور الإنتاج المادى من عمائر وطرق وجسور وقناطر وغيرها. ومن مجالات الحضارة: العقائد والعوائد والآدب الشعبى وأدب الخاصة أو الأدب الرفيع والنظم السياسية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية كما لا يخرج عنها تخطيط المدن والعمارة ووسائل النقل، وأساليب المأكل والمشرب والزينة والترفيه[3].

والحضارة على أى حال تمثل كل مظهر من مظاهر الإنتاج البشرى. وغالباً ما يحدوها سلوك الإنسان وطرق معيشته وتفاعله مع البيئة. ولذا كان من الطبيعى أن تختلف كل حضارة فى مظاهرها عن الحضارات الأخرى، فلكل حضارة من الحضارات قديمها وحديثها مظاهر مميزة[4].

---

(١) جورج باستيد: «كتاب المدينة»، ترجمة: عادل العوا، ص: ١٢، ط: دمشق.

(٢) انظر المصدر السابق، ص: ١١٧، والدكتور محمد فتحى عثمان: «القيم الحضارية فى رسالة الإسلام»، ص: ١٦.

(٣) انظر الدكتور محمد فتحى عثمان: «القيم الحضارية فى رسالة الإسلام»، ص: ١٧.

(٤) انظر الدكتور محمد المحاسن عصفور: «معالم حضارات الشرق الأدنى القديم»، ص: ٢، ط: دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٩م.

والعقل البشرى استطاع بما اكتسب من خبرة، ودربة، ومرانة. أن يصنف المعارف الإنسانية، وأن يحكم ما بينها من وشائج، وأن يستفيد بما بينها من صلات وروابط. والنتائج العلمية متصل بعضها ببعض، ويعتمد بعضها على بعض. والحضارات الإنسانية ليست ملكاً لأمة بعينها، ولا هى وقف على جماعة من الناس. لأنها صرح هائل قد أسهمت فيه كل أمة بنصيب. والحضارات الإنسانية قد تتشابه فى مظاهرها، وفى عناصرها، وفى أسلوبها، ولا سيما إذا تعايشت فى جهات متقاربة. والحضارات الإنسانية سلسلة محكمة متينة الحلقات يؤثر سابقها فى لاحقها، ويتأثر حاضرها بماضيها؛ وينتفع بعضها من بعض[1].

ولقد تواجدت حضارات مختلفة فى الزمان والمكان، وانتفعت من بعضها انتفاعاً أدى إلى تقدمها عند الكثير.

وتشكل الحضارة مجموع الصفات، والمزايا المشتركة لمجتمع، أو لمجموعة من المجتمعات، وهى تتجاوز الثقافة وتغلفها. وهذه الصفات تمثل مجموع الحلول التى أوجدها أو تبنتها مجموعة اجتماعية ما، تندمج بشكل عام، فى جو واسع جداً، ومكان جغرافى طويل جداً من التاريخ.

وتستخدم هذه الأساليب المادية، والتقنية، والمفاهيم لحل جميع المشاكل، التى يطرحها وجود هذه المجموعة: الاتصالات، وإصلاح وتوزيع الأراضى، واستثمار الثروات، وكذلك الحياة الاقتصادية، والفكرية، والسياسية، والدينية.

وكل المجموعات البشرية تعمر صدورها الرغبة بالحياة والخلود. وهذا العامل عنصر غير مادى، وهو ضرورى لكل حضارة، لكى تولد، وتحيا، وتتطور. وجميع العناصر المكونة للحضارة متفاعلة فيما بينها باستمرار، وتتطور بوتائر متفاوتة بين السرعة والبطء.

وإن أول ما يسترعى انتباه المراقب، الذى ينظر للحضارة من الخارج، هو صفاتها الجمالية. وإدراكها للجمال بشكل عام والأساليب الفنية المعبرة عنه. ولا يخفى أن الحوار الحضارى يتم من أجل الصفات الجمالية فى الحضارة.

---

(١) انظر الدكتور أحمد السايح: «أضواء على الحضارة الإسلامية»، ص: ١٨.

وتعتبر المنشآت المادية، والأدوات والتماثيل والكتابات، ذات أهمية خاصة بالنسبة لمفاهيم الجمال فى كل حضارة. ويأتى بعد علم الجمال كل ما له علاقة بالحياة المادية كفن الطبخ، وطريقة التغذية، وصناعة الفخار، والأوانى، والأدوات المنزلية، والمفروشات، والمنشآت، والأدوات والآلات والأسلحة، حيث يتم الجمع بين الفائدة المباشرة، والصفة الجمالية.

والفاحص المدقق: يجد أن تيار الفكر الحضارى الإنسانى، يتخذ طابعاً واحداً. لا ينحو كثيراً عن تاريخ الإنسان نفسه. فالحضارات والثقافات المختلفة، تتفاعل مع بعضها. فتنتج للإنسان ما يشبع حاجته الفكرية والمادية.. وبذا فإن الحضارات الإنسانية على مر العصور، تكون كلاً متماسكاً. يترابط بنيانه العضوى كحلقات السلسلة الواحدة، التى لا تنفصم الواحدة عن الأخرى.

ولا يمكن أن تكون كل حضارة نشأت بمعزل عن غيرها من الحضارات الأخرى. أو أنها لم تتفاعل معها. ونظرتنا الأساسية تقوم على أن الحضارات تأخذ وتعطى. تأخذ ما يتفق مع طبيعة البنيان العقلى والفكرى للأمة. وتعطى ما تجود به نوعيتها ونشاطها الفعال. وبطبيعة الحال، فإن هذا التفسير أقرب إلى فهم روح الفكر، والنشاط الإنسانى المتصل الذى بدأ تاريخه ومسيرته مع بداية الإنسان على هذه الأرض[1].

ولا يخفى أن النشاط العقلى، والإنتاج الحضارى، لا بد وأن يستند إلى أدلة ملموسة والأدلة فى هذه الحالة. إما مادية مثل: النقوش والمعابد والآثار والمنشآت. وكل شكل الإنتاج التكنولوجى. وإما فكرية مثل: الوثائق والمؤلفات والكتب والنظريات العلمية. والآراء المدونة كتابة.

أما فيما يتصل بالأدلة المادية. فإنها ميدان اهتمام التاريخ وباحثيه، وعلماء الآثار، ودارسيها. فدراسة هولاء تفسير الحضارة الإنسانية بالأدلة المادية التى تميز حضارة من الحضارات عن غيرها. على حين أن الفلاسفة ومؤرخى العلم يهتمون بصورة أساسية بالنشاط الفكرى، والنظريات والآراء وتطور الأفكار التى يقومون على تحليلها ونقدها محاولة تفسيرها من خلال عملية التركيب المنطقى للوقوف على الفلسفة الكامنة فى باطن الفكرة نفسها.

(١) الدكتور ماهر عبدالقادر محمد: «المشكاة»، ص: ١٦٦، ط: دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٥م.

الإسـلام والحضارة

إن الإسلام ينظر إلى الإنسان على أنه خليفة الله فى الأرض. قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾. (البقرة : ٣٠).

وقد فضل الله الإنسان وكرّمه. كما وضح ذلك فى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾. (الإسراء : ٧٠).

وهذه الكرامة التى اختص الله بها الإنسان ذات أبعاد مختلفة. فهى حماية إلهية للإنسان، تنطوى على احترام حريته، وعقله، وفكره، وإرادته.

وهذه الكرامة تعنى فى النهاية الحرية الحقيقة. وهى تلك الحرية الواعية المسئولة التى تدرك أهمية تحملها أمانة التكليف والمسئولية. التى أشار إليها القرآن فى قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ﴾. (الأحزاب : ٧٢).

وإذا كان الله قد اختص الإنسان بالتكريم، وجعله مكلفاً ومسئولاً. فإنه من ناحية أخرى قد خلق الله له هذا الكون بما فيه ليمارس فيه نشاطاته المادية والروحية على السواء.

يقول الله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾. (الجاثية : ١٣).

والتفكير الذى تنص عليه الآية هنا أمر جوهرى لا ينبغى أن يغيب عن الأذهان[(١)].

فإنه إذا كان الله قد سخر للإنسان هذا الكون. فلا يجوز له أن يقف منه موقفاً غير اللا مبالاة. بل ينبغى عليه أن يتخذ لنفسه منه موقفاً إيجابياً. وإيجابيته تتمثل فى درسه، والنظر فيه، للاستفادة منه بما يعود على البشرية بالخير.

(١) الدكتور محمود حمدى زقزوق: «دور الإسلام فى تطور الفكر الفلسفى»، ص:٩، ط: مكتبة وهبة بالقاهرة.

والاستفادة من كل هذه المسخرات فى هذا الكون، لا تكون إلا بالعلم والدراسة والفهم.

والنظر فى ملكوت السموات والأرض على هذا النحو سيؤدى إلى الرقى المادى وفى الوقت نفسه، إلى الرقى الروحى(١) والحضارى.

والحضارة الإسلامية هى عمارة الأرض، وترقية الحياة على ظهرها: إنسانياً، وخلقياً، وعملياً، وأدبياً، وفنياً، واجتماعياً، وفق منهج الله وشريعته.

وبناء على هذا المفهوم. فإن المجتمع الإسلامى - وهو المجتمع الذى يطبق شريعة الله فى كل جوانب الحياة - هو وحده المجتمع المتحضر. والمجتمع المتحضر(٢) هو الذى تكون القيم الإنسانية، والأخلاق الإنسانية التى تقوم عليها. هى السائدة فيه. وهذه القيم هى التى تنمى خصائص إنسانية الإنسان، وهى التى تميزه عن غيره من المخلوقات(٣).

وهذه القيم إنما هى قيم إنسانية ذات ميزان ثابت. وهى مقررة فى الشريعة الإسلامية منذ جاءت. وما على الإنسان إلا أن يمضى فى بنائها وصيانتها فى كل المجتمعات التى يقيمها حضرية كانت أم بدوية؛ صناعية كانت أم زراعية. فالمهم فى كل الأحوال. هو الارتقاء صعداً بالخصائص الإنسانية وحراستها من النكسة إلى الحيوانية التى تؤدى إلى التخلف.

إن الحضارة الإسلامية تقوم بهذه القيم، وبهذه الأخلاق، فى كل مكان، وفى كل بيئة. أما أشكالها وصورها المادية، فهى كثيرة، ومتنوعة. لأنها فى كل بيئة تستخدم المقدرات والمعطيات الموجودة بها فعلاً، وتنميها وفقاً لميزان الله الثابت، وقيم الإنسان المقررة فى شريعة الله(٤).

فالإسلام حين يدخل المجتمعات البدائية ينشىء الحضارة المناسبة لهذا المجتمع

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الدكتور على أحمد مدكور: «الثقافة والحضارة فى التصور الإسلامى»، مجلة الدارة، ع٤، ص:٥٢، السنة: ١٤، السعودية: ١٤٠٩هـ.

(٣) سيد قطب : «معالم فى الطريق»، ص: ١٣١-١٣٣.

(٤) المصدر السابق، ص: ١٣١.

وحين يدخل المجتمعات المتقدمة صناعياً أو زراعياً أو غير ذلك فإنه يستخدم كل ما لديها من معطيات ويقيم حضارة هذه المجتمعات مستفيداً مما لديها.

وإذا كان هذا هو مفهوم الحضارة الإسلامية فإن التخلف الحقيقى فى - مفهوم المجتمع الإسلامى المتحضر - هو تحويل منجزات العلم الهائلة إلى قوى باغية للتدمير والتسلط وتسخير إمكانات العلم غير المحدودة فى نشر الفوضى والعادات غير الخلقية، ولا بد من استخدامها فى إعلاء القيم الإنسانية وفى خدمة الإنسان بغى أو ظلم أو تحكم أو إبادة.

إن مهمة العلم فى مفهوم المتحضر ليست قهر الطبيعة أو الانتصار عليها بل التلطف مع الطبيعة والجد فى اكتشاف قوانين الله فيها[1].

وإذا كان هذا هو عمل الإسلام حينما ينشىء حضارة فإن هذه الحضارة التى دعا إليها الإسلام تتميز بأنها منفتحة الحدود الفكرية والنفسية والمادية والنصوص الإسلامية التى تعلن هذه الحقائق كثيرة منها:

- عن أبى هريرة - رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة»[2].

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال رسول الله ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث أشياء: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له»[3].

ولا يخفى: أن البحث الذى يسبر أغوار المواريث الفكرية لهذه الأمم ويتتبع خيوط هذا التمايز الحضارى يجد أنها تضرب بجذورها فى أعماق التاريخ حيث كان البابليون والآشوريون والفينيقيون والمصريون وغيرهم ممن أسهموا فى الفكر الإنسانى وكان لهم تمايز حضارى[4].

---

(١) الدكتور على أحمد مدكور: «الثقافة والحضارة فى التصور الإسلامى»، مجلة الدارة، عدد: ٤، ص: ٩٩، ١٤.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه مسلم.

(٤) راجع الدكتور أحمد السايح: «أضواء على الحضارة الإسلامية»، ص: ٧٨، ط: دار اللواء بالرياض، ١٤٠١هـ-١٩٨١م.

ولعل نظرة فاحصة إلى الأمم مثل الفرس والصين والهند واليابان. . . ستفضى بالباحثين إلى الاجتماع، على حقيقة تميز الشخصيات القومية، والمواريث الحضارية وطريق العيش والفلسفة والحياة وفى النظرة للكون وتصوره لدى شعوب وأمم هذه الحضارة. .

وكذلك الحال إذا نحن تأملنا الحضارة الغربية منذ اليونان وحتى نهضتها الحديثة والحضارة الإسلامية منذ تبلورها كثمرة لاندماج المواريث القديمة للشعوب التى دخلت الإسلام - بعد الإحياء لهذه المواريث - كثمرة لاندماج هذه المواريث فى الفكر الإسلامى الذى استصفاها وطورها وفقاً لمعاييره[1]، حيث لم يكن المسلمون مجرد نقلة. ولكن إضافاتهم للأصول التى نقلوا عنها تشهد بأنهم زادوا وابتكروا لأنهم كانوا ينظرون بعين إلى الحضارات التى أخذوا عنها وبالعين الأخرى إلى التعاليم الإسلامية[2].

إذن: لا بد من التصور الذى يقوم على أن الفكر إذا نظرنا إليه على المستوى العالمى الإنسانى وجدنا فى هذا الفكر: «ماهو مشترك إنسانى عام»، لا يختص عنها بحضارة بذاتها وفى هذا الفكر أيضاً ما يتميز بالخصوصية والاختصاص.

والتميز فى الفكر بين ما هو مشترك إنسانى وبين ما هو خصوصيته حضارية. وإنما تحكمه وتحدده معايير موضوعية.

فكل العلوم التى تكون الطبيعة موضوعها وظواهرها المادة وخصائصها، هى من قبيل الفكر الذى هو مشترك إنسانى عام وذلك لأن مناهجها تتميز بالحياد العلمى ولأن التجربة الملموسة بالحواس المادية هى السبيل لاكتشاف حقائق هذه العلوم. تلك الحقائق التى هى بنت الدليل، والتى لا تختلف باختلاف مذاهب وعقائد، وأجناس وفلسفات المكتشفين. ومن ثم فهى لا تتغاير بتغاير القوميات والحضارات بل هى واحدة على المستوى الإنسانى، كما أن موضوعاتها المادة وظواهرها واحدة هى الأخرى لا تختلف ولا تتغاير باختلاف وتغاير الحضارات،

(١) انظر الدكتور محمد عمارة: «الغزو الفكرى وهم أم حقيقة»، ص: ٩ بتصرف.

(٢) انظر الدكتور توفيق الطويل : «الحضارة الإسلامية والحضارة الأوروبية»، ص: ١٥١، ط: مكتبة التراث الإسلامى، مصر ١٩٩٠م.

فعلوم مثل الرياضيات بفروعها ومثل الكيمياء والطبيعة والطب والجيولوجيا لم ولن تختلف مناهجها وحقائقها وقوانينها باختلاف الحضارات. وقد تتمايز وظائف استخدام قوانينها ونظرياتها ومكتشفاتها لكن حقائق علومها أى: «فكرها العلمى» سيظل واحداً مهما اختلفت المذاهب والعقائد والحضارات(١).

ويلحق بهذه المنظومة من حقائق العلوم الطبيعية الخاصة بدراسة المادة وظواهرها وأسرارها على نحو ما، وإلى حد كبير.. العديد من ثمرات التجارب الإنسانية فى الوسائل والنظم والمؤسسات والخبرات التى ترشد أداء الإنسان وهو يسعى إلى تحقيق المقاصد والغايات.

فعلى الرغم من تمايز المقاصد والغايات والمثل فإن تجارب الإنسانية فى الوسائل والنظم والمؤسسات قد تكون صالحة فى أحيان كثيرة للاقتباس - مع التطويع - والتمثيل والاستلهام.

إن العناصر الخارجية ضرورة حتمية لا تستغنى عنها حضارة مهما سمت وارتفعت. إنها تمتزج لتكون وإياها صيغة جوهرية تختلف من تراث إلى آخر وهذه العناصر الخارجية تأتى بطريق الاقتباس الإرادى المباشر المقصود. والاقتباس والنقل عملة متداولة بين الشعوب قاطبة فكل حضارة أبدعت ونقلت وأخذت وأعطت ولم توجد قط حضارة أبدعت ولم تنقل، فالنقل ليس وباء وإنما هو غذاء والاستعارة ليست عاراً وإنما هى فخار.

فالتأثيرات الحضارية والاستعارات الثقافية والأفكار والآراء والنظريات المتبادلة بين الأمم والشعوب إنما هى ظاهرة صحية طبيعية سليمة، لا خطر فيها ولا خوف منها(٢).

والعرب هم وارثو الحضارات القديمة إذ لم يكونوا قبل الإسلام معزولين عن جيرانهم أصحاب الثقافات العريقة عزلة كاملة فقد انفردت الصحراء العربية بين صحارى العالم أجمع بأنها أحيطت منذ القدم بأرقى حضارات العالم.

---

(١) انظر الدكتور محمد عمارة: «الغزو الفكرى وهم أم حقيقة»، ص: ١٦.

(٢) انظر الدكتور محمد عبدالرحمن مرحبا: «أصالة الفكر العربى»، ص: ١٥٢، ط: عويدات ١٩٨٢، بيروت، فرنسا.

ففى الشمال ازدهرت حضارة ما بين النهرين وحضارات الإغريق والكنعانيين والأراميين وجزر بحر إيجه.

وفى الغرب ازدهرت حضارة المصريين القدماء، وفى الشرق كانت الحضارة الفارسية ومن ورائها الحضارات الآسيوية الأخرى، وفى الجنوب كانت حضارة اليمن.

وكانت القوافل العربية دائبة الحركة بين مراكز هذه الحضارات عند أطراف الصحراء تنقل البضائع والسلع، وكان لا بد أن تتحرك المعارف والثقافات مع السلع والبضائع وأن تختلط هذه الثقافات وتتزاوج فى حركة بطيئة، ولكنها ثابتة مستمرة، وأن يؤدى كل ذلك إلى تصفية الأفكار والمعارف وتقدمها تبعاً لهذا الاختلاط والتزاوج[١].

فى هذا الجو جاء الإسلام. إنه لم ينتشر فى فراغ، فالأمم التى صادفها أو اتصل بها فى حركة المد الكبيرة أو تلك التى اعتنقته ودانت به أمم عرفت حضارات شتى وثقافات متنوعة ومرت بتجارب روحية وخبرات مادية متعددة.

وكان اختلاط العرب بهذه الأمم اختلاط قتال وحروب ومعارك أولاً ثم اختلاط حضارة وثقافة وأفكار بعد ذلك ومن هنا كان التأثير والتأثر. ومن هنا كان التفاعل والاخصاب وكان الأخذ والعطاء، وتبادل الأفكار والآراء.

وبذلك فقد عرف العرب حضارة الهند وحكمة فارس وفلسفة اليونان، واختلط المسلمون بأقوام تنوعت عقائدهم وتشعبت آراءهم وصادفوا مئات المفكرين والباحثين والمثقفين، واتصلوا بأصناف من الأفراد والجماعات لا تدخل تحت حصر، وشاع التزاوج والاصهار وتفاعلت العادات والتقاليد والآراء والأفكار والمذاهب والمواقف والعلاقات، وجاءت وحدة الدين لتعطى هذا التفاعل صيغة فريدة. وتنتج عن ذلك كله مزاج فكرى واجتماعى وروحى جديد أعطى الحضارة الإسلامية معناها ومبناها[٢].

---

(١) المصدر السابق، ص: ١٦٤.

(٢) المصدر السابق، ص: ١٦٤.

وكلما ذهبنا نبحث فى حضارات الأمم وجدنا أن اللقاء والتفاعل الحضارى الذى عرفه التاريخ بين الحضارات العريقة المالكة لما هو: «مشترك ولما هو خاص قد تم وفق أن هناك ما هو مشترك إنسانى عام» وهناك ما هو خاص.

فالتقاء الحضارات - وهو معلم التاريخ الحضارى للإنسانية وتفاعل هذه الحضارات عندما تلتقى - هو قدر لا سبيل إلى مغالبته أو تجنبه. لكنه دائماً وأبداً وفق هذا القانون الحاكم التمييز بين ما هو مشترك إنسانى عام تفتح له الأبواب والنوافذ بل ويطلبه العقلاء ويجدون السعى فى تحصيله وبين ما هو خصوصية حضارية يدققون فى حذر - قبل استلهامه وتمثله، ويعرضونه على معايير حضارتهم، لفرز ما يقبل منه ويتمثل، من ذلك الذى يرفضونه، لما فيه من تناقض مع هويتهم الحضارية وقيمهم الاعتقادية[1].

ويستطيع الباحث فى الحضارات، أن يضرب مثالين على تفاعل الحضارات والتقائها فى أخذ وعطاء وفق «ما هو مشترك إنسانى عام»، وما هو «خصوصية حضارية».

المثال الأول: لقاء الحضارة الإسلامية بالحضارة الفارسية، والهندية، واليونانية.

والمثال الثانى: لقاء الحضارة الغربية إبان نهضتها بالحضارة الإسلامية.

---

(١) الدكتور محمد عمارة، «الغزو الفكرى، وهم أم حقيقة»، ص: ٢٠٥ بتصرف، ط: الأزهر ١٩٨٨م.

لقاء الإسلام بحضارات الأمم

أما المثال الأول الذى يقوم على لقاء الحضارة الإسلامية وتفاعلها مع الحضارة الفارسية، واليونانية، والهندية، فإن المدرك لأبعاد هذا اللقاء والتفاعل، يلحظ بوضوح أن المسلمين لم يكونوا يومئذ أخلاء من أى تفتح عقلى، إذ كانت نواة التفكير فيهم قد تكونت، كما كانت بين أيديهم نظرية كونية شاملة أمدهم بها القرآن، فكانت بمثابة العمود الفقرى لكل تفكير عقلى، وتحرك عملى وعلمى.

ولهذا أقبل المسلمون على حضارات الأمم يمتصون بسرعة فائقة ما خلفه الفرس من حكم وآداب وخبرات سياسية، وما خلفه اليونان الإغريق من علوم فلسفية وعقلية، وما كان لدى مختلف الأمم التى التقت مع المسلمين، لقاء مودة، أو لقاء خصام.

لقد قام المسلمون بتحرير هذه العلوم، وتنقيتها من الشوائب، وتطويرها، وتنميتها، وصقلها، وإصلاح فاسدها، مسترشدين بالمنهج العلمى العام، الذى رسمه للمسلمين مصدرا التشريع الإسلامى العظيمان: القرآن والسنة.. كل ذلك فيما لم يكن من خصائص الشريعة الإسلامية بيانه، وتحديد أصوله وفروعه، كأصول الاعتقاد، وأحكام العبادات، وأحكام المعاملات، ونظم الحياة الفردية والاجتماعية التى رسم الإسلام للناس طريقها، وأوضح لهم صراطاً المستقيم[1].

إن الدولة الإسلامية الجديدة التى عملت على نشر الإسلام فى الممالك المختلفة، والتقت بحضارات الأمم لم تأخذ من الحضارات إلا لكى تعطى.. إنها لم تقبل التراث الفكرى اليونانى وغير اليونانى، إلا لكى تهضمه بعقليتها الجديدة، وتتمثله بمنطق تفكيرها، وروح عقيدتها، وبكل أصالة تاريخها وخصبه، وترده بعد ذلك أضعافاً مضاعفة.

(١) عبد الرحمن حبنكه الميدانى: «أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها»، ص: ١٢٢، ط: دار القلم، دمشق، بيروت ١٤٠٠هـ.

فقد أقبل المسلمون على علوم اليونان، والهنود، وأصحاب الحضارات القديمة، يغترفون منها ما كان فى وسعهم أن يغترفوا، لكن تلك العناصر التى التهموها قد تحوّلت على أيديهم لتكون غذاءاً جديداً[1].

إن العلماء المسلمين وهم يستوعبون نتاج الحضارات القديمة والمذاهب والأفكار، ويستعينون بها فى عملية البناء، كان رائدهم فى ذلك البحث عن الحقيقة لذاتها، و«الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها التقطها».

لقد أخذ المسلمون ما أخذوا لأنهم طلاب حقيقة وهذا حسبهم، إنهم لم يقدموا على النقل والاقتباس للتجمل والزينة، وليباهوا الناس بكثرة الأحجار الكريمة، والأساور والعقود، والخلاخيل، بل لبناء الذات، واستدراك ما فات، واستكمال أسباب الحياة.

لقد كان المسلمون ينظرون فى كل شىء، ويبحثون فى كل فج، ويستفيدون بكل حديث وقديم، ينقبون عن كل علم، ويسيرون وراء كل حكمة، ويأخذون العبرة من الماضى، وينطلقون للمستقبل، يستفيدون من القديم، ويبنون الجديد، وكانت لهم جولات وجولات فى كل ناحية من نواحى الحياة، فى العلم، وفى الحكمة، وفى الأخلاق، وفى الفلسفة، وفى الطب، وفى الهندسة، وفى الجغرافيا، وفى الفلك، وفى الصناعة، وفى الكيمياء، وفى الصيدلة، وفى الزراعة، وفى التاريخ، وفى القصص، وفى اللغة، وفى الحيوان، وفى الفيزياء، وفى الأحجار، وفى البحار، والمعادن[2].

ولم يدخر المسلمون جهداً فى البحث عن تراث الأمم السابقة، واضطلع المسلمون رغم ما عانوه من جهد بالتعرف على اليونانية القديمة، والفارسية، والهندية، وغيرها من الثقافات التى نما إلى علمهم أنها موجودة فى أى صقع أو قطر[3].

لقد امتصت العقلية الإسلامية الغذاء الذى قدمه ميراث العالم القديم الضخم بعد أن أصبح متوفراً باللغة العربية، فأدى ذلك إلى قيام مدارس الفلسفة،

(١) الدكتور محمد عبدالرحمن مرحبا: «أصالة الفكر العربى»، ص: ١٦٧.
(٢) أنظر: الدكتور توفيق الراعى: «الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية»، ص: ٣٨٩.
(٣) المصدر السابق، ص: ٣٩.

والعلوم، والفنون المختلفة، التى سيطرت على أفق الحضارة الإسلامية نتيجة لتطبيق مبادىء الإسلام على أشكال المعرفة المختلفة، التى ورثها المسلمون عن الشعوب، ذات الحضارات العريقة(١).

لقاء الإسلام بالحضارة الفارسية :

وليس هناك شك فى أن الفتح الإسلامى للإمبراطورية الفارسية، ودخول الفرس بمواريثهم الحضارية الغنية فى إطار الدولة الإسلامية قد أتاح أوسع الفرص لتفاعل حضارى واسع وعميق وخلاق بين الحضارة الفارسية وبين الفكر الإسلامى(٢).

لكن الراصد لهذا التفاعل بين الفكر الإسلامى إبان تبلور حضارته وبين الميراث الفارسى يستطيع أن يميز بين ما «قبل» وبين ما «رفض» من هذا الميراث.

لقد فتحت فارس على عهد الخليف عمر بن الخطاب وكذلك فتحت الأودية الزراعية للأنهار الكبرى فى الدولة الإسلامية: النيل، ودجلة والفرات. ولم يتردد عمر بن الخطاب فى تبنى النظام الفارسى فى ضريبة الأرض الزراعية والذى كان يسمى «وضائع كسرى» وظل سائداً ومعمولاً به حتى فى ظل الدولة العباسية.

فأنت ترى أنه فى عهد عمر بن الخطاب، تم استلهام خبرة وتجربة حضارية فارسية فى طرق تقدير الضريبة على الأرض الزراعية. ولكن المسلمين الناشرين للإسلام، فى فارس كانوا حذرين كل الحذر وشديدى الرفض والمقاومة لكل ما هو «خصوصية حضارية» فارسية، تتعارض مع معايير الإسلام، وجوهر معتقداته، وخصائصه الحضارية المتميزة.

لقد رفضت الخلافة الإسلامية - وهى نمط متميز فى الحكم - ما تميزت به مواريث الحضارة الفارسية فى نظام الحكم وفلسفته السياسية التى كانت ترى رأس الدولة «كسرى» ابناً للإله - هورا - مزدا» يحكم باسمه، ونيابة عنه زاعماً أن لقانونه وتنفيذه قداسة الإله والدين(٣).

(١) الدكتور محمد عبدالرحمن مرحبا: «أصالة الفكر العربى»، ص: ٢٢١.

(٢) الدكتور محمد عمارة: «الغزو الفكرى وهم أم حقيقة»، ص: ٢٠٦.

(٣) انظر الدكتور محمد عمارة: «الغزو الفكرى وهم أم حقيقة»، ص: ٢٠٧-٢٠٨.

كذلك رفضت الحضارة الإسلامية ميراث الفرس فى النظام الطبقى المغلق. لتعارضه الجذرى مع فلسفة الإسلام، فى المساواة بين الناس فى الحقوق والواجبات.

والذين يقرأون مصنفات علماء الإسلام فى الملل والنحل وصراعهم الفكرى مع الفرق والمذاهب غير الإسلامية، يدركون المقاومة الباسلة، التى ووجهت بها مذاهب الفرس وعقائدهم وفلسفاتهم(١).

فعلى حين فتحت الأبواب للتجارب الإنسانية العلمية ولعلوم التمدن العلمى كان الحذر بل والمقاومة للفلسفات والمعتقدات المخالفة للمعايير الإسلامية، إن فى السياسة أو فى الاجتماع أو فى الدين(٢).

---

(١) المصدر السابق، ص: ٢٠٨.

(٢) المصدر السابق، ص: ٢٠٩.

لقاء الإسلام بحضارة الشام، ومصر، وبلاد الشمال الإفريقى

لقد أخذ المسلمون ينشرون الإسلام خارج الجزيرة العربية بين الشعوب التى كانت تنتظر الإسلام. ونشأت الحضارة الإسلامية فى كنف القرآن الكريم، والسنّة النبوية، وكانت الأمم الداخلة فى الإسلام ذات حضارات مزدهرة، فنشأ بين حضاراتها والإسلام مزج وتفاعل ولقاء وبدت أعظم مظاهر هذا المزج فى النظم الاجتماعية، والآراء العقلية. واشترك الدعاة إلى الإسلام بأهل البلاد التى فتحت صدرها للإسلام فى الحركة الاجتماعية والاقتصادية. وبهذا كله امتزجت أمور أخرى كثيرة. وتأثرت بهذا الامتزاج كل مرافق الحياة والنظم السياسية والاجتماعية، والطبائع العقلية. وكانت الأمم المفتوحة للإسلام أرقى من العرب مدنية. ولهذا أسهمت فى نشأة الحضارة الإسلامية.

وحضارة مصر والشام والشمال الإفريقى، كانت ذات ميراث بيزنطى. استفادت منها حضارة الإسلام فى «تدوين الدواوين»، وهو خبرة إدارية بيزنطية.

ويخبرنا التاريخ: أن الأمير خالد بن يزيد بن معاوية، سعى إلى مدرسة الإسكندرية يتعرف على ما فيها من تراث.

وقد كتب إلى أبيه معاوية، يبشره بنجاح سعيه وبلوغ ما أراد. فكتب قصيدة أرسلها إلى أبيه فى هذا الشأن يقول فيها:

أيا راكباً نحو الشام عشية ... يومٌ دمشقاً قف فحمل كتابياً

وبلغ يزيد حين يتلو رسالتى ... وقل خالداً قد نال ما كان راجيا

ألا قد ملكت الشمس والبدر عنوة ... وزتهما من بعد طول عنائيا

وخالد بن يزيد يقصد بالشمس الذهب، وبالبدر الفضة. وكانت صناعة الكيمياء آنئذ قائمة على أساس تحويل المعادن الخسيسة إلى الفضة والذهب[1].

---

(١) انظر الدكتور أحمد السايح: «أضواء على الحضارة الإسلامية»، ص:٨١ ط: دار اللواء، الرياض: ١٤٠١هـ.

وبهذا بدأت حركة الترجمة للعلوم الطبيعية والتجريبية، وفنون التمدن العلمى. والتى سميت بعلوم الصنعة.

وإذا كانت الحضارة الإسلامية تفاعلت مع حضارة مصر والشام، وتبنت ما فى هذه المجتمعات من المعارف والعلوم والتجارب الإنسانية. فإنها فى الوقت نفسه حاربت «الغنوصية» والهلينية فى الفلسفة، وعارضت عقائد ومذاهب المسيحية التى أخرجتها الروح الهلينية، عن نقاء عقيدة التوحيد.

لقاء الإسلام بالحضارة الهندية:

الهند قارة تسكنها مجموعة شعوب، مختلفة الأجناس، والمذاهب الدينية، والفكرية، والاجتماعية. وجهود الهند فى التعليم قديمة جداً. وأكثر نتاج الهند الفكرى، كتب باللغة السنسكريتية. وهى معروفة الأصول مما ساعد على معرفة جميع نواحى الثقافة الهندية.

والباحث فى الحضارة الهندية سوف يجد أن الهنود أسهموا فى جميع العلوم القديمة. وأشهر علوم الهنود:

- الفلك والرياضيات. وأقدم الرسائل الفلكية هى كتاب «السد هانتا» حوالى ٤٢٥ ق.م. ثم أبحاث «أريابهاتا» أعظم الفلكيين والرياضيين الهنود الذى علل الكسوف والخسوف فى حركة الأرض حول الشمس. أى قال بدوران الأرض حول الشمس، وشرح كروية الأرض فى دورتها الحيوية حول محورها. كما عرف هذا الرياضى النظام العشرى.

- الفيزياء والكيمياء: وجدت فى الهند مذاهب فيزيائية مختلفة. وقال بعضهم: إن الضوء والحرارة ظاهرتان مختلفتان لعنصر واحد، وأن الشمس مصدر الحرارة فى العالم. وفسر آخر الضوء بأنه مؤلف من ذرات صغيرة، تنبعث من الأشياء وتطرق العين. أما الكيمياء فتقدمت مع تقدم الطب الهندى والصناعة الهندية. وكان الرومان ينظرون إلى الهند، كأمهر أمة فى الصناعات الكيميائية مثل: الصباغة، والدباغة، والصابون، والزجاج، ونوع من الأسمنت.

- الطب. وأشهر ما اشتهر به الهنود الطب. وكان أطباء الهنود منذ القرن السادس قبل الميلاد، يعرفون الأوعية الدموية، والأنسجة الدهنية، والضفائر العصبية، والجهاز اللمفاوى، وأنواع العضلات وحركاتها، ويعرفون تجبير العظام، ويفهمون عملية الهضم، وتطور الجنين، ويشرعون فى ضرورة فحص الزوجين قبل الزواج[١].

ولا شك أن تفاعلاً حضارياً فى مختلف العلوم والفنون، قد أخذ دوره فى محيط الحضارة الإسلامية من واقع تأثرات التمازج والمخالطة. فعرف المسلمون من الرياضيات الهندية كتاب: «السد هانتا» السند هند[٢]. وفى أيام أبو جعفر المنصور، قدم كثير من علماء الهند، وكان معهم «السد هانتا» السند هند باللغة السنسكريتية. وقد كلف أبو جعفر العلامة أبا إسحاق بن حبيب الفزارى بتعريبه. ففعل. وقام الخوارزمى بتصحيحه ومراجعته[٣]. والمسلمون استفادوا من الأرقام عند الهنود. فهذّبوها وكونوا منها سلسلتين عرفت إحداهما بالأرقام الهندية. وعرفت الثانية باسم الأرقام الغبارية[٤].

فعندما التقى الإسلام بمواريث الحضارة الهندية، أخذ ما يتناسب معه، وترك ما لا يتفق مع مبادىء الإسلام، مما هو خصوصية حضارية. فالبيرونى ٣٦٢-٤٤٠هـ = ٩٧٣-١٠٤٨م الذى نهض بمهام وأعباء البعثة العلمية عندما عاش بالهند أربعين عاماً عقب الفتح الغزنوى لبعض أقاليمها. والذى درس تاريخ الهند وتراثها وحضارتها دراسة العبقرى المتفرد. . البيرونى هذا يعلمنا أن أسلافنا، ميزوا بين العلوم الطبيعية، والعملية، والتجريبية، التى أخذوها وطوروها. وبين ديانات الهند ومذاهبها وفلسفاتها التى رفضوها لتعارضها مع التوحيد الإسلامى، ومع إلهية المصدر الدينى فى الإسلام[٥].

---

(١) أنور الرفاعى: «الإسلام فى حضارته ونظمه»، ص: ٥١١-٥١٢، ط: دار الفكر ١٣٩٣هـ.
(٢) الدكتور مصطفى الشكعة: «معالم الحضارة الإسلامية»، ص: ١٣٠، ط: دار العلم للملايين، بيروت.
(٣) فيليب طرازى: «خزائن الكتب العربية فى الخافقين»، ج١، ص: ٥٠، ط: بيروت.
(٤) الدكتور أحمد السايح: «أضواء على الحضارة الإسلامية»، ص: ٩٤، ط: دار اللواء بالرياض ١٤٠١هـ.
(٥) انظر البيرونى: «تاريخ الهند أو تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة»، ص: ٨٠، بتصرف.

لقاء الإسلام بالحضارة اليونانية :

يكاد يكون معروفاً أنه: ليس فى الحضارات القديمة حضارة تثير الدهشة والإعجاب كالحضارة اليونانية، لأن هذه الحضارة جمعت آثار الحضارات البابلية، والمصرية، والفينيقية، والفارسية، ثم أضافت إليها آثاراً فنية رائعة، ومذاهب فكرية مبتكرة، ومبادىء خلقية سامية، يتجلى فيها الإبداع بأقوى مظاهره.

لا شك أن للعوامل التاريخية، والجغرافية، والاقتصادية، والاجتماعية، تأثيراً فى تكوين الحضارات. ولكن هذه الأسباب لا تكفى لتفسير ما تميزت به حضارة اليونان من قوة الإبداع، والابتكار.

لقد غربل اليونانيون آثار الحضارات القديمة، ومحصوها أعمق تمحيص. فحذفوا منها ما حذفوا، واستبقوا منها ما استبقوا. ولكن حضارتهم ليست حصيلة الحضارات السابقة فحسب. وإنما هى حضارة متميزة، أطلقت حرية العقل، وجاوزت حدود الزمان والمكان[١].

ويذكر العلماء: أن الحضارة اليونانية، عرفت باسم الحضارة الهيلينية، نسبة إلى «هيلين» الجد الأكبر الخرافى للشعب اليونانى. وقد انتشرت هذه الحضارة الهيلينية مع امتداد نفوذ الإغريق التجارى الاستعمارى، ولما فتح الإسكندر المقدونى الشرق امتزجت الثقافة اليونانية بروح الشرق[٢]. فنشأت حضارة مزيجة عرفت بالهيلينية. وأخصبت عدة مراكز فى الشرق. ولما جاء الإسلام وجد فى هذه المراكز حضارة يونانية فى الإسكندرية، وفى إنطاكية وغيرهما. وكان لا بد لهذه الحضارة الإغريقية أن تظهر على مسرح الوجود، عنواناً على حضارة هذه الأمة الآرية، التى علّمت الإنسانية جمعاء الكثير من أنماط الفكر وسياقاته.. ولكن كان لها النسق الخاص بها، والخاص بها وحدها، المتصل ببيئة المجتمع اليونانى.. ولذلك حين قام الإسلام بوضع فلسفته، المعبرة عن حضارته كان لا بد من اختلاف عنيف، ومن جدل قاس، وتعارض فى المنهج، وفى المادة، بينه وبين الفلسفة اليونانية[٣].

---

(١) الدكتور جميل صليبيا: «تاريخ الفلسفة العربية»، ط: دار الكتاب اللبنانى، سنة ١٩٨٦م.

(٢) انظر: أنور الرفاعى: «الإسلام فى حضارته ونظمه»، ص: ٥٠٠.

(٣) الدكتور على سامى النشار: «نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام»، ج١، ص: ١٠٢، ط: دار المعارف بمصر ١٩٧٧م.

لقد سعى المسلمون إلى ترجمة العلوم الطبيعية اليونانية، آخذين إياها من مصادرها الشرقية فى البلاد التى فتحوها. فترجموا تراث اليونان فى: الطب، والكيمياء، والهندسة، والرياضيات، والميكانيا «الحيل»، والزراعة، والمناظر، والحساب، والمنطق، وغيرها من العلوم الطبيعية، والعلمية، والتجريبية.

ولكن المسلمين زهدوا، بل انصرفوا عن نقل الآداب اليونانية لأنها كانت وثنية تتحدث عن الآلهة وكيف كان يصارع بعضها بعضاً، وفيها فوق هذا كله نقائض البشر.

فهناك ميادين فى المعتقدات، والإنسانيات اليونانية، قد نفر منها المسلمون، فضربوا عنها صفحاً ولم يترجموها، ولا حتى للمتخصصين من العلماء، وذلك مثل عقائد الوثنية اليونانية، وأساطير آلهتها، وآداب اليونان وفنونها[1]..

إذن استفاد المسلمون من الحضارة اليونانية فى حدود «قانون التفاعل الحضارى» الذى يميز دائماً وأبداً بين ما هو «خصوصية حضارية» وبين ما هو «مشترك إنسانى عام».

وإذا كان الأمر - كما ذكرت - فلماذا أعطى المسلمون وزناً كبيراً لفلسفة اليونان، ترجمة وشرحاً، حتى تضخمت آثارها، فى تراث المسلمين الحضارى. علماً بأن هذه الفلسفة اليونانية، لا تدخل فى قانون التفاعل الحضارى، ولا تناسب العقائد الإسلامية؟

إن الباحث بعمق. يجد أن المسلمين حين انفتحوا على الحضارة اليونانية، أخذوا منها ما يتفق مع خصوصيتهم الحضارية. ثم واجهوا ما عند اليونان من النمط الهلينى، فى النظر والفكر والتى كانت «الغنوصية» أبرز مذاهبه فى نظريات المعرفة.

كانت «الهلينية» كما وجدها المسلمون فى البلاد التى فتحوها هى: «اليونانية الشرقية» التى امتزج فيها الفكر الفلسفى اليونانى، بروحانية الشرق، ومع هذه «الهلينية» كانت أولى معارك الإسلام الفكرية.. حيث أن المسلمين الذين أبدعوا

(١) انظر الدكتور محمد عمارة: «الغزو الفكرى وهم أم حقيقة»، ص: ٢١٢.

عقلانيتهم الإسلامية المتميزة، فأنشأوا علم الكلام الإسلامى، الممثل لفلسفة الإسلام المتميزة منذ النصف الثانى من القرن الهجرى الأول. ثم اتجهوا بعد ذلك إلى ترجمة الفلسفة اليونانية، وترجمة عقلانية أرسطو أولاً وبالتحديد. لا ليتخذوا منها فلسفة لهم وللإسلام، وإنما ليردوا بها كسلاح يونانى على الهلينية وثمرتها «الغنوصية»، التى هى تأثيرات يونانية مزجت بباطنية الشرق، وروحانية الشرقيين.

وأنصار الغنوصية كانوا - كمتغربى هذا الزمان من أبناء الأمة الإسلامية - أثراً يونانياً فى الشرق، وامتداداً شرقياً لفكرية اليونان. فعمد العلماء إلى ترجمة العقلانية اليونانية، ليردوا بها على أنصار اليونان. وكأنهم أرادوا أن يقولوا لهم: إذ كنتم لا تحترمون إلا ما هو وافد، ومستورد، ويونانى الصنع. فها نحن نجابهكم بأرسطو المعلم الأول عند اليونان، وأبرز عقولهم الفلسفية بإطلاق، نجابهكم بالعقلية اليونانية نقضاً لغنوصية الأفلاطونية المحدثة اليونانية، استخداماً للأسلحة التى تحترمون وتعظمون[1].

ولا يخفى أن هذه الرؤية العقلية، التى توضح سبب اهتمام المسلمين بالفلسفة اليونانية تنهض الأدلة المختلفة لتأييدها فى قوة.

فلقد كانت الهلينية و«الغنوصية» الباطنية. هى تغريب ذلك العصر، والغزو الفكرى الذى أصاب الغرب اليونانى الشرق. منذ انتصار الاسكندر الأكبر «٣٥٦ق.م-٣٢٣ق.م». على الدولة الفارسية «٣٣٣ق.م» وبنائه امبراطوريته الشرقية الأولى. فلما ظهر الإسلام خاضت ضده المعارك فى البلاد التى فتحها المسلمون. لكن الإسلام بعد أن بلور عقلانيته المتميزة. تقدم فاستعان بالعقلانية الأرسطية فى نضاله ضد الهلينية والغنوص. فكانت ترجمة الفلسفة اليونانية، استعانة بحقيقة الفكر اليونانى على هزيمة صورته الشرقية المهجنة، وبسلاح معترف به من الغنوصيين»[2].

ويقول المستشرق الألمانى بكر كارل هينرش ١٨٧٦-١٩٣٩: «إننا نرى كفاح المسيحية من أجل استقلالها، وتوكيد ذاتها. بإزاء الروح اليونانية المجسدة فى

(١) انظر: الدكتور محمد عمارة: «الغزو الفكرى وهم أم حقيقة»، ص: ٢١٣ بتصرف.
(٢) المصدر السابق، ص: ٢١٤.

«الغنوص» يتكرر من جديد فى الإسلام فى القرون الأولى تحت أسماء أخرى. فكما كانت المسيحية الأولى معادية للروح الهلينية، كان الإسلام فى الصدر الأول على العموم معادياً هو الآخر للروح الهلينية. والميزة الرئيسية للقرآن هى أنه كان يؤثر تأثيراً مضاداً للروح الهلينية، فى عصر تغلغلت فيه الهلينية، وفى اللحظة التى تخطى فيها الإسلام حدود مهده الأول، بدأ الصراع والتصادم. . إن المانوية والزرادشتية كانتا بالنسبة للإسلام عدوتين خطيرتين كالمسيحية. وإن «غنوص» المانوية، والمذاهب الشبيهة بها كانت خطرة على الإسلام خطراً مباشراً. لذلك نرى أن أول مدرسة كلامية فى الإسلام. ونعنى بها المعتزلة قد استفادت بعضاً من أصولها، ومسائل بحثها عن طريق كفاحها ضد المانوية.

وفى كل هذه الألوان من الكفاح. تكونت جبهة كفاح فريدة فى بابها. فالدولة والمذهب الدينى الرسمى، يسيران هنا كما يسيران فى كل مكان، جنباً إلى جنب، وفى صف واحد. لكنهما فى كفاحهما ضد «الغنوص» الذى لا يعترف لأحد بسلطان يهيبان بالروح اليونانية الحقيقية (الفلسفة اليونانية) كى تساعدهما.

لقد كان الغنوص، يحارب الإسلام دينياً وسياسياً. وفى هذا النضال استعان الإسلام بالفلسفة اليونانية وعنى بإيجاد عالم من العلوم العقلية.

فكأن الإسلام قد تحالف إذاً مع التفكير اليونانى والفلسفة اليونانية ضد «الغنوص» الذى كان خليطاً من المذاهب القائمة على النظر والمنطق وعلى مذاهب الخلاص الباطنية.

ومن هنا نستطيع أن نفسر حماسة الخليفة المأمون للعمل على ترجمة أكبر عدد ممكن من مؤلفات الفلاسفة اليونانيين إلى العربية.

وقد اعتاد الناس أن يفسروا هذا حتى الآن بإرجاعه إلى ميل المأمون إلى العلم وحبه له. لكن إذا كانت الرغبة فى ترجمة كتب الأطباء القدماء، قد نشأت عما اشتهرت به المدارس الطبية الكبرى من حاجة عملية إلى هذه الكتب. فلعل ترجمة كتب «أرسطو» أن تكون قد نشأت بالضرورة عن حاجة عملية كذلك.

وإلا فإنه إذا كانت المسألة مسألة حماسة للعلم، ورغبة خالصة فى تحصيله فحسب. لكان «هوميروس» أو أصحاب المآسى من بين من ترجمت كتبهم أيضاً. لكن الواقع هو أن الناس لم يحفلوا بها، ولم يشعروا بحاجة ما إليها»[1].

لقاء الحضارة الغربية بالحضارة الإسلامية :

إن الباحث فى انفتاح الغرب على الحضارة الإسلامية، يجد أن هذا الانفتاح، قد تحقق من خلال :

١ - نقل التراث الإسلامى فى صقلية :

ولا يخفى أن المسلمين قضوا فى حكم جزيرة صقلية قرابة ثلاثة قرون، وخلال ذلك كانت الحضارة الإسلامية مزدهرة ازدهاراً شد انتباه غير المسلمين. فلما استولى الأوربيون على جزيرة صقلية استفادوا من الحضارة الإسلامية، واستطاعوا أن ينقلوا إلى لغاتهم تراث المسلمين الحضارى المزدهر فى جزيرة صقلية، مما كان له أثر واضح فى النهضة الأوربية الحديثة.

٢ - نقل التراث الإسلامى فى بلاد الأندلس :

إن المسلمين استطاعوا فى قوة أن يقيموا حضارة الإسلام فى بلاد الأندلس، وأصبحت بلاد الأندلس فى ظل الحكم الإسلامى، بلاد الحضارة والعلم. مما جعل علماء أوربا يذهبون إليها ليتلقوا العلم على يد علمائها، ويترجمون تراثها من العربية إلى اللاتينية.

لقد كانت قرطبة فى عهد عبدالرحمن الثانى، مركزاً رائعاً للجمال المادى والنشاط الفكرى. . ونما ذلك فى عهد عبد الرحمن الثالث. وكان شديد العناية بالعلوم والآداب، وتزايدت هذه النهضة فى عهد ابن الحكم الثانى الذى كان إلى جانب علمه يرسل مندوبين إلى جميع بقاع العالم الإسلامى لابتياع الكتب أو استنساخها. ووفق بذلك إلى إنشاء مكتبة تضم أربعمائة ألف كتاب.

وإذا كانت قرطبة، وغرناطة وغيرهما من مدن حضارية قد سقطت فى أيدى

---

(١) بكر كارل هيزش: «التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية»، ص: ٧-٩، ترجمة الدكتور عبدالرحمن بدوى، ط: القاهرة ١٩٦٥م.

غير المسلمين فإن العلوم والآداب الإسلامية والحضارة واصلت ازدهارها فى ظل النقل والترجمة والإبداع .

٣ - نقل التراث الإسلامى أثناء الحروب الصليبية :

كانت الحروب الصليبية صراعاً بين الكنيسة والشرق الإسلامى . وهدف هذه الحروب تخليص الأراضى المقدسة من المسلمين . وقد استمرت قرنين من الزمان . ومن المؤرخين من يرى أن هذه الحروب هى العامل الوحيد فى تقدم أوربا . حيث تم نقل الصناعات والفنون الإسلامية . ويرى بعض العلماء : أن الشرق الإسلامى قد أثر فى الغرب المسيحى إبان الحروب الصليبية من أربع نواحٍ هى :

١ - فى الكنيسة البابوية . إذ قامت فى بيت المقدس عام ١١٠٠م مملكة دنيوية بدلاً من «التيوقراطية» الدينية التى كان يحلم بها البابا .

٢ - كما أثرت الحروب فى الحياة الداخلية والاقتصادية ، فى جميع الممالك . إذ نشأ نوع جديد من الضرائب على ممتلكات الأشخاص . كما ساعدت تلك الحروب على الإقلال من أراضى الأشراف .

٣ - كما أثرت الحروب فى العلاقات الخارجية للدول ونظام أوربا ، بتأثيرها فى الكنيسة من ناحية ، وبإيجاد رابطة جديدة للوحدة الأوربية .

٤ - كما أثرت تلك الحروب فى العلاقات القائمة بين أوربا وآسيا . فنهضت حركة الارتياد والرغبة فى الاستزادة من المعلومات(١) .

لقد اختلط الأوربيون بمن هم أرقى منهم فاستفادوا من الحضارة الإسلامية فساعد هذا على قيام النهضة الأوربية الحديثة .

إن أوربا استطاعت أن تتفاعل مع الحضارة الإسلامية ، وتأخذ عنها ، وتستفيد منها . فيما هو «مشترك إنسانى عام» ، أما ما كان من خصوصية للحضارة الإسلامية . فقد رفضها الغرب .

لقد أقبل الغرب بنهم على امتلاك رصيد الحضارة الإسلامية من العلوم الطبيعية : علوم المادة وظواهرها ، وخصائصها . . وعلوم التمدن المدنى والعلمى ،

---

(١) انظر : الدكتور توفيق الطويل : «الحضارة الإسلامية والحضارة الأوربية» ، ص : ٨٦٧ ، ١٦٨ ، بتصرف .

مثل: علوم الطب، والصيدلة، وقواعد النظافة العامة والخاصة، وعلوم الزراعة، والنباتات، والحيوان، والفنون، وعلوم الحرف، والصناعات، والتجارة، والمواصلات، ووسائل الاتصال، وفنون القتال، واستخدامات الحرب، وطبقات الأرض وأنواعها، والمعادن، والبصريات، والمناظر، والكيمياء، والفلك، والرياضيات، من جبر، وهندسة، وحساب، والجغرافيا، والرحلات، وعلوم البحار، والملاحة فيها. . وغير ذلك من علوم وفنون[1].

لقد أخذ الغرب، ما سبق أن أخذناه نحن، عن أسلافهم اليونان، وغيرهم من الفرس والهنود، وما أخذناه من مدرسة الإسكندرية من علوم الصنعة. مضافاً إليه إبداع المسلمين.

لقد أخذ الغرب، من الحضارة الإسلامية، ما هو «مشترك إنسانى عام»، وترك من الحضارة الإسلامية، ما هو خصوصية حضارية إسلامية.

«لقد أجمعت تيارات فكر النهضة الغربية على رفض أبرز خصائص الحضارة الإسلامية. وهى خصيصة «التوحيد» وخصيصة «الوسطية» وخصائص أخرى كثيرة تتصل بالإسلام، وعقائده.

ورفض الغرب لهذه الخصائص الإسلامية. هو الذى ميز الحضارة الغربية بطابعها الأصيل: الطابع المادى.

- فالحضارة الإسلامية قامت بعملية «توفيق» ما بين الحكمة والشريعة، ولكن الحضارة الغربية تميزت بإخراج الدين من إطار العقل، كما أخرجت الدنيا والدولة وعلوم التمدن من إطار الدين.

- والحضارة الإسلامية ربطت بين الدين والدولة، والحاكم والمحكوم، والحضارة الغربية فصلت بين الدين والدولة فى خصوصية حضارية فكانت العلمانية.

- الحضارة الإسلامية وفقت بين الفرد والمجموع فى ربط متناسق، أما الحضارة الغربية فقد انحازت للفرد فى «ليبرالية» واضحة.

(١) انظر: الدكتور محمد عمارة: «الغزو الفكرى وهم أم حقيقة»، ص: ٢٤٨.

- والحضارة الإسلامية ربطت الأعمال بالحكمة منها. والوسائل بأخلاقيات الغايات المبتغاة من ورائها. أما الحضارة الغربية، فكان اهتمامها قائماً على اللذة والشهرة واللحظة. وكانت سياسة الحضارة الغربية تعنى «بالميكيافيلية»: «فن الممكن من الواقع بصرف النظر عن الأخلاق».

- الحضارة الإسلامية وازنت بين سيادة الله وحاكميته، وبين سلطان الأمة وسلطاتها، فى حين كانت الحضارة الغربية تقوم على أن الإنسان سيد الكون يفعل ما يشاء[1].

إذن وبكل تأكيد: هناك ما هو «مشترك إنسانى عام» تأخذه الحضارات من بعضها وتساهم فيه كل حضارة بالعطاء المتجدد، الذى يزيده قوة وفائدة.

وهناك ما هو خصوصية حضارية، لا تقبل الحضارات الآخذة أن يكون ضمن المأخوذ. ونجد ذلك واضحاً فى أعمال أوربا الناهضة، فحينما ترجمت أعمال الفيلسوف المسلم ابن رشد أخذت من هذه الأعمال ما يتصل بالفلسفة اليونانية، ورفضت أخذ ما هو خصوصية حضارية إسلامية.

فالرشدية اللاتينية التى أخذتها أوروبا هى شروح ابن رشد على أرسطو حكيم اليونان، أما إبداع ابن رشد الفيلسوف المسلم والمتكلم والقاضى والفقيه والذى تمثل فى مؤلفاته: «فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال»، و«تهافت التهافت»، و«مناهج الأدلة»، فقد رفضته أوروبا رفضاً تاماً.

ويقول الفريد جيوم: «إن علينا أن نضع حداً فاصلاً بين ابن رشد كفيلسوف وابن رشد كشارح لأرسطو»[2].

وإذا كانت الحضارة الغربية قد رفضت منذ البداية الرشدية الإسلامية؛ كما تمثلت فى مؤلفات ابن رشد الإبداعية، فإن الحضارة الغربية قد رفضت أيضاً إضافات ابن رشد التى تخللت شروحه على أعمال أرسطو. ونهض بهذه المهمة القديس «توماس الأكوينى» (١٢٢٥-١٢٧٤م)، ولذا نرى الجامعات الغربية تتبنى

(١) انظر الدكتور محمد عمارة: «الغزو الفكرى وهم أم حقيقة»، ص: ٢٤٩-٢٥٠، بتصرف.

(٢) الفريد جيوم: «الفلسفة وعلم الكلام»، ص: ٣٩٤، بحث منشور ضمن كتاب تراث الإسلام.

أرسطو فى ذات الوقت الذى تحرم فيه فكر ابن رشد، وتحكم بالكفر على مائتين وتسع عشرة مسألة تمثل إضافات ابن رشد على الشروح التى قدمها لأعمال حكيم اليونان[1].

ومما لا يحتاج إلى بيان أنه كلما استلهمت الحضارات «ما هو مشترك إنسانى عام»، تقدمت الحضارات واستفادت وازدهرت، وانتشر الأمن.

التفاعل الحضارى:

والتفاعل الحضارى ضرورة إنسانية، لا بد منها لقيام الحضارات، وتقدم الإنسان فى كل ما من شأنه أن يأخذ بيد الإنسان، ويشيع فى المجتمعات الإنسانية السلام والأمن.

وإذا تأملنا فى حال الأمة الإسلامية وجدنا أنها - من وجهة نظرنا - محاصرة بين غربتين: غربة زمان، وغربة مكان.

أما غربة الزمان، فهى: بعد الأمة عن ماضى حضارى مشرق، لم تعد تربطها به عوامل الثقافة الفاعلة أو البانية.

وأما غربة المكان، فهى: بعد الأمة عن واقع حضارى معاصر، تجهل عنه كل شيء. مما مثل فجوات حضارية كبرى ليس من السهل على الأمة الإسلامية تجاوزها أو تجاهلها.

ولذلك إذا كان لا بد لهذه الأمة، أن تعود إلى التفاعل الحضارى، وتستفيد من حضارات الإنسانية، كان لا بد من خروج الأمة الإسلامية، من الاغتراب الزمانى والاغتراب المكانى، وذلك بالربط بين الواقع والثوابت الحضارية الإسلامية، وبين مصادر وعوامل التقدم المعاصر.

وليس هناك من وسيلة للربط غير الدين، والعلم، والحياة، فى إطار من حرية الفكر، وسياسة عقلانية للتقدم، وتسامح مستنير[2]. فإن فعلت الأمة ذلك، كان ذلك بداية فى طريق حضارى.

(١) المصدر السابق، ص: ٣٦٠، ٣٩٤.

(٢) الدكتور محمود قمبر: هدفية العلم فى الإسلام، مجلة حولية كلية التربية، عدد رقم٨ ص: ٦٣، سنة ١٤١١هـ-١٩٩١م، كلية التربية، جامعة قطر.

وإن التقدم البشرى فى مختلف المراحل والمجالات ليس إلا حصيلة الإبداع الفكرى والتعاون، والاحتكاك بين المجتمعات.

ولا عيب أن نأخذ من حضارات الأمم ما يفيدنا. ولكن العيب أن نظل عالة على أمم الأرض نأخذ منها ولا نعطى.

ويجدر بنا أن ندرك أن الانغلاق ليس بالموقف اللائق بالعقلاء، ولا التبعية الحضارية بمفيدة. أو ملائمة لمن يمتلكون خصوصية حضارية إسلامية.

والعزلة الحضارية والجهل صنوان، كلاهما تخلف، وكلاهما حجاب يمنع وصول الضوء، وكلاهما عقبة كأداء فى طريق التطور والتقدم.

ويكاد يكون مؤكداً أنه لا توجد حضارة قامت بذاتها، واكتفت بذاتها مستغنية عن غيرها. وإنما هى نتيجة تطور حضارى دائم وتفاعل بين حضارات أخرى تفاعلت هى بدورها وغيرها من الحضارات فى الزمان والمكان.

والنمو الحضارى إنما يعتمد على التجارب الحضارية الأخرى. وكلما ازدادت فرص الالتقاء والتفاعل بين الحضارات ازدادت فرص الحياة والنمو والاكتساب والتعلم.

والأمة الإسلامية وهى تتطلع إلى مستقبل مشرق. لا بد وأن تخوض معركة بناء الذات وتجديدها. مسوقة بقيم وأفكار ومواريث لها فى وعيها فاعليتها القوية.

ولا يخفى أن الأمة الإسلامية تملك رصيداً ضخماً من القيم الهادفة وتوجيهات الإسلام، وهذه القيم كفيلة عند استثمارها بأن تجعل الأمة الإسلامية فى وضع يسمح لها بأن تنمى فلسفتها الحضارية الإنسانية، وتتسابق مع أمم الأرض فى بناء حضارة إنسانية، ومما هو معروف أنه ليس كل عمل يصدر من الإنسان يسهم فى الحضارة الإنسانية. وإنما ذلك العمل الذى ينمى الحضارة، وينطلق من الإنسان للإنسان.



الفصل ٣ الثالث

كيفية مواجهة التيارات



تمهيـــد

بعد أن اتضحت لنا أبعاد «الغزو الفكرى» وتياراته، وحركاته التى تعمل ليل نهار، يبقى أمامنا السؤال الكبير: ماذا فعلنا نحن؟ ما موقفنا من الغزو الفكرى؟ إن جزءاً كبيراً من الغزو الفكرى، وهو حركة فكرية هائلة، وما تنتجه هذه الحركة يخصنا نحن المسلمين ويخص عقيدتنا، ولغتنا، وتراثنا، وتاريخنا، وذاتيتنا.

وإن جزءاً كبيراً من الغزو الفكرى، حركة عملية هائلة، تأخذ المواقع، وتسيطر على القلوب.

والغزو الفكرى بحركته الفكرية والعملية من أخطر ما نواجه فى حياتنا، لأن ما يقوم به من أهداف تقوض الدعائم يتعلق بأعمق أعماقنا عقدياً، وفكرياً، وحضارياً، وليس هناك أمام المسلمين من سبيل إلا المواجهة وقبول التحدى وإثبات الذات وإلا فلسنا جديرين بالحياة.

ولا يخفى على أحد أن السعى إلى إثبات الذات، والعمل على مواجهة هذه التحديات والتيارات الغازية دليل صحة، ودليل صحوة.... إذن - لا بد من منهج.

والمنهج الصحيح هو أن نواجه الفكر بالفكر، والعمل بالعمل، ولما كان التخطيط الاستشراقى منبعاً لكثير من التيارات. والتحرك التبشيرى غزواً عمليات للمجتمعات، كان علينا أن نواجه هذين التيارين فى قوة وحزم.



أولا : مواجهة الفكر الاستشراقى

لا شك أن الاستشراق كان ولا يزال يشكل الجذور الحقيقية، التى تقدم المدد للتنصير والاستعمار، والعمالة الثقافية، ويغذى عملية الصراع الفكرى، ويشكل المناخ الملائم، لفرض السيطرة الاستعمارية على الشرق الإسلامى، وإخضاع شعوبه.

فالاستشراق هو المنجم، والمصنع الفكرى، الذى يمد المنصرين والمستعمرين، وأدوات الغزو الفكرى، بالمواد التى يسوقونها فى العالم الإسلامى، لتحطيم عقيدته، وتخريب عالم أفكاره، والقضاء على شخصيته الحضارية التاريخية [١].

لقد تطورت الوسائل، وتعددت طرق المواجهة الثقافية الحديثة ويكفى أن نشير إلى مراكز البحوث والدراسات سواء أكانت مستقلة أم أقساما للدراسات الشرقية فى الجامعات العلمية وما يوضع تحت تصرفها من الامكانات المادية أو المبتكرات العلمية أو الاختصاصات الدراسية تمثل الصور الأحدث فيتطور الاستشراق حيث تمكن أصحاب القرار من الاطلاع والرصد لما يجرى فى العالم يوميا [٢].

ففى القارة الأمريكية وحدها حوالى عشرة ألاف مركز للبحوث والدراسات، القسم الكبير منها متخصص بشئون العالم الإسلامى ووظيفة هذه المراكز تتبّع ورصد كل ما يجرى فى العالم ومن ثم دراسته وتحليله مقارنا مع أصوله التراثية التاريخية ومنابعه العقدية ثم مناقشة ذلك مع صانعى القرار لتبنى على أساسه الخطط وتوضع الاستراتيجيات الثقافية والسياسية وتحدد وسائل التنفيذ[٣].

(١) انظر الأستاذ عمر عبيد حسنة مقدمة كتاب الأمة رقم ٢٧ ص ٢٢ قطر.
(٢) المصدر السابق عدد رقم ٢٧ ص ٩.
(٣) المصدر السابق.

وإن الباحث فى مؤسسات الاستشراق ووسائلها المختلفة يجد أنها استطاعت أن تؤثر فى العقلية الإسلامية فهذه دائرة المعارف الإسلامية تعد أكبر مصدر للمعلومات والحقائق الإسلامية وأثمن ذخيرة لها وتعتبرها بعض البلاد الإسلامية اليوم أساسا للمعلومات الإسلامية وتقوم بترجمتها إلى لغاتها بنصها وروحها[1].

ولقد نجحت العقلية الأوروبية الاستشراقية فى فرض شكليتها على التحقيق والتقويم والنقد والسيطرة على مصادر التراث العربى الإسلامى ويمكن القول بأن معظم الكتابات العربية المعالجة للتراث قد سارت على هذا النهج فى التاريخ والأدب وغيره.

ولم تتجاوز إلا فى القليل وانهت إلى إيجاد ركائز عربية معبرة عنها ومتبنية لوجهة نظرها ومدافعة عن المواقع الثقافية التى احتلتها حتى فى الجامعات والمؤسسات العلمية لا يزال الخضوع والاحتكام للقوالب الفكرية التى اكتسبها بعض المثقفين العرب من الجامعات الأوربية[2].

وبجانب كل هذا فإن الاستشراق يذهب إلى محاولة إلغاء النسق الإسلامى ومحاولة تشكيل العقل المسلم وفق النسق الغربى الأوربى وإنجاب تلامذة من أبناء العالم الإسلامى لممارسة هذا الدور والتقدم باتجاه الجامعات والمعاهد ومراكز الدراسات والإعلام والتربية فى العالم الإسلامى لجعل الفكر الغربى والنسق الغربى هو المنهج والمرجع والمصدر والكتاب[3].

ومما يلاحظه الباحث بوضوح : أن عمليات الاستشراق والتغريب لم تستسلم ولم تلق السلاح لكن لما أعياها السعى فبدل أن تقر بفساد نظرياتها وعدم إمكانية القبول لها فى العالم الإسلامى. تحاول اليوم أن تعتبر أن المشكلة والعلة فى بنية العقل المسلم أصلا، لتأتى على البنيان الإسلامى من القواعد، وترسب فى النفوس أن السبب فى التخلف، والعجز، والتخاذل الثقافى، وعدم القدرة على الإبداع وقبول الفكر الغربى هو فى بنية هذا العقل وتكوينه وميراثه الثقافى.

(١) الشيخ أبو الحسن الندوى: «الإسلام والمستشرقون» مجلة المنهل عدد رقم ٤٧١ ص ٢٦ جدة.

(٢) عمر عبيد حسنة: «كتاب الأمة» رقم ٢٧ ص ١٤.

(٣) المصدر السابق ص ١٦.

فهو عقل مولع بالجزئية وعاجز عن النظرة الكلية للأشياء، وهو عاطفى يحب الإثارة والانفعال ويعجز عن الفعل، وهو محكوم أيضا بموروث ثقافى لا يستطيع الفكاك منه، فهو لا يفكر بطلاقة وحرية لأنه محكوم بوحى مسبق وهو يقوم على منهج التفكير الاستنتاجى، ويعجز عن التفكير الاستقرائى وهو معجب بالمنهج البيانى، وعاجز عن المنهج البرهانى، وهو يخلط بين الواقع المعاش، والمثال الخيالى وصاحبه يحب الثأر ويغرق فى الملذات، وأن الإسلام الذى يُكون هذا العقل. هو دين أمر ونهى، وزجر وكبت للحرية، وإلغاء للاجتهاد، الأمر الذى أدى إلى التقليد وفقدان الشخصية والقدرة على الإبداع(1).

ولابد أن نعترف بأن الاستشراق يستمد قوته من ضعفه ووجوده نفسه مشروط بعجز العالم الإسلامى عن معرفة ذاته. فالاستشراق فى حد ذاته كان دليل وصاية فكرية. ويوم أن يعى العالم الإسلامى ذاته وينهض من عجزه ويلقى على كاهله أثقال التخلف الفكرى والحضارى، يومها سيجد الاستشراق نفسه فى أزمة وخاصة الاستشراق المشتغل بالإسلام ولا يجوز لنا أن ننتظر من غيرنا أيا كان هذا أن يساعدنا على النهوض من كبوتنا (2).

وإذا كان علينا أن نضع عن أنفسنا أغلال الوصايا الفكرية فإن علينا من ناحية أخرى أن نتحرر من عقدة التخلف التى تسيطر علينا فى جميع مناحى حياتنا والتى تسد علينا منافذ الأمل فى الخروج من أزمتنا، فقد تحررنا من الاستعمار العسكرى ولكننا لم نتحرر من القابلية للاستعمار، ولهذا فإن نظرتنا لكل ما يأتى من الغرب هو نظرة التقديروالاكبار، حتى وإن كان هذا الذى يرد إلينا متمثلا فى أزياء غريبة عن أذواقنا وتقاليدنا(3).

وحتى نكون فى مستوى الحوار الفكرى والتبادل المعرفى ونوقف فعلا الغزو الفكرى والاختراق الاستشراقى لابد أن نكون قادرين على امتلاك الشوكة الفعلية. . أن نكون قادرين على الإنتاج الفعلى لمواد ثقافية تمثل ثقافتنا وتأتى استجابة لها وتغزى الناس بها وبذلك وحده نكون فى مستوى الحوار والتبادل المعرفى. فالمواجهة

(1) المصدر السابق ص ٢٧، ٢٨.
(2) الدكتور محمود زقزوق «الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع» ص ١٢٧، ١٢٨ قطر.
(3) المصدر السابق ص ١٢٨.

لا تكون بإدانة الأخرين والنظر إلى الخارج دائما وإنما تبدأ حقيقة من النظر إلى الداخل أولاً لملء الفراغ بعمل بنائى - مستمر - وتحصين الذات [1].

وقد لا يكون المرء مجانباً للصواب، إذا قال : إننا إذا لم نتصدى للتيار الاستشراقى بكل قوة، فسوف نتعرض للانسلاخ والذوبان لا محالة، والمعركة بين الاستشراق والإسلام معركة فكرية هائلة، جند لها المستشرقون كل المعاول التى تحاول أن تهزم المسلمين، وتبعدهم عن إسلامهم.

وإن الإنسان الذى يتابع النشاط الاستشراقى، قد يلحظ بوضوح، أن هذا النشاط يمثل قمة التحدى للفكر الإسلامى، وقد يكون معروفًا لدى الباحثين : «أن التيارات الفكرية الأجنبية القديمة - التى كانت تمثل تحديًا للإسلام، والفكر الإسلامى الأصيل، فى عصور الإسلام الزاهرة - كانت حافزًا للمسلمين، فى تلك الأيام الخوالى، للوقوف أمامها بقوة وصلابة[2].

وقد رأى الإمام الغزالى، فى عصره، أن التيارات الفلسفية، يتردد صداها فى الأرجاء وأنها تصول، وتجول، فى تحدٍ سافرٍ، للفكر الإسلامى، والمسلمين، فلم يقف الغزالى موقف المتفرج، ولم يسبَّ، ويشتم، ويصرخ، ويولول، ولم يرغب أن يترك الأمر، ويقول لا شأن لى به، ولكنه عزم على خوض المعركة، فأعد العدة، واتخذ لها الأدوات من العلم والمعرفة بما عند هؤلاء.

وقد رأى أن يتقن الفلسفة، ويتفرغ لقضاياها، ويتعرف على مقاصد الفلاسفة، واستطاع فى دقة واتقان أن يخرج كتابه : «مقاصد الفلاسفة» وكان ما قام به هو الخطوة الأولى فى منهج المواجهة للفكر الفلسفى، ثم جاءت الخطوة الثانية بعد ذلك بالكشف عما فى «مقاصد الفلسفة» من تناقض للفكر، ومخالفة للمنطق والعقل، وتعثر فى المقاصد، فكان كتاب «تهافت الفلاسفة» يمثل قمة المواجهة.

واستطاع بهذا المنهج النقدى أن يواجه المعركة، ويخوض غمارها، فى قوة، ودقة ويقول الغزالى معبرًا عن ذلك المنهج : «ثم إنى ابتدأت - بعد الفراغ من

(١) عمر عبيد حسنة : «كتاب الأمة» رقم ٢٧ ص ٢٩.

(٢) الدكتور محمود حمدى زقزوق : «الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى» ص ١٢٤.

علم الكلام - بعلم الفلاسفة، وعلمت يقينًا : أنه لا يقف على فساد نوع من العلوم، من لا يقف على منتهى ذلك العلم، حتى يساوى أعلمهم فى أهل ذلك العلم، ثم يزيد عليه، ويجاوز درجته، فيطلع على ما لم يطلع عليه صاحب العلم، من غوره وغائله، وإذ ذاك يمكن أن يكون ما يدعيه من فساده حقًا، ولم أر أحداً من علماء الإسلام، صرف عنايته وهمته إلى ذلك»[1].

وإذا كان الغزالى، قد استطاع أن يواجه الفكر الفلسفى، فى عصره فإن الأمر بالنسبة للاستشراق يحتاج إلى جهود وأفراد ومؤسسات. فمكتبات العالم مليئة بإنتاج المستشرقين، وبشتى اللغات الإنسانية، وهناك عشرات المجلات، ومئات المؤسسات التى ترعى الاستشراق، وتعمل لخدمة المستشرقين، وهناك أيضًا آلاف العلماء والباحثين من المستشرقين يتفرغون لبحوثهم ودراساتهم، وهناك المؤتمرات الاستشراقية العالمية التى تعقد حسب الحاجة فى العواصم العالمية.

ولقد كان لحركات الفكر الاستشراقى منذ القرن الثامن عشر، قوة دفع، ورواج واستقطاب، أثارت اهتمام رجال الفكر الإسلامى، بما كتبه المستشرقون عن الإسلام، فى الكتب، والمجلات، والموسوعات، وعن مصدريه الأساسيين : القرآن الكريم، والسنة النبوية، وعن النبى الذى بعثه الله بهذا الدين الحنيف[2]، ومواجهة التحديات الاستشراقية، ضرورة لابد منها، وإن كنا نريد الحفاظ على عقائدنا، التى جاء بها الإسلام، وكنا نريد الحفاظ على ذاتيتنا، وشخصيتنا، ومواجهة الاستشراق فى مجال العقيدة الإسلامية وغيرها يحتاج - كغيره - إلـى بذل جهود صادقة، ومخلصة، لرد هذه الطعون المفتراة، حتى لا يأتى زمن نجد أنفسنا فيه، بألسنة غير ألسنتنا، نردد ما يقوله المستشرقون، دون وعى أو دون أن نحس أننا مسلمون لنا عقائدنا وشخصيتنا.

ومنهج نقد الاستشراق فى مجال العقيدة الإسلامية وغيرها مما تناوله الاستشراق لابد وأن يقوم من وجهة نظرنا على الأصول الأساسية التالية :

أولا : استيعاب شامل للإنتاج الاستشراقى، فى مختلف المجالات الإسلامية، وهذا الاستيعاب لابد منه، ومن حق الأمة الإسلامية، أن يعرف

(١) الإمام الغزالى: «المنقذ من الضلال» ص ٩٢.

(٢) الدكتور التهامى النقرة: «القرآن والمستشرقون» ص ٢١.

أبناؤها ما يقوله الآخرون عنها، فى عقائدها وغير عقائدها، ليكون أبناء الأمة على بينة مما يقوله أو يتقوله هؤلاء المستشرقون. . ويلزم هذا الاستيعاب الشامل تحقيق الأمور التالية:

(١) القيام بحصر شامل لكتابات المستشرقين فى المجالات المختلفة فى القرنين التاسع عشر، والعشرين، بصفة أساسية، باللغات الانجليزية، والفرنسية، والألمانية، والأسبانية، والإيطالية، والروسية، ويشمل هذا الحصر: الكتب، والمجلات، والدوريات.

والقيام بعملية حصر هذا الأعمال الاستشراقية يحتاج إلى خبراء وعلماء مسلمين متخصصين، ويحتاج إلى عدد من المساعدين فى مجال كل لغة نأخذ منها.

(٢) لابد من توفير كل الأعمال الاستشراقية المشار إليها، عن طريق الشراء، إذا كانت متوفرة، أو عن طريق التصوير، إذا لم يمكن شراؤها، وتشكل هذه الأعمال مكتبة استشراقية تكون تحت أيدى الخبراء والعلماء.

(٣) يقوم جهاز متعاون من الخبراء فى اللغات المختلفة، بتحضير المادة وتصنيف الموضوعات، وضم المادة التى يتكرر الحديث عنها فى لغات مختلفة، تحت موضوع واحد.

(٤) تقدم المادة للعلماء الذين سيقومون بإعداد النقود العلمية، ويراعى عند تقديم المادة للعلماء، أن تترجم لهم الأفكار الأساسية للقضايا المعروضة، ليكون عند العلماء تصور شامل لكل ما قيل حول القضية المطروحة، وحتى يغطى التناول للموضوع، وجهات النظر التى قيلت فيه[1].

(٥) تذكر مع المادة التى تقدم للعلماء أسماء المستشرقين الذين تناولوها وأزمنتهم وبيئاتهم، والدوافع وراء مقولاتهم.

(٦) العمل على بيان المصادر، التى اعتمد عليها المستشرقون، فى كتاباتهم عن قضايا المسلمين، وهل هى مصادر إسلامية أصيلة فى الموضوع، أم مصادر

---

(١) الدكتور محمود حمدى زقزوق: «الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى» ص ١٣٢.

غير إسلامية، لأن بعض المستشرقين يعتمد على ما ذكره المستشرقون السابقون كمصدر أساسى، دون الرجوع إلى كتب المسلمين.

(٧) بيان المنهج الذى التزم به هؤلاء الكاتبون فى العقائد والشرائع، والتاريخ، والحضارة، والسيرة لأن بيان مناهج المستشرقين سوف يكشف لنا عن أخطاء جسيمة فى المنهج والنتائج، والدارس لمقولات المستشرقين فى العقائد الإسلامية وغيرها، يجد فى هذه الكتابة تغرباً عن المسلمات، وخروجًا صريحًا على البداهات، وما يمكن اعتباره محاولات متعمدة لإصابة هذه المسلمات والبداهات بالجروح والكسور، وهى لن تفعل فعلها فى يقين المسلم، إلا فى حالات معينة، بينما نجدها تدفعه فى أغلب الحالات وأعمها إلى الاشمئزاز، والنفور.

هذا مع أن معالجة واقعة، تمتد جذورها إلى عالم الغيب، وتربط أسبابها بالسماء، ويكون فيها الوحى همزة وصل مباشرة بين الله سبحانه ورسوله الكريم، ويتربى فى ظلالها المنتمون على عين الله ورسوله ليكون تعبيرًا حيًا عن إيمانهم، وقدوة حسنة للقادمين من بعده. مواقع كهذه لا يمكن بحال أن تعامل الجزئيات والذرات والعناصر فى مختبر للكمياء، أو كما تعامل الخطوط والزوايا والمساحات على تصاميم المهندسين، بل ولا كما تعمل الوقائع التاريخية التى لا ترتبط بأى بُعد دينى أصيل[1].

إننا هنا بمواجهة تجربة من نوع خاص، وشبكة من العوامل والمؤثرات تند عن حدود مملكة العقل، وتستعصى على التحليل المنطقى الاعتيادى المألوف، ومن ثم فإن محاولة قسرها على الخضوع لمقولات العقل الصرف، ومعطيات المنطق المتوارثة، لا يقود إلى نتائج خاطئة حينًا ولا تستعصى عليه بعض الظواهر حينًا أخر فحسب، بل إنه يقوم بما يمكن اعتباره جريمة قتل بشكل من الأشكال، أو محاولة لتفحص الجسد البشرى، كما لو كان فى حالة سكون مطلق بعيدًا عن تأثيرات الروح وتعقيدات الحياة[2].

---

(١) الدكتور عماد الدين خليل: «المستشرقون والسيرة النبوية» ص ٦.

(٢) المصدر السابق ص ٦.

وإن الدين، والغيب، والروح، والوحى، والقضاة، والقدر، وما اتصل بهذا من أمور العقائد، ليس بمقدور الحس أو العقل أن يدلى بكلمته فيها إلا بمقدار، وتبقى المساحات الأكثر عمقًا وامتدادًا بعيدة عن حدود عمل الحواس وتحليلات العقل والمنطق.

ثانيا : نقد المنهج الذى التزم به المستشرقون فى معالجة قضايا العقيدة الإسلامية، ونقد المنهج هو خطوة حاسمة وضرورية قبل البدء فى نقد ما جاء من أخطاء وافتراءات فى مجال العقيدة، لأن : "مناقشة أى من المستشرقين على مستوى التفاصيل والجزئيات، لا يغنى شيئًا لأنها ستكون بمثابة نقد مؤقت يتحرك على السطح، ويستهلك نفسه فى الجزئيات، دون أن يبحث عن الجذور العميقة، التى تظل تنبت الشوك والحسك.

والجذور العميقة هى المنهج الخاطئ، الذى تقوم عليه أبحاث هؤلاء المستشرقين، فإذا استطعنا أن نضع أيدينا على عيوب المنهج وشروخه استطعنا معرفة المنبع الذى يتمخض عنه تيار الأخطاء الموضوعية، وخلخلة الأسس التى جاءت بهذه الثمار المرة، واقتلاعها [1].

ثالثا : نقد الأخطاء التى وقع فيها المستشرقون فى مجال الإسلاميات وعملية نقد هذه الأخطاء، والمزاعم تقتضى منا عرض الشبهات، والمقولات، ونقدها نقدًا علميًا، بعيدًا عن النزعات الهجومية، حتى يكون لهذا العمل العلمى أثره الإيجابى، لدى المثقفين من المسلمين، وغير المسلمين.. وحتى يكون كذلك دافعًا للمستشرقين، إلى إعادة النظر فى أقوالهم، وعونًا لهم، على تصحيح اتجاهاتهم، وفى النهاية يكون هذا العمل بمثابة تعريف بالإسلام، لكل رغب فى التعرف عليه[2]، ولا يخفى أن العمل العلمى القائم على النقد السليم، يحمل العمل البنائى، الذى يأخذ بالناس جميعاً إلى العلم، والمعرفة، والعملية النقدية الهادفة، جديرة بالممارسة، والمتابعة، لإثراء الفكر الإنسانى بكل حق، وبكل مفيد.

والنقد المطلوب لشبهات وأخطاء المستشرقين لابد وأن يتجاوز الدفاع المتشنج إزاء كل ما طرحه أولئك الذين تخصصوا فى الاستشراق.

---

(١) المصدر السابق ص ٨.

(٢) الدكتور محمود حمدى زقزق: «الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى» ص ١٣٢.

رابعًا : إبراز ما ردده بعض المستشرقين فى نقدهم لمستشرقين آخرين، فإن هذه النقود العلمية التى ذكرها المستشرقون لها دلائلها، وقد تكون أبلغ فى باب النقد، والتصدى والمواجهة، وما أكثر ما جاء عن المستشرقين فى باب النقد إن ما ذكره بعض المستشرقين فى هذا الباب، يشكل ثروة مفيدة، وليس من الكياسة أن نبتعد عن المنصفين.

خامسًا : إثبات أن المصادر التى اعتمد عليها رجال الاستشراق غير أصلية فى الموضوع ، وقد رأى الباحثون، أن المستشرقين قد يرجعون إلى آراء مستشرقين سابقين قد أعماهم التعصب، فنفثوا سمومهم فيما كتبوه، وبعضهم يرجع إلى مصادر لا تتصل بالعقيدة الإسلامية من قريب أو بعيد، وبعضهم على كتاب ألف ليلة وليلة. وكليلة ودمنة. وغيرهما من الكتب التى تجرى مجراهما.

سادسًا : يحسن أن تحاط النقود ببيان ما وقع فيه بعض المستشرقين، من أخطاء علمية، لغوية أو تاريخية، عن جهل، أو عن سوء فهم، وضيق نظر، أو عن شطط فى الافتراضات[1].

سابعًا : أن تقوم النقود التى توجه إلى الاستشراق على منهج يضم الأدلة العقلية، والأدلة النقلية، لأن نقد الاستشراق هو بالدرجة الأولى للمسلمين حتى لا يخدعون بهذه البحوث والدراسات التى تصل عن طريق الاستشراق، وحتى لا ينبهرون بهذا التيار.

كما أن نقد الاستشراق هو للمستشرقين، وقد لا يعترفون بالدليل النقلى، فكان لابد من الدليل العقلى المقنع، الذى يجعلهم يفكرون كثيرًا، قبل أن يقدموا على تناول ما للمسلمين بغير المراد.

ثامنًا : أن تكون النقود التى توجه إلى الاستشراق شاملة لآراء السلف والخلف، فى مسائل العقيدة، من الأسماء، والصفات، والتشبيه، والتأويل، والقضاء والقدر، والحرية، والجبرية، وقضية الألوهية، والإسلام، والإيمان، والنبوة، والرسالة، والوحى، والمعجزة، والبعث، وما جرى مجرى هذا من مسائل العقيدة.

(١) الدكتور التهامى النقرة: «القرآن والمستشرقون» ص ٢٢.

ومواجهة الفكر الاستشراقى بما ذكره السلف والخلف فيه تضييق وحصار لآراء المستشرقين.

تاسعًا : لابد من تفرغ عدد كبير، من علماء الأمة الإسلامية - المتخصصين والذين لهم اتصال بالبحوث والدراسات الاستشراقية - للقيام بهذه النقود العلمية واستخراجها على ما ينبغى.

عاشرًا : أن تتوفر لهذا العمل الجدية، والجهود المخلصة، لتتمكن الأمة من المواجهة، والعمل.

وهناك أعمال أخرى تتصل بمنهج نقد الاستشراق وهى ضرورية ليكون هناك تكامل وحسم فى المعالجة.

ونذكر من تلك الأعمال مايلى : -

١ - أن يصاحب النقود التى توجه للاستشراق عمل موسوعة الرد على المستشرقين، وموسوعة الرد شاملة لكل ما تناوله الاستشراق، وفى هذا يقول الدكتور محمود حمدى زقزوق : «إن المواجهة الفكرية الجادة هى الطريق الصحيح لمواجهة أية تيارات مناوئة للإسلام والمسلمين، ومن أجل ذلك ينبغى أن ننظر إلى حركة الاستشراق بكل جدية، ونأخذ فى الحسبان، أن لها آثارًا كبيرة على قطاعات عريضة من المثقفين فى العالم الإسلامى، وفى العالم الغربى على السواء، ولهذا لابد من التوفر على دراسة الاستشراق دراسة عميقة، ولما كان الفكر الاستشراقى مكتوبًا بشتى اللغات الحية، ومنتشرًا انتشارًا واسعًا على مستوى عالمى فمواجهته لابد أن تكون على المستوى العالمى نفسه[(١)].

وقد دعت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم فى القاهرة، فى نهاية عام ١٩٧٩ م إلى ندوة لمناقشة موضوع إعداد «موسوعة للرد على المستشرقين» وقد حضر الندوة عدد يزيد على عشرين من العلماء والمفكرين المهتمين بهذا الموضوع، وقد أعدت التقارير وقضى الأمر ونامت الفكرة [(٢)].

---

(١) الدكتور محمود حمدى زقزوق: «الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى» ص ١٣١.
(٢) المصدر السابق ص ١٣١.

ولا يفوت الباحث أن يذكر أن «موسوعة الرد على المستشرقين» تختلف عن «منهج نقد الاستشراق فى مجال العقيدة والسنة وغيرهما» لأن الموسوعة شاملة للفكر الإسلامى.

٢ - لابد من عمل دائرة معارف إسلامية، يقوم بعملها العلماء المسلمون «فمشروع إصدار دائرة معارف إسلامية» من بين الأولويات العملية الملحة، فلا يجوز أن نظل نقتات فكريًا من دائرة المعارف الإسلامية، التى قام بإعدادها المستشرقون قبل الحرب العالمية الثانية. فقد تجاوزها المستشرقون وانتهوا منذ بضع سنوات بإصدار دائرة معارف إسلامية جديدة، وواجبنا نحن المسلمين أن نقوم بإصدار دائرة معارف إسلامية باللغة العربية، واللغات الأوروبية، تقف على الأقل فى مستوى دائرة المعارف الإسلامية للمستشرقين، تخطيطًا وتنظيمًا، وتتفوق عليها علميًا، وتنقل وجهة النظر الإسلامية فى شتى فروع الدراسات الإسلامية والعربية إلى المسلمين وغير المسلمين على السواء»[1].

وقد لا يكون المرء مجانباً للصواب إذا عرف أن تقاعس المسلمين حتى اليوم عن عمل «دائرة معارف إسلامية» يدل على الضعف، الذى يدب فى النفوس، وأن مؤتمرات العلماء المسلمين، وقراراتهم تمثل مظاهرة صاخبة، هاجت، وماجت، ثم نامت. . . . إن مشكلتنا أننا نتكلم أكثر مما نعمل، وإن شئت فقل : إننا نتكلم ولا نعمل.

ومهمتنا لنواجه الاستشراق، أن نعمل على إصدار عدة موسوعات ودوائر معارف فى التاريخ، والعقائد، والآداب، والأخلاق، والفقه، والحديث، ومختلف العلوم، والفنون، لأن المعركة فكرية قوامها انتشار الكلمة.

٣ - من الضرورى لمؤازرة منهج نقد الاستشراق فى الأمور التى خاض فيه أن تكون هناك دوريات، ومجلات، ونشرات بمختلف اللغات تتناول ما يتصل بمواجهة الاستشراق، لمحاصرة الفكر الاستشراقى، وصد هجومه، والوقوف أمام زحفه.

٤ - من الضرورى لنجاح التصدى، لسوء ما جاء عن بعض المستشرقين أن

---

(١) المصدر السابق ص ١٤٢.

تكون هناك مؤسسات علمية، وأكاديمية، ودعوية، ترعى شئون النقد، والمواجهة وإعداد الدوريات والمجلات والمؤتمرات.

وفى إمكان الأمة الإسلامية، أن تُوْحِد الهيئات العلمية العالمية، وتهيئ الأجواء المناسبة التى تكفل نجاح المواجهة، والتصدى للزحف الاستشراقى، وذلك أن أمتنا الإسلامية حباها الله سبحانه وتعالى بأعظم النعم، كما بها من الجامعات ما يمكن من وجود آلاف العلماء المتخصصين فى مختلف العلوم والفنون.

٥ - أن نمد يد الصداقة والمودة للهيئات الاستشراقية العالمية، وأن يكون لنا دور بالمشاركة فى المؤتمرات الاستشراقية، التى تعقد فى مختلف العواصم العالمية.

وهذه المشاركة لها أثر إيجابى، فى نفوس المستشرقين، فقد تجعل المستشرقين يشعرون بأننا لسنا منعزلين، وإننا نريد أن نفهمهم من نحن، ومن نكون؟ ومن الكياسة أن ندعو بعض المستشرقين المنصفين لفكرنا وتراثنا إلى مؤتمراتنا وندواتنا.

٦ - أن تقيم كل جامعة فى مجتمعات الأمة الإسلامية معهدًا للدراسات الاستشراقية، يمنح الدارسون فى هذا المعهد درجات علمية عالمية، وقد لا يتصور الإنسان أن الأمة الإسلامية وقد تعددت جامعاتها المختلفة، لم تعمل بعد على إنشاء معاهد أو أقسام للدراسات الاستشراقية، فى حين أننا نجد أنه ما من جامعة فى أوروبا أو أمريكا إلا وملحق بها معاهد وأقسام لدراسة الإسلام والمسلمين، حتى أصبحنا بحركاتنا وسكناتنا واقعين تحت سيطرة وأقوال وآراء الاستشراق.

٧ - أن تعمل كل جامعة، وكل معهد، وكل مؤسسة، على تفرغ عدد معين من أساتذتها للدراسات الاستشراقية، فى مواضع محددة.

٨ - أن يكون هناك تنسيق وتخطيط بين المؤسسات الإسلامية، وتكامل فى الموضوعات المطروحة.

وبهذه الأعمال العلمية نستطيع أن نتصدى للتحديات التى تواجه الأمة الإسلامية، وبهذه الأعمال نستطيع أن نكشف فى وضوح : أن جهود المستشرقين لا تستند على حجة، ولا عقل، ولا منطق، بل هى جهود مغرضة، الهدف منها النيل من الإسلام وأهله، وقد اتسمت هذه الجهود بالكذب، والافتراء والمغالطة.

ومن يتصفح كتب المستشرقين وموسوعاتهم ودوائرهم.. يجد مئات من الاتهامات والأباطيل، وآلاف التخريجات التى لا صلة لها بالعلم.

وإذا كان المسلمون يظنون أنهم فى صحوة إسلامية، ووعى إسلامى، فإن من مبادئ الصحوة الإسلامية وأولياتها : مواجهة الاستشراق والمستشرقين، حتى لا يأتى وقت تكون فيه هذه الصحوات إرادة استشراقية، وتجارب مرادة، تجعل المسلمين يهتمون بالأشكال والقشور، وكل ما من شأنه أن يبعث على الجمود، والتأخر، والتخلف.

ثانيا : مواجهة التبشير

كلمة «التبشير» من الكلمات التى أطلقت على المنظمات الدينية النصرانية، التى تستهدف نشر الديانة النصرانية فى المجتمعات الإسلامية والوثنية والإلحادية.

ومما يجدر أن نعرفه أن البعض من الدارسين والباحثين، يستعملون فى بحوثهم التى تتصل بنشر النصرانية كلمة «التنصير» بدلا من كلمة «التبشير» لأن كلمة التبشير فى المعاجم تعنى : «الخبر الذى يفيد السرور» والبعض الآخر يستعملون كلمة «التبشير» لأن كلمة التبشير هى لسانهم وعقيدتهم، ونحن نستعمل فى بحوثنا كلمة الاستعمار، والشيوعية، والاشتراكية، والعلمانية، والديمقراطية، كما ذكرها أصحابها، ولا مانع أن نذكر كلمة التبشير كما جاءت.

والتبشير - كما تذكره الموسوعات - حركة دينية سياسية استعمارية بدأت بالظهور إثر فشل الحروب الصليبية بغية نشر النصرانية فى الأمم المختلفة فى دول العالم الثالث بعامة، وبين المسلمين بخاصة، بهدف إحكام السيطرة على هذه الشعوب.

ويعتبر المبشر «ريمون لول» أول نصرانى يتولى التبشير بعد فشل الحروب الصليبية فى مهمتها، إذ أنه قد تعلم اللغة العربية بكل مشقة، وأخذ يجول فى بلاد الشام مناقشًا علماء المسلمين، ومنذ القرن الخامس عشر الميلادى وأثناء الاكتشافات البرتغالية دخل المبشرون الكاثوليك إلى إفريقيا، وبعد ذلك بكثير أخذت ترد الإرساليات التبشيرية البروتستانية انجليزية، وألمانية، وفرنسية.

وقد اهتمت الكنيسة بتوجيه الجهود إلى التبشير فى المجتمعات الإسلامية، تريد أن تقتلع الإسلام من نفوس المسلمين، أو تبعد المسلمين عن الإسلام حتى يمكن أن يعتز الإنسان بالقومية أو الحزبية أو الاشتراكية، أو ما جرى مجرى هذا دون أن يفكر فى الإسلام..

ويكاد يجمع المبشرون فيما بينهم على أن القوة التى تخيف أوربا وأمريكا هى قوة الإسلام والمسلمين، ولذا يعمل التبشير بكل ما يملك على تمزيق الأمة الإسلامية، ويصرح المبشر «لورانس براون» : «بالهدف الحقيقى للمبشرين من عملهم فى بلاد المسلمين» فيقول : «إذا اتحد المسلمون فى امبراطورية عربية أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطرًا، أو أمكن أن يصبحوا أيضًا نقمة له، أما إذا بقوا متفرقين فإنهم يظلون حينئذ بلا وزن ولا تأثير» .

ويعبر القس صمويل زويمر عن النوايا السيئة التى تحملها النصرانية للإسلام والمسلمين، فيقول : «لا ينبغى للمبشر المسيحى أن يفشل أو أن ييأس ويقنط عندما يرى أن مساعيه لم تثمر فى جلب كثير من المسلمين إلى المسيحية، لكن يكفى جعل الإسلام يخسر مسلمين بذبذبة بعضهم، عندما تذبذب مسلمًا وتجعل الإسلام يخسره تعتبر ناجحًا يا أيها المبشر المسيحى، يكفى أن تذبذبه ولو لم يصبح هذا المسلم مسيحيًا» .

وصمويل زويمر رئيس إرسالية التبشير العربية فى البحرين ورئيس جمعيات التنصير فى الشرق الأوسط، كان يتولى إدارة مجلة العالم الإسلامى الإنجليزية التى أنشأها سنة ١٩١١م، دخل البحرين عام ١٨٩٠م، ومنذ عام ١٨٩٤م قدمت له الكنيسة الإصلاحية الأمريكية دعمها الكامل، وأبرز مظاهر عمل البعثة التى أسسها زويمر كان فى حقل التطبيب فى منطقة الخليج، ويعد زويمر من أكبر أعمدة التنصير فى العصر الحديث، وقد وضع كتابًا تحت عنوان «العالم الإسلامى اليوم» جاء فيه :

١ - يجب إقناع المسلمين بأن النصارى ليسوا أعداء لهم.

٢ - يجب نشر الكتاب المقدس بلغات المسلمين لأنهم أهم عمل مسيحى.

٣ - تبشير المسلمين يجب أن يكون بواسطة رسول من أنفسهم ومن بين صفوفهم، لأن الشجرة يجب أن يقطعها أحد أعضائها.

٤ - ينبغى للمبشرين ألا يقنطوا إذا رأوا نتيجة تبشيرهم للمسلمين ضعيفة، إذ من المحقق أن المسلمين قد نما فى قلوبهم الميل الشديد إلى علوم الأوربيين.

ويقول : «صمويل زويمر» فى مؤتمر القدس التنصيرى عام ١٩٣٥ م : «لكن مهمة التبشير التى ندبتكم لها الدول المسيحية فى البلاد الإسلامية ليست فى إدخال المسلمين فى المسيحية، فإن فى هذا هداية لهم وتكريمًا، وإنما مهمتكم هى أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقًا لا صلة له بالله، وبالتالى لا صل له بالأخلاق التى تعتمد عليها الأمم فى حياتها».

ويقول أيضا : «إنكم أعددتم نشئًا لا يعرف الصلة بالله ولا يريد أن يعرفها، وأخرجتم المسلم من الإسلام ولم تدخلوه فى المسيحية، وبالتالى فقد جاء النشء طبقًا لما أراده الاستعمار، لا يهتم بعظائم الأمور، ويحب الراحة والكسل، فإذا تعلم فللشهوة، وإذا تبوأ أسمى المراكز ففى سبيل الشهوة يجود بكل شىء»

إن المبشرين كانوا يخططون لاختراق مجتمعات المسلمين فى دقة وخبث ودهاء، «فالمبشر لويس ماسينيون» قام على رعاية التبشير والتنصير فى مصر، وكان عضواً بمجمع اللغة العربية بالقاهرة، كما أنه كان مستشاراً لوزارة المستعمرات الفرنسية فى شئون شمال إفريقيا، والمبشر «دون هك كرى» كان أكبر شخصية فى مؤتمر «لوزان» التبشيرى وهو بروتستانتى، عمل مبشراً فى الباكستان لمدة عشرين سنة.

ولقد كان للمبشرين ولايزال الكثير من المؤتمرات الإقليمية والعالمية التى يناقشون فيها خطط التبشير، واتخاذ ما يرونه مناسباً لهم، ومن تلك المؤتمرات المؤتمر التبشيرى العالمى فى «أدنبره» باسكوتلنده عام ١٣٢٨هـ - ١٩١٠م، وقد حضره مندوبون عن ١٥٩ جمعية تبشيرية فى العالم، ومن أخطر المؤتمرات مؤتمر «كولورادو» فى ١٥ أكتوبر ١٩٧٨م، تحت اسم «مؤتمر أمريكا الشمالية لتنصير المسلمين» حضره مائة وخمسون مشتركاً يمثلون أنشط العناصر التنصيرية فى العالم، استمر لمدة أسبوعين، وانتهى بوضع استراتيجية بقيت سرية لخطورتها.

وما أكثر مؤتمرات التبشير التى تعقد فى أماكن متفرقة حسب الحاجة لعرقلة جهود المسلمين، واقتلاعهم من الإسلام، ويتخذ المبشرون وسائل وأساليب متعددة تحيط بالإنسان، ومن وسائلهم التطبيب، والتعليم، والأعمال

الاجتماعية، والفتن، .والحروب، يقول الدكتور نجيب الكيلانى : «إن روح التعصب الأعمى ضد كل ما هو إسلامى لم تزل سائدة حتى أيامنا هذه، تلك الروح التى غذاها المبشرون ورجال الدين من معتنقى الصليبية القديمة».

وإن الباحث فى أساليب التبشير التى أحاطت بالمسلمين يجد أن هذه الأساليب أضرت بالمجتمعات الإسلامية، وأصبحت عاملاً معوقاً لكل تقدم إسلامى، وقد نجح التبشير فى مواقع كثيرة لأن إمكاناتهم هائلة، ويتحملون ويعملون، ويصبرون ويخططون، ويتربصون، وإذا كنا تنبهنا أخيراً إلى الأخطار المحدقة بالمسلمين من جانب المبشرين، فإن تنبهنا لم يأخذ بنا إلى الطريق السليم، وليس من الكياسة أن نكتفى بإنشاء مراكز للدعوة، هنا وهناك، إن الأمر يقتضى قبل مراكز الدعوة أن نكون أقمنا الملاجئ والمستشفيات والمدارس والمعاهد ومؤسسات الإغاثة والإعاشة.

المواجهة الصحيحة تقتضى عملاً يعمل، لا كلاماً يقال : إن المبشرين يعملون ونحن لا نعمل، وإذا رغبنا فى مواجهتهم لإنقاذ إخواننا المسلمين فلابد وأن يكون عملنا أزيد من عملهم، وتحركنا أكثر من تحركهم.

وإن المواجهة تحتاج إلى تخطيط، وتنظيم واتساع المواقع، والتعرف الدقيق، فإذا ما فعلنا ذلك، كان ذلك بداية طريق طويل.

أما أن نترك المسلمين فى قارة إفريقيا وآسيا وغيرهما تفترسهم النصرانية فإن ذلك أمر بالغ الخطورة.

وإذا كان للتبشير مؤتمرات دولية، ومعاهد علمية، وجمعيات تبشيرية. فلماذا لا تكون للمسلمين مؤتمرات للدعوة والمواجهة، وهنا ربما يقول قائل: للمسلمين مؤتمرات للدعوة كثيراً ما سمعنا وقرأنا عنها، نعم للمسلمين مؤتمرات، ولكن الناس يجتمعون فيها لينفضوا، فهى تساوى مظاهرة فى الشارع، فيها تصفيق وكلام، ثم يدخل كل واحد بيته.

نحن نريد مؤتمرات لا تكون توصياتها وقراراتها حبراً على ورق، وإنما نريد عملاً يعمل فى دقة وتخطيط وسرية.

إن المجتمعات الإسلامية تعانى من التسلط التبشيرى فى الصحافة، وسائر وسائل الإعلام، ووكالات الأنباء، وتعانى فى البيت، وفى الشارع، وفى أمور كثيرة، قد يعرفها البعض ويسكت، وما أكثر الساكتين، لأنهم لا يملكون أن يقولوا شيئاً، إنك ترى برنامجاً فى التلفزيون ينطلق من دولة إسلامية عربية فيشدك إلى مزارع وحدائق خضراء بأندونيسيا ومستشفيات ومدارس أخذت بيد الاندونيسى يقال عنها أنها : «من صنع وإدارة وأعمال الكنيسة الكاثوليكية، هكذا تسمع وترى، ولا يخفى أن هذه الدعاية التبشيرية نصرانية، ومن الغريب والعجيب أنك ترى فى أسواق الصحافة فى بعض البلاد الإسلامية، ما هب ودب، وهو وهى، من المجلات والصحف، وتمنع من الدخول والوصول بعض المجلات والصحف الإسلامية، لماذا ؟ لأنها إسلامية. وكل ما هو إسلامى يقض مضاجع المبشرين، ومن المؤلم حقاً أنك تجد عند باعة الصحف مئات المجلات فى كل التخصصات. ما عدا الإسلام، فمجلاته قليلة، تعد على أصابع اليد الواحدة، ويبدو أن هذا ربما تكون وراءه أجهزة تبشيرية، حتى لا يكون هناك التأثير الذى يمنع من التأثر بالتبشير، إن أمتنا الإسلامية مطالبة بأن تتبصر العواقب، وتتعرف على خطواتها بحكمة وتدبر قبل أن يتسع الخرق على الراقع، إن التبشير نجح فى تنصير البعض، ونجح فى أنه جعل المسلمين فى موقف المدافع وهو موقف المهزوم، فهل نتدارك هذه المواقف ونتخطاها إلى موقف المواجهة، والمواجهة تقتضى أموراً :

أولاً : علينا أن ندرك تماماً أن هؤلاء لا يبشرون بدينهم وعقائدهم، أو يعملون على تحويل المسلم عن الإسلام، إلا فى حالة إداركهم أن المسلمين غير مهتمين بالإسلام، سلوكاً وتطبيقاً، ومن هنا كان علينا أن تكون مواجهتنا للتبشير عملياً بالاهتمام بإنشاء المدارس والمستوصفات، والملاجئ ورعاية الأيتام، واللقطاء، والمسنين، ويصاحب ذلك توعية إسلامية، وتبشيرية بالإسلام.

ثانياً : إن ما يقوم به التبشير النصرانى فى إفريقيا والمجتمعات الإسلامية المختلفة، من بناء المستشفيات الخيرية، والمدارس وغيرها مما يقدم للإنسان، هو

عمل خيرى فى الدرجة الأولى، لأن الإنسان فى مثل هذه المجتمعات فى حاجة إلى من يقدم له يد العون أو المساعدة بالعلم، والخبز، والعلاج، فإذا ما أراد المسلمون المواجهة العلمية، فعليهم أن يعملوا مثلما يعمل المبشرون ويزيدون عليهم.

ثالثاً : يجب أن يدرك المسلمون أن التبشير يملك إمكانات هائلة : مادية وبشرية، فمواجهتنا للتبشير يجب أن تتوفر لها الإمكانات المادية، والطاقات البشرية.

رابعاً : لابد وأن نواجه التبشير من خلال مخطط دقيق، ينفذ بحكمة وبصيرة، توزع الأدوار ليكون هناك التكامل الواعى.

خامساً : يصاحب تلك كله هجوم ونقد للأفكار الغربية والتبشيرية، لننتقل من مرحلة المواجهة - (الدفاع) - إلى مرحلة الهجوم والنقد.

سادساً : وإذا كنا عرفنا كيفية مواجهة الاستشراق، وكيفية مواجهة التبشير - وهما أصلان رئيسيان لكل أدوات الغزو الفكرى وتياراته فى المجتمعات الإسلامية - فإن هذه المواجهة لا تتم إلا إذا قامت أجهزة الإعلام فى الشعوب الإسلامية بأمرين:

الأمر الأول : أن تقف أجهزة الإعلام من (صحافة - وإذاعة - وتلفزيون - ومسرح - وسينما - وفيديو) عن تقديم أى شئ يتنافى مع مبادئ الإسلام، لأنه لا فائدة من مواجهة الفكر الاستشراقى والتبشيرى فى الوقت الذى نجد فيه أجهزة الإعلام، تمور بكل ما هو مخالف للإسلام من عرى، وخلاعة، وتقاليد غريبة.

والأمر الثانى : أن تواكب مؤسسات الإعلام هذه المواجهة، فتتناولها وتقف من ورائها، وتعمل على مساعدتها بالتوجيه.

وقد لا يكون المرء مجانباً للصواب إذ تأكد لديه أن مؤسسات الإعلام فى بعض المجتمعات الإسلامية، قد نجح الاختراق الاستشراقى والتبشيرى فى الوصول إليها، عن طريق عملائه الذين يديرون شئونها، ولذا كان لابد من تطهير

مؤسسات الإعلام من هؤلاء العملاء الذين وقعوا فريسة الغزو الفكرى وتربوا فى مدارسه ومعاهده.

سابعاً : أن تتوجه النقود إلى أى أثر من آثار «الغزو الفكرى» الموجود بالمجتمعات الإسلامية دون مجاملة لهذه المجتمعات، وأقول هذا، لأن كل مجتمع إسلامى يحب أن يمدح فقط وقد يكون فيه من البلاوى ما فيه.

ومشكلتنا : أننا نفرح بالمدح، ونجامل بعض على حساب ما يمس شخصيتنا وإسلامنا. يجب أن نضع الحساب أن أى مجتمع إسلامى هو مجتمعنا دون عنصرية أو إقليمية أو قومية أو حزبية، وبهذا نستطيع أن نتمكن من المواجهة، وتقديم النصيحة.

ثامناً : لابد وأن تتجه جهود المصلحين فى المجتمعات الإسلامية، إلى التربية لأن المبادئ الإسلامية بمفاهيمها الأساسية، ومناهجها التربوية، تصنع شخصية متميزة لها سماتها وغاياتها الخاصة.

ولعل أخطر ما استهدفه الغزو الفكرى فى برامجه التخريبية، هو هدم شخصيتنا الإسلامية : عقدياً، وثقافياً، وسلوكياً، وعاطفياً.

ولعل معاول «الغزو الفكرى» التى أصابت الكثير، لم تؤثر إلا من جراء انهدام الشخصية الإسلامية.

ولهذا كان لابد من اتجاه فريق من المصلحين إلى تربية الأجيال، تربية إسلامية تتولى المسئولية، والإدارة.

* تربية تجعل الإنسان إيجابياً يعيش فى حركة فكرية، ونفسية، وجسدية، بناءة بعيداً عن السلوك التخريبى. . رافضاً التحجر والجمود. . لا يرضى بالسلوك الانسحابى الذى يتهرب من نشاطات الحياة، ويبتعد عن مواجه الصعاب.

* تربية تؤهل الإنسان للعطاء، وتنمى فيه القدرة على الإنتاج والإبداع، بما تفتح له من آفاق التفكير والممارسة.

* تربية تعد الإنسان إعداداً إنسانياً ناضجاً لممارسة الحياة بالطريقة التى

يرسمها ويخطط أبعادها الإسلام، لأن الحياة فى نظر الإسلام : عمل، وبناء، وعطاء، وتنافس فى الخيرات.

* تربية تجعل الشخصية الإسلامية شخصية متزنة، لا يطغى على موقفها الانفعال، ولا يسيطر عليها التفكير المادى، ولا الانحراف الفكرى المتأتى من سيولة العقل، وامتداد اللامعقول.

* تربية تبنى الإنسان على أساس وحدة فكرية، وسلوكية، وعاطفية متماسكة.. على أساس من التنسيق، والتوافق الفكرى، والعاطفى والسلوكى الملتزم، الذى لا يعرف التناقض، ولا الشذوذ.

* تربية تجعل الإنسان المسلم يشعر دوماً أنه مسئول عن الإصلاح، وأنه يجب عليه أن ينهض بمسئوليته، ويقود نحو شاطئ العدل والسلام.

* وإن أمتنا تتطلع إلى غد مشرق، والتطلع يحتاج إلى علم وعمل، وجهود بناءة تكون علامات مضيئة فى الطريق.

الخاتمة

التيارات الفكرية، والحركات المعاصرة، تشكل تياراً جارفاً، يزحف على المجتمعات الإنسانية، فى تخطيط دقيق، ليصرف المجتمعات عن حركة الحياة، ويشغلها بما هو بعيد عنها.

ولقد عانت المجتمعات الإسلامية من التيارات الفكرية الزاحفة، وشغل الناس بها، مما صرف الناس عن المواكبة العلمية، والفهم الصحيح لمبادئ الإسلام وأصبح الناس يتغنون بالماضى، وهم نائمون فى رقدة بالموت أشبه.

ولا يخفى على كاتب أو باحث : أن التيارات الفكرية، والحركات المعاصرة، تعمل بكل ما تملك من امكانات على غزو الأمة الإسلامية غزواً فكرياً يفتت الأمة، ويضعف من انطلاقها، ويقيد حركتها ويبعدها عن الواقع.

والغزو الفكرى المتمثل فى التيارات والحركات المعاصرة :

-«هو أن تظل الشعوب الضعيفة أو النامية خاضعة لنفوذ القوى المعادية لها»

- إن هذا الغزو هو أن تظل بلدان العالم الإسلامى خصوصاً، والعالم النامى عموماً تابعة لتلك الدول الكبيرة المتقدمة، تبعية غير منظورة، وفى هذه التبعية يكمن دهاء تلك الدولة المتبوعة وذكاؤها، فليس أقتل للشعوب من أن تحس بالحرية والاستقلال. بينما هى ترسف فى قيود الذل والتبعية.

- الغزو الفكرى : هو أن تتبنى أمة من الأمم وبخاصة الأمة الإسلامية معتقدات وأفكاراً لأمة أخرى من الأمم الكبيرة.

- الغزو الفكرى : هو أن تتخذ أمة من الأمم مناهج التربية والتعليم لأمم أخرى غيرها، فتطبقها على أبنائها وأجيالها، فتشوه بذلك فكرهم، وتمسخ عقولهم.

- الغزو الفكرى : هو أن يحول الغازون بين الأمة الإسلامية وبين تاريخها وماضيها وسير الصالحين من أسلافها.

- الغزو الفكرى : هو أن تزاحم لغة الغالب المغلوب فضلا عن أن تحل محلها بإحياء اللهجات العامية والإقليمية وكتابة الأسماء والمسميات بلغات لاتينية ومن المؤكد أن إضعاف لغة أمة هو إضعاف لفكرها.

- الغزو الفكرى : هو أن تسود الأمة المغزوة أخلاق الأمم الغازية وعاداتها وتقاليدها»[1].

فأصحاب المذاهب والنظريات المعادية للإسلام، ماسكتوا عن الإسلام، منذ أن أشرق على الأرض ولا يزالون يتحركون ليكيدوا للإسلام والمسلمين. ولازال الغزو الفكرى للإسلام والمسلمين. يستهدف الجذور، ويركز على تشويه الأصول.

والحركات الهدامة، والتيارات المختلفة تحاول جهدها أن تعيق العمل الإسلامى. كى لا ينطلق بالمسلمين إلى كل ما من شأنه أن يأخذ بالأمة إلى الاستثمار والتنمية والإنتاج والتقدم.

وقد لا يكون المرء مجانباً للصواب إذا تأكد لديه : أن ما تعانيه الأمة الإسلامية من هزائم فكرية، واقتصادية، وسياسية، هو نتيجة حتمية، لتغلغل التيارات، والحركات الهدامة، التى تنخر فى عظام الأمة.

وإن أخص صفات عصرنا هى أنه ينتج من الأفكار بقدر ما ينتج من الأشياء: وليس من الضرورى أن نتطلب من الأفكار المنتجة أن تكون نافعة دائماً كالأشياء، فإن المجتمعات التى تصدر إلينا أشياء الحضارة، ترى فى الأفكار سلعة ينبغى أن تتغير كل يوم.

ومما لا شك فيه أن العالم الإسلامى هدف ثمين من أهداف تصدير الأفكار، نظراً إلى موقعه، وخطورة موقفه بين الكتل المتصارعة.

والهدف من وراء التصدير واحد لدى مراكز الإنتاج، وهو أن يبقى هذا العالم مفتقراً إليها على اختلافها، وأن يحال بينه وبين أفكاره الأصلية..

---

(١) الدكتور على محمود عبدالحليم: «الغزو الفكرى والتيارات المعادية للإسلام» ص: ٧-١١ بتصرف. ط جامعة الإمام سعود.

وسوق الأفكار أخطر أسواق المنتجات، وأكثرها تقبلاً للتزييف والإفساد، ومن ثم حفلت أسواقنا بما هو أشد فتكاً من السموم أفكار ترتدى أثواباً أو تحمل شعارات أو ترفع مشاعل ليس الثوب فيها، أو الشعار، أو المشعل، إلا قناعاً يستر الزيف والخطر[1].

ومن حق الأمة الإسلامية، أن تتنبه للأخطار الفكرية والتيارات الهدامة، التى تحدق بالأمة.

ومن حق الأمة أن تتبصر المواقع، وتتعرف على طريق الصواب، لتتمكن من المواجهة، والمواجهة لن تتم إلا بالتعرف على التيارات التى تنتشر بين المسلمين، ومواجهتها مواجهة فكرية، لأن المعركة معركة فكرية، والمعارك الفكرية تكون مواجهتها بالفكر، والوعى، والفهم.

---

(١) انظر وحيد الدين خان: «الإسلام يتحدى» ص: ٧ ط: دار البحوث العلمية بالكويت ١٣٩٠هـ ١٩٧٠م.



المصادر والمراجع

- ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد . المقدمة، ط بيروت .
- ابن رشد : محمد أبو الوليد . فصل المقال، ط دار الأفاق . بيروت .
- ابن منظور : أبو الفضل جمال الدين محمد . لسان العرب، ط بيروت .
- ابن نبـي : مالك . إنتاج المستشرقين، ط دار الإرشاد بيروت .
- أبو طالب : الدكتور صوفى . بين الشريعة والقانون الرومانى، القاهرة .
- أبو فرحة : محمد محمد أبو فرحة . الصهيونية ومخططاتها، المدينة المنورة .
- أحمد : إبراهيم خليل . المستشرقون والمبشرون فى العالم العربى، بيروت .
- أتلخان : الجنرال جواد رفعت . أسرار الماسونية، ط المختار الإسلامى بيروت .
- أسد : محمد أسد . الإسلام على مفترق الطرق، بيروت .
- أسود : عبد الرازق محمد . الموسوعة الفلسطينية، ط منظمة التحرير، بيروت .
- اشفيتسر : البرت . فلسفة الحضارة، ط الأندلس، بيروت .
- أمين : حسين أحمد . حول تطبيق الشريعة الإسلامية، ط مدبولى . القاهرة .
- بدوى : الدكتور عبد الرحمن . دور العرب فى تكوين الفكر الأوربى، ط بيروت ١٩٤٠م .
- البشير : أحمد البشير : الغزو الفكرى والتيارات المعاوية للإسلام، ط جامعة الإمام سعود الإسلامية . ١٤٠١هـ .
- البهى : الدكتور محمد البهى - المبشرون والمستشرقون . حولية كلية الدعوة القاهرة ١٤٠٦هـ .
  - الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار، ط مكتبة وهبة القاهرة .
  - العلمانية والإسلام بين الفكر والتطبيق، ط الأزهر .

- الفكر الإسلامى والمجتمع الإسلامى، ط دار الفكر ١٩٧٢م.
- باستيد : جورج. كتاب المدينة ترجمة عادل العواط. دمشق.
- البيرونى : محمد. تاريخ الهند أو تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة، ط بيروت.
- بيومى : الدكتور. عبد المعطى بيومى. الله والفلسفة، حولية كلية الشريعة، قطر الصادر فى ١٩٨٥م.
- التل : عبد الله التل. خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية، ط المكتب الإسلامى بيروت ١٣٩٩هـ.
- التونسى : خليفة التونسى. الخطر اليهودى. ط المكتب العربى بيروت.
- التميمى : وأخرين عز الدين الخطيب التميمى. نظرات فى الثقافة الإسلامية، ط دار العزقان عمان ١٤٠٤هـ.
- جارودى : الدكتور رجاء جارودى. ماركسية القرن العشرين، ط دار الآداب بيروت ١٩٧٢م.
- جريشة : الدكتور على جريشة، أساليب الغزو الفكرى فى العالم الإسلامى، ط بيروت ١٩٧٨م.
- الجندى : أنور الجندى - الإسلام فى وجه التغريب، ط دار الاعتصام بالقاهرة.
- مقدمات فى العلوم والمناهج، ط الأنصار بالقاهرة ١٣٩٩هـ.
- تصحيح المفاهيم فى ضوء الكتاب والسنة، ط دار الاعتصام بالقاهرة.
- الإسلام مجتمع ومنهج الحياة، ط دار الاعتصام بالقاهرة ١٣٩٩هـ.
- اصالة الفكر العربى الإسلامى، ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية القاهرة.
- سقوط العلمانية، ط دار الاعتصام ١٣٩٨هـ.
- إطار إسلامى للفكر المعاصر، ط المكتب الإسلامى بيروت ١٩٨٠م.
- شبهات التقريب فى الغزو الفكرى الإسلامى، ط المكتب الإسلامى ١٤٠٣هـ.
- المد الإسلامى فى القرن الخامس عشر. دار الاعتصام بالقاهرة ١٩٨٣م.

- جيوم : الفريد جيوم. الفلسفة وعلم الكلام بحث منشور فى تراث الإسلام، ط الكويت.
- حبنكة : عبد الرحمن حسن. الغزو الفكرى والتيارات المعادية للإسلام، ط جامعة الامام محمد بن مسعود الإسلامية ١٤٠١ هـ.
- أجنحة المكر الثلاثة ط دار العلم بيروت ١٩٧٧م.
- أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها ط دار القلم دمشق ١٤٠٠هـ.
- حجازى : الدكتور محمود فهمى حجازى. أصول الفكر العربى الحديث عند الطهطاوى ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤م.
- حسان : الدكتور حسان محمد. وسائل مقاومة الغزو الفكرى، ط رابطة العالم الإسلامى مكة المكرمة ١٤٠١هـ.
- وسائل مقاومة الغزو الفكرى للعالم الإسلامى، ط الرياض السعودية.
- حسن : الدكتور محمد محمد حسن. الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر.
- حسن : محمد أمين حسن. خصائص الدعوة الإسلامية، ط مكتبة المنار الأردن.
- حسن : الدكتور محمد إبراهيم حسن. الاستشراق وأثره على الثقافة العربية، مجلة رسالة الخليج العربى عدد رقم ٢٣ الرياض مكتب التربية العربى لدول الخليج.
- حسين : الدكتور مبارك حسن حسين. التيارات الفكرية والمعاصرة، ط القاهرة.
- حمزة : الدكتور كمال حمزة : التبشير المسيحى وبعض أساليبه وآثاره، ط الطبعة العصرية. دبى.
- الحوالى : سعد بن عبد الرحمن الحوالى : العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها فى الحياة الإسلامية، ط دار مكة المكرمة ١٩٨٢م.
- الحومانى : محمد الحومانى. المستشرقون، مجلة الرسالة ١٩٣٧م.
- حمدان : محمد مصباح حمدان. الاستعمار والصهيونية، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٦٨م.
- حمادة : حسين حمادة. الحوار القرآنى. مجلة المعارج م١، ع٨ بيروت ١٤١٢هـ.

- حوى : سعيد حوى. الأساس فى التفسير، ط دار السلام القاهرة ١٤٠٥هـ.
- الخطيب : محب الدين الخطيب. وساعد الياقى. الغارة على العالم الإسلامى، ط بيروت.
- الخطيب : عمر عودة الخطيب. نظرات إسلامية فى التميز العنصرى، ط مؤسسة الرسالة بيروت ١٣٩٩هـ.
- لمحات من الثقافة الإسلامية، ط دار الثقافة بيروت، ط مؤسسة الرسالة بيروت ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.
- الخطيب : عبد الكريم يونس الخطيب. الغزو الفكرى والتيارات المعادية للإسلام، ط جامعة الإمام الإسلامية.
- الخالدى : دكتور مصطفى الخالدى. ودكتور عمر فروخ. التبشير والاستعمار، ط المكتبة العصرية بيروت ١٩٧٣م.
- الخربوطلى : دكتور على حسن. المستشرقون والتاريخ الإسلامى، ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٣٩٠هـ.
- خان : وحيد الدين. الإسلام يتحدى، ط المختار الإسلامى.
- خليل : دكتور عماد الدين الخليل. المستشرقون والسيرة النبوية ط دار الثقافة بالدوحة ١٤١٠هـ.
- رمضان : محمد مصطفى رمضان. الشعوبية الجديدة، ط بيروت ١٩٦٩م .
- الرفاعى : أنور. الإسلام فى حضارته ونظمه، ط دار الفكر بيروت ١٣٩٣هـ.
- زقزوق : دكتور محمود حمدى. الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى كتاب الأمة قطر ١٩٨٤م.
- دور الإسلام فى تطور الفكر الفلسفى، ط مكتبة وهبة بالقاهرة.
- الزغبى : محمد على. الماسونية فى، ط بيروت ١٩٨٥م.
- دقائق النفسية اليهودية ط بيروت ١٩٦٨م.
- الزيات : أحمد حسن، تاريخ الأدب العربى، ط القاهرة ١٩٥٤م.

- زيدان : جورجى زيدان. تاريخ الماسونية العام، ط الأنجلو المصرية ١٩٤٨م.
- السايح : دكتور أحمد عبد الرحيم : العلاقة بين الاستشراق والتبشير حولية كلية أصول الدين بالمنوفية عدد ٩/ -٩-١٤٠٩هـ.
- أضواء على الحضارة الإسلامية، ط دار اللواء السعودية ١٤٠١هـ.
- معارك حاسمة فى حياة المسلمين، ط دار اللواء الرياض ١٤٠٩هـ.
- تيارات فكرية والحركات المعاصرة، ط دار الطباعة المحمدية بالقاهرة ١٩٩٠م.
- هذا هو الإسلام، ط دار الثقافة بالدوحة ١٩٨٩م.
- سامى : عبد الرحمن سامى. الصهيونية والماسونية دار الفكر العربى بيروت ١٩٦٣م.
- السباعى : دكتور مصطفى السباعى. الاستشراق والمستشرقون، ط المكتب الإسلامى بيروت ١٤٠٥هـ.
- السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى، ط المكتب الإسلامى بيروت ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.
- سمايلوفتش : دكتور أحمد سمايلوفتش. فلسفة الاستشراق، ط دار المعارف المصرية ١٤٠٠هـ.
- سعيد : دكتور عبد الستار فتح الله سعيد. معركة الوجوديين بين القرآن والتلمود، ط دار النصر بمصر.
- شلبى : دكتور أحمد شلبى. اليهودية مقارنة الأديان، ط الأنجلو المصرية ١٩٧٢م.
- شحاته : دكتور شفيق شحاته. الاتجاهات التشريعية فى قوانين البلاد العربية ، ط المطبعة العالمية ١٩٦٠م.
- شاكر : محمود شاكر. العالم الإسلامى ومحاولة السيطرة عليه، ط ١٩٦٧م.
- شمس الدين : محمد مهدى شمس الدين. حول العلمانية مجلة الهدى - إيران ١٩٦٠م.

- السكعة : سعود بن على الصقرى الماسونية فى الميراث، ط مطابع الفرزدق السعودية ١٤٠٨هـ.
- الصواف : محمد محمود الصواف. المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام، ط بيروت.
- صليبا : دكتور جميل صليبا. تاريخ الفلسفة العربية، ط دار الكتاب اللبنانى ١٩٨٦م.
- المعجم الفلسفى. ط دار الكتاب اللبنانى بيروت ١٩٧٨ م.
- ضياء الدين : حسن ضياء الدين. الاستشراق. مجلة كلية الشريعة العدد الخامس مكة المكرمة ١٤٠١هـ.
- طعيمة : دكتور صابر. الماسونية ذلك العالم المجهول، ط السعودية.
- طرزى : فليب. خزائن الكتب فى الخافقين، ط بيروت.
- الطويل : دكتور توفيق. الحضارة الإسلامية والحضارة الأوربية، ط مكتبة التراث الإسلامى مصر ١٩٩٠م.
- الخالدى : دكتور مصطفى الخالدى ودكتور عمر فروخ. التبشير والاستعمار، ط المكتبة العصرية بيروت ١٩٧٣م.
- الخربوطلى : دكتور على حسن. المستشرقون والتاريخ الإسلامى، ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٣٩٠هـ.
- خان : وحيد الدين. الإسلام يتحدى، ط المختار الإسلامى.
- خليل : دكتور عماد الدين خليل. المستشرقون والسيرة النبوية، ط دار الثقافة بالدوحة ١٤١٠هـ.
- رمضان : محمد مصطفى الشعوبية الجديدة، ط بيروت ١٩٦٩م.
- الرفاعى : أنور. الإسلام فى حضارة ونظمه، ط دار الفكر بيروت ١٣٩٣هـ.
- طه : دكتور طه. من افتراء المستشرقين على أحاديث التوحيد. مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية. عدد ١٣ رمضان ١٤٠٩هـ مجلس النشر العلمى الكويت.

- الطهطاوى : المستشار محمد عزت إسماعيل . التبشير والاستشراق ، ط مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ١٣٩٧هـ .
- عبد الوهاب : أحمد عبد الوهاب . حقيقة التبشير الماضى والحاضر ، ط مكتبة وهبة ١٤٠١هـ .
- العبود : صالح بن عبد المعبود . فكرة القومية العربية على ضوء الإسلام . ط الرياض السعودية ١٤٠٥هـ .
- عزيز : سامى عزيز . الصحافة المصرية وموقعها من الاحتلال الإنجليزى ، ط دار الكتاب العربى ١٩٦٨م .
- عطار : أحمد عبد الغفور . مؤامرة الصهيونية على العالم . دار العلم للملايين بيروت .
- العقاد : عباس . أثر العرب فى الحضارة الأوروبية ، ط دار المعارف المصرية بين الكتب والناس ، ط بيروت .
- العقيقى : نجيب العقيقى . المستشرقون جـ١ ، ٢ ، ٣ ط دار المعارف بمصر .
- العالم : جلال العالم . قادة العرب يقولون : دمروا الإسلام ، ط دار الاعتصام ١٣٩٩هـ .
- عمارة : دكتور محمد عمارة . الغزو الفكرى وهم أم حقيقة ، ط دار الأمانة العامة للدعوة بالأزهر ١٩٨٨م .
- تيارات الفكر الإسلامى . ط دار المستقبل العربى القاهرة ١٩٨٣م .
- عثمان : دكتور محمد فتحى . القيم الحضارية فى رسالة الإسلام ، ط دار السعودية ١٤٠٢هـ .
- العمدى : نادية شريف العمدى . أضواء على الثقافة الإسلامية ط مؤسسة الرسالة بيروت ١٤٠٦هـ .
- عصفور : محمد أبو المحاسن عصفور . معالم حضارات الشرق الأولى القديم . ط دار النهضة العربية بيروت ١٩٧٩م .
- غربال : محمد شفيق غربال . الموسوعة العربية الميسرة ، ط بيروت .

- الغزالى : الشيخ محمد الغزالى : حقيقة القومية، ط دار العروبة بيروت.
- الغزالى : أبوحامد. فضائح الباطنية، ط القاهرة ١٩٧٤م.
- الفاروقى : دكتور إسماعيل راجى الفاروقى. أصول الصهيونية فى الدين اليهودى، ط مكتبة وهبة ١٤٠٨هـ.
- فرغلى : دكتور يحيى هاشم حسن. حقيقة العلمانية، ط الصابونى القاهرة.
- فرج : دكتور السيد أحمد فرج. جذور العلمانية، ط دار الوفاء بالمنصورة ١٩٨٥م.
- فروخ : دكتور عمر الفروخ. الاستشراق فى نطاق العلم وفى نطاق السياسة من كتاب المستشرقون والإسلام فى الهند، ط بيروت ١٩٧٩م. الفكر العربى، ط دار العلم للملايين بيروت ١٩٨٦م.
- الفرماوى : دكتور عبد الحى. صحوة فى عالم المرأة، ط مكتبة التراث الإسلامى القاهرة.
- الفيومى : دكتور محمد إبراهيم الفيومى. الوجودية فلسفة الوهم الإنسانى، ط الأزهر ١٤٠٤هـ.
- قطب : محمد قطب. واقعنا المعاصر، ط مؤسسة المدينة جدة ١٤٠٧هـ العلمانية، ط الرياض ١٤٠٠هـ.
- القارى : الشيخ عبد العزيز. المستشرقون فى الميزان. من محاضرات الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ١٣٩٣هـ.
- قطب : سيد قطب. معالم فى الطريق، ط بيروت.
- قمبر : دكتور محمد قمبر. هدفيه العمل فى الإسلام. حولية كلية التربية جامعة قطر عدد ٨/ ١٤١١هـ - ١٩٩١م.
- الكيلانى : دكتور نجيب. الإسلام والقوة المضادة، ط مؤسسة الرسالة بيروت ١٤٠٠هـ.
- لوبون : جوستاف لوبون. حضارة العرب. ترجمة عادل زعير، ط٢م، ١٩٤٨م.

- مجلة المنهل : عدد متخصص. الاستشراق. رمضان شوال ١٤٠٩هـ. عدد رقم ٤٧١ جدة السعودية.
- المبارك : دكتور محمد المبارك، الفكر الإسلامى الحديث فى مواجهة الأفكار الغربية، ط دار الفكر العربى ١٩٨٧م.
- محمود : دكتور عبد الحليم محمود. أوربا والإسلام، ط منشورات المكتبة العصرية، بيروت.
- محمود : دكتور على عبد الحليم محمود. الغزو الفكرى والتيارات المعارضة للإسلام، ط جامعة الدمام ١٤٠١هـ.
- المرصفاوى : دكتور فتحى المرصفاوى. دراسة تطبيق الشريعة الإسلامية فى مصر، ط دار الفكر العربى ١٤٠١هـ.
- المسيرى : عبد الوهاب المسيرى. موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية، ط بيروت.
- محمد : دكتور ماهر عبد القادر محمود. المشكاة مجموعة مقالات الفلسفة والعلوم الإنسانية، ط دار المعرفة الجامعية الإسكندرية ١٩٨٥ م.
- مرحباً : دكتور محمد عبد الرحمن. أصالة الفكر العربى، ط منشورات عويدات ١٩٨٢م بيروت، فرنسا.
- مدكور : دكتور على أحمد. الثقافة والحضارة فى الإسلام مجلة الدارة سنة ١٤ عدد ٤ السعودية.
- مظهر : اسماعيل مظهر. تاريخ الفكر العربى، ط بيروت.
- مكاريوس : شاهين مكاريوس. الأدب الماسونية، ط دار الفكر العربى ١٩٦٦م.
- المصرى : عبد السميع المصرى : الصهيونية بين الدين والسياسة، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٩٧هـ.
- الندوة العالمية للشباب الإسلامى. الموسوعة الميسرة فى الأديان والمذاهب المعاصرة، ط الرياض ١٤٠٩هـ.

- الندوى: ابو الحسن على. الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة العربية فى الأقطار الإسلامية، ط دار العلم الكويت ١٩٨٣م.
- العرب والإسلام، ط مكتبة المنارة مكة المكرمة ١٩٨٨م.
- النعمة : إبراهيم النعمة. المسلمون أمام تحديات الغزو الفكرى، ط شركة ومطبعة الزهراء العراق ١٩ .
- النقرة : د. التهامى النقرة. القرآن والمستشرقون، ط مكتب التربية لدول الخليج العربى ١٩٨٥م.
- نجيب : دكتور عمارة نجيب. الإعلام فى ضوء الإسلام، مكتبة المعارف الرياض السعودية ١٤هـ.
- الأنصارى : دكتور محمد جابر الأنصارى. تحولات الفكرة والسياسة فى الشرق العربى، ط الكويت.
- النشار : دكتور على سامى النشار. نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام، ط دار المعارف بمصر ١٩٧٧م.
- الهروى : حسين الهروى. نحن و المستشرقون، مجلة المعرفة ١٩٣٣ القاهرة.
- هينرش : بكر كارل. التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية، ترجمة دكتور عبد الرحمن بدوى، ط القاهرة ١٩٦٥م.
- الواعى : دكتور يوسف توفيق الواعى. الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية، ط دار الوفاء بالمنصورة ١٤٠٨هـ.
- يحيى : دكتور جلال يحيى. المجمل فى تاريخ مصر الحديثة، ط المطبعة المصرية. ١٩٨٤م.
- يحيى : دكتور محمد يحيى. ورقة ثقافية فى الرد على العلمانية ط دار الزهراء مصر ١٩٨٥م.
- يكن : فتحى يكن. حركات ومذاهب فى ميزان الإسلام، ط دار الجيل بيروت ١٩٧٠م.

المحتويات